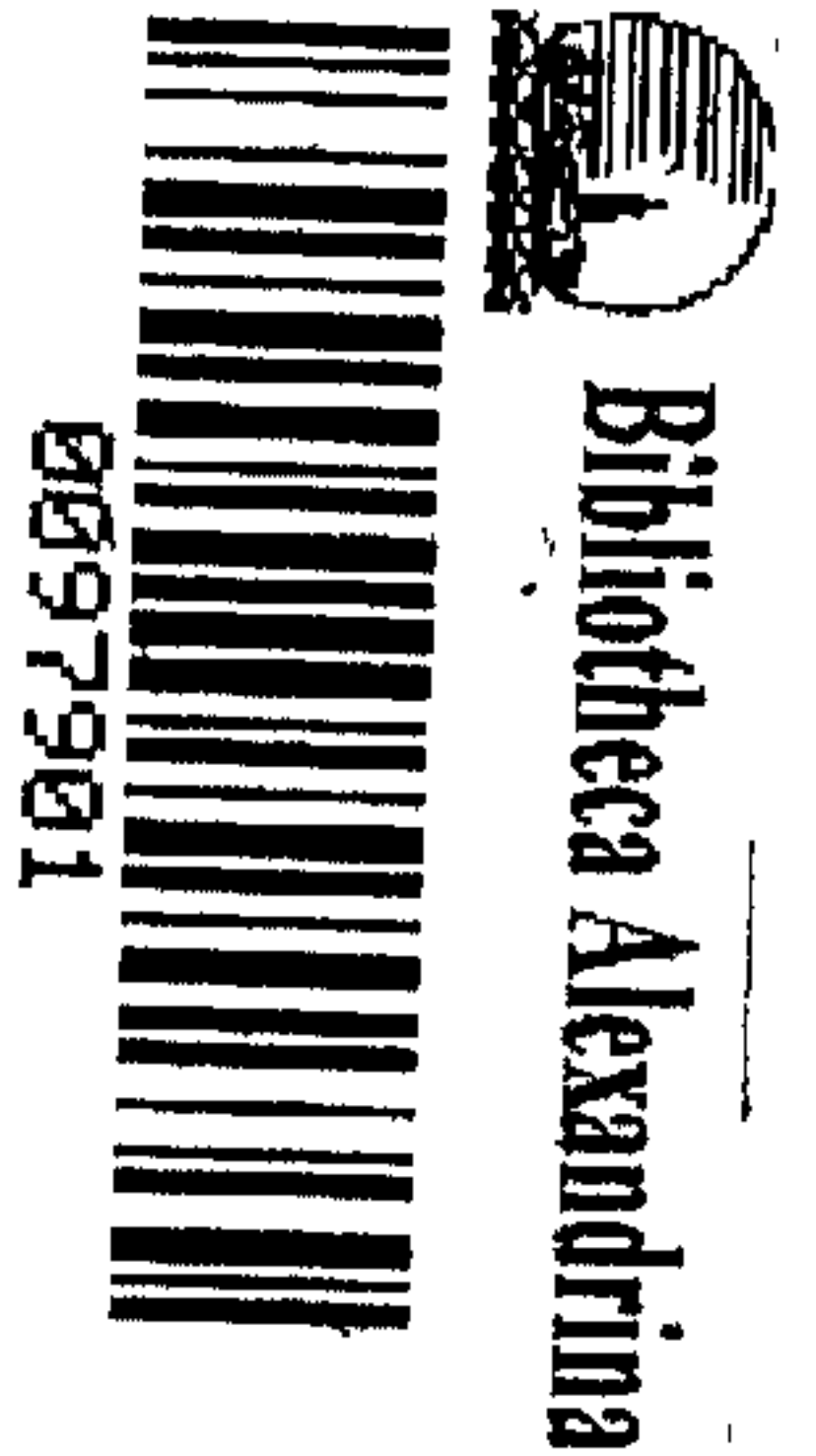
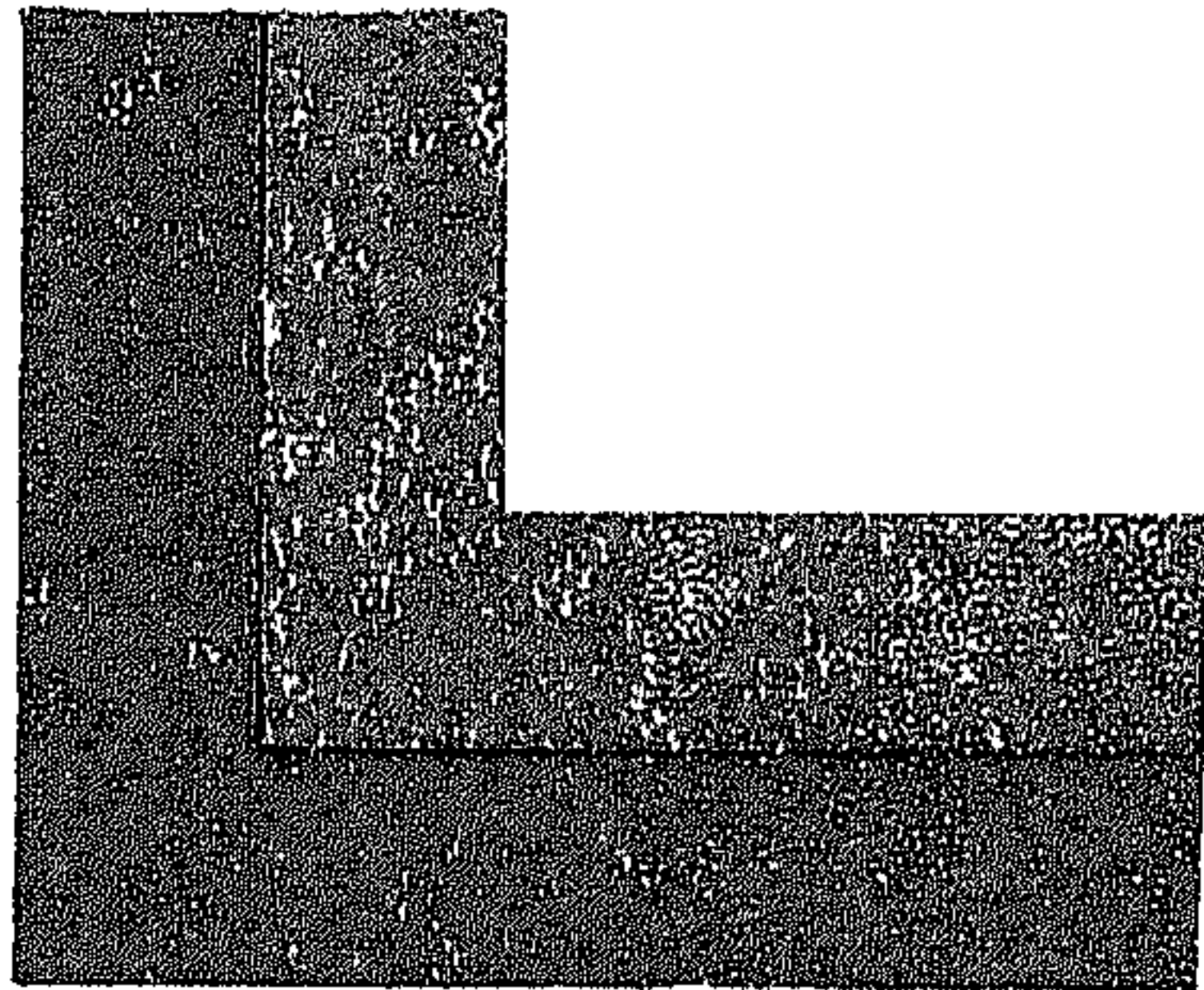


وسائل الترفيه في عصر
سلاطين المماليك
في مصر

لطفى أحمد نصار



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



تاريخ المصريين

(١٤١)

● تاريخ المصريين

رئيس مجلس إدارة:

د. سمير سرهان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

محمود الخزار

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



وسائل الترفيه في عصر بلاطين المماليك في مصر

لطفى أحمد نصار



المسئمة المستعمرة المتنامة للكتاب

فرع الصحافة

١٩٩٩

الإشراف الفني :

محمود الجزار

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب المهم عن « وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر » ، الذي ألفه الباحث لطفى أحمد نصار ، وهو في الأصل رسالة علمية في التاريخ الاسلامي والوسيط حصل بها صاحبها على درجة الماجستير .

وقد قدم الباحث لدراسته بلمحة سريعة عن بعض وسائل الترفيه التي كانت شائعة قبل عصر المماليك ، لينتقل بعدها الى عصر المماليك محل الدراسة . وقد قسمه الى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : وهو بعنوان « المجالس »

والثاني : بعنوان « الألعاب الرياضية » .

والثالث : بعنوان « الألعاب المنزلية أو الهادئة » .

وبالنسبة للمجالس فقد تحدث فيه عن ثلاثة أنواع من المجالس : مجالس العلم والوعظ والقصص ، ومجالس الأدب والشعر ، ومجالس الشراب والطرب .

أما عن الألعاب الرياضية فقد تحدث فيها عن ألعاب الفروسية والرماية ، وتناول فيها لعبة رياضية مرتبطة بالفروسية تسمى لعبة القبق أو القباق ، ومعناها بالتركية القرعة العسلية ، وقد

أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية ، والمعروف باسم « القبق » فى عصر المماليك .

كذلك تحدث عن الصيد والقنص ، والرمى بالبندق ، وهو الكرات الصغيرة من الحجارة أو الطين أو الرصاص أو الفضة أو الذهب ، التى كانت تطلق بالمزاريق فى رمية الطيور ، ومن هنا اسم البندقية الحديثة لنفس الغرض كسلاح نارى .

كذلك تناول الباحث فى هذا الباب ألعاب الكرة والسباحة وغير ذلك من الألعاب مثل سباق الخيل ، والمصارعة ، واللعب بالطيور ، ورفع الأثقال الذى كان يطلق عليه اسم « المعالجة » ، والملاكمة أو « اللكام » ، والتحطيب ، ومناقرة الديوك ، وتناطح الكباش والثيران . .

أما الباب الثالث ، فتناول فيه الباحث ألعاب النرد والشطرنج ولعب الورق وألعاب الأطفال ، وتناول فى فصل خاص ألعاب خيال الظل .

والكتاب بذلك يسد نقصا فى المكتبة العربية كانت فى أشد الحاجة إليه ، وقد رجع فيه الباحث الى أوثق المصادر الأصلية . وهو جدير بالقراءة .

والله الموفق ،،،

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

تمهيد

لا شك أن الترفيه أمر ضروري للإنسان ، مهما كان موقعه في الحياة ، حاكما كان أو محكوما ، خاصة أن الترفيه باختلاف وسائله يشكل جانبا مهما من جوانب حياة الإنسان حتى يمكن اعتباره الوجه الآخر للعمل كما أنه لا يمكن أن نعتبر كل ترفيه لهوا أو مجونا ، أو مضيعة للوقت كما يتصور البعض ، فإن له جوانب ايجابية متعددة ، خاصة وسائل الترفيه التي تتصل بالفنون والرياضة والفروسية ، وكما قبل : لا تخلو تسلية من فائدة ، كذلك قبل أن شعبا لا يعرف كيف يلعب لا يعرف كيف ينتج .

وبمنظور اسلامي نجد ان الدين الاسلامي دين واقعي يقف من الانسان على أرض الحقيقة والواقع ، ويعامل الناس معاملة تتفق مع بشريتهم ، ولم يفترض فيهم أو يفرض عليهم أن يكون كل كلامهم ذكرا أو كل صمتهم فكرا ، أو كل فراغهم في المسجد ، أو كل سماعهم قرآنا ، بل اعترف بفطريتهم وغرائزهم التي خلقوا عليها ، يفرحون وبمرحون ويضحكون ويلعبون كما يأكلون ويشربون .

وان لكل شعب من الشعوب وسائل الترفيه الخاصة به ، التي يقبل عليها في أوقات الفراغ ، والتي كثيرا ما تتلاءم مع عادات أهله وتتواءم مع أخلاق أدمته . ورغم اختلاف هذه الوسائل من حيث

الشكل والمضمون وتبعاً للزمان والمكان ، فانها تتفق عادة من حيث الغرض منها الا وهو تريض العقول والأبدان .

وقد تفنن العرب فى ايجاد الوسائل التى شغلوا بها اوقات فراغهم . فقد كان بعض هذه الوسائل معروفا لديهم فى الجاهلية كمجالس الشعر والأدب ، ومجالس الشراب والطرب ، والصيد والسباق ، بيد أنهم أخذوا عن الشعوب التى احتكوا بها بعد الفتح الاسلامى العديد من وسائل الترفيه الأخرى كاللعب بالكرة والصولجان ، والرمى بالبندق واللعب بالفرد والشطرنج ونحوها .

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحب السرور وما يجلبه ويكره الحزن وما يدفع اليه ، ويستعيز بالله من شره كما كان يعيش حياته مع الناس بشرا سويا ، يحب الطيبات ، ويبش ويتسم ، ويداعب ويمزح ، ولا يقول الا حقا .

كما شرع عليه السلام ألوانا كثيرة من اللهو وفنوننا من اللعب للمسلمين ترفيها عنهم ، وترويحاً لهم . وهى مع ذلك فى كثير منها رياضات تدريبهم على معانى القوة وتعددهم لميادين الجهاد فى سبيل الله ، مثال ذلك مسابقة العدو ، فقد كان الصحابة يتسابقون على الأقدام والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقرهم عليه وقد روى أن علياً كرم الله وجهه كان عداء سريع العدو (1) .

كما كان النبي نفسه (صلى الله عليه وسلم) يسابق زوجته عائشة مباسطاً لها وتطيباً لنفسها ، وتعليماً لأصحابه .

ويستنبط الفقهاء أن المسابقة والمصارعة لا تنافى الوقار والشرف والعلم والفضل وعلو السن ، فقد صارع الرسول رجلاً معروفاً بقوته يدعى « ركانة » فصرعه النبي أكثر من مرة . كما

كان يمر على أصحابه فى حلقات الرمى فيشجعهم ويقول : « ارموا وأنا معكم » (٢) وكان يرى عليه السلام أن هذا الرمى ليس هواية أو لهوا فحسب بل يراه نوعا من القوة التى أمر الله بإعدادها ، فكان يأمر أصحابه بالرمى ويعتبره خيرا لهوهم .

وكان الرسول يهتم بالفروسية ويحث على الركوب ويرى أن الخير معقود بنواصى الخيل . ويتضح من ذلك أن الرسول كان يشجع مثل هذه الرياضات لأنها لهو ورياضة وتدريب واعداد للقوة .

والصيد من اللهو النافع الذى أقره الاسلام فهو متعة ورياضة واكتساب سواء كان عن طريق الآلة كالنبال والرماح أو عن طريق الجوارح كالكلاب والصقور .

كما كان الصحابة يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون ، معرفة منهم بحظ النفس ، وتلبية لنداء الفطرة ، وتمكينا للقلوب من حقها فى الراحة واللهو البريء لتكون أقدر على مواصلة السير فى طريق الجد .

كذلك عرف المسلمون اللعب بالشطرنج والنرد وهى من وسائل الترفيه المعروفة كما مارس المسلمون فنون الغناء والموسيقى فى كل العصور ، وهما من ألوان الترفيه التى تستريح اليها النفوس وتطرب لها القلوب .

وقد أخذ العباسيون نظام مجالس الطرب والغناء التى انتشرت فى عهدهم عن الفرس وكان الرشيد من بين خلفاء بنى العباس الذين جعلوا للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أكاسرة الفرس . كما فاق الرشيد غيره من الخلفاء فى تقديره الندماء والمغنين والموسيقيين ، حتى أنه لم يجتمع على باب خليفة من الندماء والمغنين ما اجتمع على بابيه .

وكان الأمين بن الرشيد يميل الى سماع الأغاني ويقضى أوقاته في الاستمتاع بضروب اللهو فقد روى الطبري أنه لما خلافة وجه الى جميع البلدان في طلب المهين وضمهم اليه وأج لهم الأرزاق ، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خاوته ولا ولعبه بقصر الخلد .

وقد كان المأمون — وهو حجة في المسائل العا والفلسفة — يمتنع عن سماع الغناء ثم أخذ يسمعه من وراء حجب كما كان يفعل أبوه الرشيد في أول عهده بالخلافة ، وعندما شد بالغناء دعا الندماء والمغنين الى الجلوس بحضرته ، كما قد اليه اسحق الموصلي ، ورفع من شأنه ، وكذلك فعل مع ابراهيم بن المهدي وكان مبدعا في غنائه .

ولم تكن مكة والمدينة من هذه الناحية بأقل من بغداد ، ان بعض الباحثين يرى أننا لا نسرف اذا قلنا « ان نهضة الك في العراق في أثناء العصر العباسي انما كانت امتدادا لهذه المو التي نفذت الى العراق على أيدي مغني مكة وزملائهم من المدينة .

ويرجع انتشار الغناء في هذا العصر الى كثرة الجوارى وكان معظم الفتيات اللاتي يحترفن الغناء ببغداد في أوائل الك الرابع الهجرى من الجوارى وقليل منهن من الحرائر . وكا الجوارى يغنين من وراء ستار ، واذا ما أقيم حفل خاص أراد به اكرام ضيف غنت المغنيات في هذا الحفل أمام الستار .

وبرغم ان الغناء والطرب كان من أهم وسائل الترفيه وأكثر انتشارا على امتداد العصر العباسي ومن قبله العصر الأموي فقد كانت المجالس الخاصة تعقد في داخل المنازل لسماع الحكايات

القصيرة من النوادر والأحاديث التي تتجلى فيها الباقية العقلية
ولقضاء أوقات الفراغ في ألعاب هادئة (٣) .

فقد عرف المسلمون الشطرنج في عهد الرشيد وأظهر الخليفة
المأمون بعد قدومه من خراسان إلى بغداد ميلا إليه فاستحضر
كبار لاعبيه وقد كانوا يتوقرون بين يديه حتى ضاق لذلك وقال :
« ان الشطرنج لا يلعب مع الهيبة ، قولوا ما تقولون اذا خلوتهم » .

ومن البديهي فان الترفيه ووسائله المتنوعة أمر قائم في كل
حقة من الحقب ، ولدى كل شعب من الشعوب لذا تجدر الإشارة
إلى ما كان سائدا منها في مصر في عهد الطولونيين .

فقد كان الطولونيون يعنون بالغناء والموسيقى ، ولعل ما يدل
على ذلك بيت الذهب الذي بناه خمارويه بن أحمد بن طولون واتخذ
على حيطانه صورة بارزة من الخشب تمثله مع مغنيانه بأشكال
بلغت حد البهاء ودقة الزخرف ، وكان اذا جلس لسماع الغناء
وسمع المؤذن ، يأمر المغنيات بوقف الغناء . ولم يكن خمارويه
مبتدعا في ذلك أثناء الحكم الطولوني فقد سبقه أبوه أحمد بن
طولون في الاهتمام بالرياضة فقد شيد ميدانا خاصا للعب الكرة
خارج نطاق مصر على نمط الميدان الذي ألحقه الخليفة المعتصم
بقصر الخلافة بمدينة سامرا .

كما عني ابن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكانا لعرض
الخيال سماه المقظر ، واعتبره القضاء إحدى عجائب الإسلام
الأربع (٤) حيث أن حلبات السباق عند الطولونيين — لأسسها في
أيام خمارويه — كانت بمثابة الأعياد لما يصحبها من إقامة معالم
الزينة ، وركوب الفلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة
والأسلحة التامة .

كذلك كان الأمراء الطولونيون يقبلون على ممارسة لعب الكرة وشغفوا بها كثيرا .

أما في عصر الاخشيديين ، فكان محمد بن طفج الاخشيد نفسه مولعا بسماع المغنين والمغنيات ، كما أن وجوه القوم في مصر كانوا يقبلون في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات . وعلى أية حال فإن وسائل الترفيه الموجودة بمصر ابان عصور الاستقلال وما قبلها قد استمرت بصورة أو بأخرى حتى جاء الفاطميون الى مصر وهم الذين تفتنوا في اصفاء مظاهر الأبهة والفخامة على دولتهم ، فقد غلب الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمي بمصر على وسائل الترفيه الأخرى .

فأقبل كثير من رجال الدولة وأعيانها في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات وكان معظم المغنيات من الجوارى ، فيحكى أنه اشترت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر فغنت له ولجسائه ، وقد عرف هذا الأمير بميله الى الطرب والمجون ، وكان أثناء اقامته بمصر يخرج الى متنزهاتها ويشارك المصريين لهوهم . كما كانت مجالس الطرب والغناء واللغو ، تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة ، ويبدو أن هذه المجالس كان يشوبها بعض الانحلال الاجتماعي مما جعل الخليفة الحاكم بأمر الله يصدر قوانين يمنع بعضها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهي التي اعتبرت خطرا على الأخلاق العامة .

على أن مجالس الطرب والغناء ما لبثت أن عادت الى الظهور بعد وفاة الحاكم .

وقد عرفت القصور الفاطمية أنواعا متعددة من الملاهي والألعاب

المسلية والهزليات حتى أن المقریزی يروی لنا أنه كان يوجد بالقصر الفاطمی « مجلس اللعبة » ویبدو أن هذا المجلس كان مسرّحاً لالعب خيال الظل وغيره من أنواع الننون والملاهی التي كانت تعرض فی القصر آنذاك ، بل بلغ شغف بعض الخلفاء الفاطمیین بالصید الى حد أن بعضهم لقب بالخليفة الصیاد خاصة أن الفاطمیین قد وجدوا فی الصید متنفساً لهم بديلاً عن ممارستهم الحروب بأنفسهم فی الغالب فكان الصید بمثابة حرب بين الصائد وفريسته تظهر فيها فنون القتال وتجعل الصائد مستعداً لمواجهة الأخطار وعدم الاستسلام للأمان والدعة .

أما عن الدولة الأيوبية فان وسائل الترفيه التي كانت تمارس فيها قد كانت امتداداً لتلك التي كانت قائمة أثناء الدولة الفاطمية وان لم تكن بنفس الدرجة والمستوى أيام الفاطمیین وقد يكون ذلك مرجعه الى تلك الأعباء التي القيت على كاهل الأيوبيين نتيجة لحروبهم الكثيرة خاصة مع الصليبيين فقد شغف ملوك بني أيوب بلعب الكرة مثل نور الدين زنكي الذي اعتبرها نوعاً من رياضة النفس والبدن ، وقد بلغ شغفه بها حداً كبيراً حتى لعبها بالليل مثل النهار .

كذلك كان السلطان الصالح نجم من أكثر الأمراء شغفاً بهذه اللعبة فقد شيد برسما ميداناً بأراضي اللوق من بر الخليج الغربي وجعل فيه مناظر جلييلة تشرف على النيل ، وصار يلعب فيه بالكرة .

كذا اشتهر بنو أيوب بولعهم الشديد بالصيد حيث أعدوا له الأحواش في مختلف أقاليم الديار المصرية .

والجدير بالذكر أنه على امتداد العصور الإسلامية فان الدول الإسلامية قد مارست الوانا مختلفة من وسائل الترفيه ولم يقتصر

فلت على مجرد التنسلي والتزويج بل انطلقت نحو
الوان اخرى مما يمكن ان نطلق عليه الترفيه الجاد
في قصور الخلفاء والوزراء والاعيان المجالس
يختص العلماء والادباء للمناظرة والمناقشة وتنافس
هذا الى جانب مجالس العلم التي كان يتردد على
يتسامرون وينهلون منها العلم والادب .

تلك لمحة سريعة عن بعض وسائل الترفية - التي
قبل عصر المماليك والتي توضح لنا ان وسائل الترف
المملوكي انما كانت في معظمها امتدادا لوسائل و
على مر العصور الاسلامية السابقة .

وان كان البحث قد اغفل تناول بعض هذه الورد
المماليك ، فان ذلك مبعثه الالتزام بالمنهج وعدم الالبا
التي يتناولها البحث بالدراسة وهي عصر سلاطين
يزد الاستزادة حول ذلك الموضوع ابان العصور
المماليك فانه يجد المجال متسعا في المؤلفات التاريخية
تناولته باسهاب وتوضيح لم يتيسر لنا كثيرا عند
البحث ابان العصر المملوكي .

هوامش التمهيد

(١) قالت عائشة « سابقنى رسول الله مسبقته ، فلبثت حتى اذا ارهفنى اللحم (أى سميت) سابقنى مسبقنى ، فقال : « هذه بتك » يشير الى المرة الأولى » رواه أحمد وأبو داود .

(٢) رواه البخارى .

(٣) يقصد بها النرد والشطرنج ويطلق عليها أيضا الالعاب المنزلية .

(٤) أشار القضاى الى أن عجائب الاسلام الأربعة هى : مرض الخيل عند الطولونيين ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعه ببغداد .

(انظر : المقرئى ، خطط ج ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩) .

* * *

المجالس

الفصل الأول : مجالس العلم والوعظ والقصص

الفصل الثاني : مجالس الأدب والشعر

الفصل الثالث : مجالس الشراب والطرب

الفصل الأول

مجالس العلم والوعظ والقصر

مجالس العلم :

يعد سقوط بغداد فى ايدى التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م مصرعا لكل عزيز ونفيس من تراث المسلمين وآثارهم فى العراق التى كانت مفخرة للشعوب الاسلامية جميعا . فقد اباد التتار تراثهم العلمى فخرّبوا المكتبات وغيرها ، فالأرواح مسفوكة والحرمان مهجرة والأفواه مكممة ، والألسنة خرساء . .

نزع العلماء الى مصر والشام ، ولما غزا المغول الشام هاجر علماءها الى القاهرة التى كانت تضم المدارس والمعاهد ومجالس العلم والمكتبات ولمس العلماء من عطف المماليك ورعايتهم ما حيب اليهم البقاء ، فأخذوا يكتبون ويؤلفون وينثرون وينظمون ، كما هاجر الى القاهرة أيضا فى غضون تلك الفترة عدد غير قليل من علماء الأندلس وأدبائها فاربين منها هربا من خطر النصارى . الأمر الذى ساعد على قيام نهضة دينية وعلمية وأدبية .

وقد حظيت تلك النهضة بتشجيع السلاطين والأمراء ، وحسبنا أن نشير فى ذلك الى تلك المجالس التى حرص عليها سلاطين المماليك ، والتى كانت تضم نخبة من العلماء والأدباء والجلساء ، على أن تسير بخطى واسعة فى سبيل استكمال حاجات المجتمع الروحية والنقافية بل قدموا المال والجاه دفعا للعلماء الى التأليف فى مختلف العلوم ، كما أسندوا اليهم المناصب وأحاطوا ديوان الانشاء بالرعاية والاهتمام ، بما أنشأوا من المدارس والمساجد

وحلقات العلم التي أمها المتعلمون من كل مكان ، وأصبحت مدن القاهرة والاسكندرية وقوص والفيوم ، ثم دمشق وحماة وحمص تجتلب مكانة بغداد وقرطبة وأصفهان وبخارى وغيرها .

وارتبطت مجالس العلم بمجالس الثقافة التي تضمنت مجالس الأدب والشعر ومجالس الوعظ والقصص وكذا مجالس الشراب والطرب ، التي أقبل عليها السلاطين للترويح عن النفس من مشاغل الدولة ، وخصصوا لها المجالس للاطلاع على آداب العرب وأخبارهم ، وضموا إليها فحول شعراء العصر .

فقد ازدهرت مصر في أثناء حكم المماليك بطائفة من العلماء ما بين المفسر والمحدث والفقهاء والأصولي والمتكلم والنحوي وغيرهم ، ويجمع الكل أنه يحق عليهم — كما يقول صاحب معيد النعم ومبيد النقم — « ارشاد المسلمين وافتاء المستغنيين ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين » ، والا بقصدوا بالعلم الرياء والمباهاة والسمعة والا يكون العلم سبيلا الى الدنيا ، فان الدنيا أقل من ذلك .

وكان العلماء يوصفون بعلو الهمة ، وسمو القدر ، وعزة النفس ، يترفعون عن الملوك ويرقون بأنفسهم عنهم . فلا فرو في ذلك فقد سئل بعضهم عن مسألة في القرآن ، في اعرابها ومعناها ، فأجاب بوجه ، ثم أجاب بوجه آخر ، حتى ذكر عشرة أوجه ومنهم من كان لا يهاب ملكا ولا أميرا شديد البأس مهابا ، لا يزال يأمر عظماء الدولة بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويصدع بالذكور عليهم « بغير احتشام لهم ولا مراعاة » .

حتى ان أحدهم وهو محمد القونوي قد كتب الى السلطان برقوق يقول له « ... أما بعد فان برقوق اسم هجين لا يليق

بالملك وقد استخرت الله تعالى وسميتك أحمد ولقبك نظام الملك
فأشع ذلك في عملك . . « . وكان برقوق قد اجتمع به بدمشق
في بدء أمره وله فيه اعتقاد .

على أنه من ناحية أخرى أثر عن بعض سلاطين المماليك
تضييق الخناق على حرية الأفكار ، مما جعل تلك النهضة
المصطنعة تنكمش داخل حدود مصر والشام ، ولا تخرج عن نطاق
الموضوعات الدينية والأدبية إلا فيما ندر ، فضلا عن أنها كانت
ضعيفة الأثر في آداب اللغة .

ويمكن الرد على ذلك بأن تلك النهضة العلمية ابان عصر
سلاطين المماليك ، إنما كانت نهضة أصيلة ، اعتمدت على أساطين
العلم في مختلف فروعها حتى كان من أبناء السلاطين الذين اشتهروا
في العلوم الدينية محمد بن جقمق الذي حفظ القرآن الكريم واشتغل
بالفقه والفرائض والحديث والمنطق والعربية ، فلما تسلطن أبوه
زاد طلبه للعلم ، فقرأ على ابن حجر العسقلاني ، وحضر على
سعد الدين بن الدبري قبل أن يلي القضاء في الفقه والتفسير ،
وقد اثنى عليه ابن حجر بالفهم والحفظ ، وكما كان محبا في العلم
والعلماء .

كذلك جنح بعض المماليك أنفسهم إلى الدراسة الفقهية
وغيرها من الدراسات المدنية ، وصار منهم الفقيه والأديب
والشاعر والحاسب .

ويذكر ابن خلدون أن « أهل هذه الدولة التركية بمصر
والشام معنيون — على القدم منذ عهد مواليتهم بلوك بنى أيوب —
بانشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لاقامة رسوم الفقراء في
التخلق بآداب الصوفية السنية . . فكثرت لذلك المدارس والخوانق

بمدينة القاهرة . . . وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية
وأثارها الجميلة الخالدة .

وقد كان العلماء يتداوسون العلوم فيما عرف بمجالس العام
التي حرص الناس على حضورها ، كما كان سلاطين المماليك
يحضرون هذه المجالس ، بل يشاركون فيها مشاركة ايجابية ،
فقد وجد منهم — كالسلطان الفورى — من حرص على عقد
المجالس العلمية والدينية فى القلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل
أسبوع وكانت تبحث فى تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل
العلمية والدينية التي تنافس فيها الحاضرون من كبار العلماء
والفقهاء ، كما اشتغل بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى متسمر
بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم
لاقراء الطلبة والتدريس لهم .

كما لم يكن حضور هذه المجالس العلمية مقصورا على الرجال
فحسب ، بل كان يقبل عليها أيضا عامة النساء بالقاهرة ، فقد
حرصن على حضور مجالس العلم والدين حيث يجلسن فى مكان
منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية .

وجدير بالذكر أن بعض السلاطين كانوا يحرصون على
حضور هذه المجالس العلمية بغرض التفقد والوقوف على ما جرى
فيها ، فقد نزل السلطان المؤيد شيخ الى جامعه بجوار باب زويلة
وحضر دروس المشايخ كلهم ، فكان يجلس فى كل حلقة قليلا
والمدرس يلقى دروسه ، ثم يقوم الى الحلقة الأخرى ، حتى طاف
الحلق السبع وعاد الى القلعة .

ولم يقتصر الأمر على ولع الكثير من سلاطين المماليك
بمجالس العلم والأدب بل كان بعضهم كالسلطان الظاهر تهربغا
— مثلا — عالما بأصول اللغات والتاريخ والتصوف .

كما كان بعض السلاطين متمسكين بأحكام الدين ويؤدون الفرائض كاملة ويحجون الى بيت الله الحرام ، فبرغم أن الممالك لم يكونوا أهل حضارة فى البيئات التى جاءوا منها فانهم كانت لهم عناية كبيرة بوجوه الحضارة وينشر العلم ، فقد أنشأوا — كما سبقت الاشارة — عددا كبيرا من المدارس فى جميع أنحاء البلاد فى المدن والقرى ، وفتحت هذه المدارس أمام الراغبين فى الاستفادة ، يأتون اليها ليستمعوا الى ما يلقى فى حلقاتها على نمبر نظام مألوف ، حيث كان فى هذه المدارس — وفى الجوامع أيضا — أساتذة يلقون دروسا فى موضوعات معينة ، وكان على الراغب فى المعرفة أن يجلس فى الحلقة التى يروق له موضوعها بلا شروط ولا قيود ولا تسجيل ولا امتحانات .

وقد أخذ البعض على تلك السياسة التعليمية — ان جاز هذا التعبير — انها تضيع جانبا كبيرا من جهود الدولة والأساتذة ، ومن جهود الناس أيضا كما أنها لا تبرز الا أفرادا قليلين من كبار العلماء ، وتدفع السواد الأعظم من الناس فى غمرة من الجهل .

ولكن المدقق يستطيع بشيء من تصور ظروف ذلك العصر وملابساته ، أن يدرك أن ذلك كان فى حد ذاته يعد نهضة علمية لا غبار عليها ع فتلك كانت مدارس مفتوحة يجلس راغب العلم أينما يروق له نلا قيود ولا شروط ولا رسوم — كما سبقت الاشارة الى ذلك — مما بسر العلم وسهله ، حتى استطاعت تلك المدارس ان تجلو شخصيات أولئك الذين أوتوا نصيبا من العقل والجد والمثابرة .

بل لقد أفرزت لنا تلك المدارس خيرة العلماء وأفذاذهم الذين كان منهم من يتكلم على الحديث الواحد من بكرة الى قريب الظهر ، وربما أذن الظهر ولم يفرغ من الحديث الواحد واعترفت له علماء جميع الاقطار بالحفظ وكثرة الاستحضار .

ولعل مما أدى الى انتعاش الحياة العلمية والثقافية فى تلك
الأونة هو انتقال العلم من العراق الى مصر وكثرة العلماء فى كل
من الأدباء والشعراء خاصة فى مصر والشام بعد سقوط بغداد
سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، علاوة على تشجيع السلاطين للعلم
والعلماء وحسن رعايتهم للمتعلمين .

فقد كان السلطان برقوق « يجلب أهل الخير ومن ينسب الى
الصلاح ويقوم للفقهاء والصلحاء اذا دخل أحد منهم عليه ، ولم
يكن يعهد ذلك من ماوك مصر قبله » ومع تنكره للفقهاء فى سلطنته
الثانية بسبب أنهم اغتوا بقتله فانه « لم يترك اكرامهم قط مع
شدة حنقه عليهم » وكان يفرق كل سنة فى أهل العلم والصلاح
مائتى ألف درهم .

ورغم أن مجالس العلم كانت بطبيعة الحال مجالس جادة ،
فانها كانت تجتذب أعدادا كبيرة من الناس ، بحكم أنها كانت
مجالس مفتوحة — كما سبقت الإشارة الى ذلك — وان الكثيرين
كانوا يجدون فيها وسيلة من وسائل الاستمتاع حيث كانت تتناول
موضوعات شتى من واقع حياة الناس ومشكلاتهم ، او كانت على
الأقل تبعدهم عن واقعهم الأليم أحيانا حيث المجاعات والأوبئة .

فقد عرف عن معظم العلماء روحهم المرحة وخفة الظل وسرعة
البديهة ، كما كان بعضهم يميل الى الخلوة مع عظمتهم عند السلطان
والأمراء ، فقد قال الشهاب المنصورى وقد دخل على أحدهم فى
خلوته وهو محبى الدين الكافيجى (١) وأضافه بحلاوة قرع فقال
فى الحال ارتجالا دعابة لطيفة صاغها شعرا (٢) .

وكانت هذه المجالس تجذب الناس لما يدور فيها من مجادلات
ومناظرات علمية وأدبية تهفو اليها نفوس العامة والخاصة ، فيذكر

صاحب الطالع السعيد فى ترجمة هبة الله بن عبد الله بهاء الدين القنطلى توفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م « مجلسا للعلم والمناظرة ، حضره الوالى والقاضى والفقهاء ، كما حضره كثير من العوام الذين كانوا يتابعون ما يجرى فى المجلس ، ولما تمت المناظرة رُفع العوام المناظر وعظموه (٣) .

وهذا يدل على مشاركة العوام فى هذه المجالس وحرصهم على ذلك ، بل تحمسهم للمتناظرين واستحسانهم لما يدور فى هذه المناظرات ، وتعظيم المتفوقين فيها وبطبيعة الحال لا نشك فى أن حضور هذه المجالس لم يكن سببته التثقيف أو التعلم بقدر ما كان بغرض تمضية وقت يستمتعون فيه بأحداث تلك المناظرات العلمية والجدلية التى كانت فى الغالب تتميز بمحاولة كل من المتناظرين اظهار عجز وادعاء الطرف الآخر ، وهذا مما يرضى العامة ويشبع رغبتهم فى حب الاستطلاع والترقب .

وقيل انه فى عهد السلطان الأشرف قايتباى ، فى المحرم من سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالعلم الجديد ، وصعد كذلك الشيخ جلال الدين السيوطى فلما جلس سأل السلطان عن أى سنة سنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يفعلها ، فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك بشيء مع غزارة علمه وقوة اطلاعه ، وكان السلطان يقتنى كتابا يسمى « حيرة الفقهاء » ثم أجاب الشيخ جلال بعد ذلك بجواب حسن كاف فى تلك المسألة ، بأن السلطان قصد بذلك الأذان ، فانه سنة ولم يفعله والأصح انه اذن فى وقت ، وأورد فى ذلك الحديث ، وعمل فى هذه المسألة كراسة مطولة وذكر فيها أشياء كثيرة مما سنه النبى (صلى الله عليه وسلم) ولم يفعله .

وهذه الواقعة توضح أن ما كان يدور فى هذه المجالس فى الغالب انها كان بهدف المحاوره التى تأخذ أسلوب الألفاظ وهى

ورغم ذلك فإنه يبدو أن العلماء كذلك لم يسلموا من قبائح
الأمراء ، حتى ان قاضى القضاة ناصر الدين أبى نصر عبدالوهاب
السبكي ذكر أن كثيرا من الأمراء لا يوقرون أهل العلم ولا يعرفون
لهم حقوقهم وينكرون عليهم أبسط الأشياء فقال : « . . . فما يتعين
على الأمير اذا أنهى إليه عن أحد من أهل العلم سوء ألا يصدقته
ويحسن الظن بهذه الطائفة فان لحومها مسمومة وما رأيت أميرا
يفض من جانب الفقهاء الا كانت عاقبته سوءا . . . »

وذكر من قبائحهم « استكثرهم الأرزاق وان قلت على العلماء
واستقلالهم الأرزاق وان كثرت على أنفسهم ، ويقول رأيت كثيرا
منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل ولبس الثياب
الفاخرة . . . »

على أنه كان من الأمراء أنفسهم من كان بحفظ القرآن ويتلوه
بصوت حسن بل أنشأ بعضهم مكتبا لتحفيظ القرآن .

وكان من الأمراء من جمع بين فضيلتى السيف والقلم مثل
موسى بن محمد بن شهري شرف الدين ، أحد الأمراء بحلب سبط
الملك المؤيد صاحب حماة وقد برع حتى اذن له البارينى بالامتناء . .
وكان يحب العلماء ويكرمهم ويجالسهم ويبحث معهم ، ت سنة
٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م .

وقد كان من المماليك من يترددون على مجالس العلم كثيرا الى
جانب ممارستهم أعمالا أخرى يتعيشون منها ، ولدينا من هؤلاء فتح
الله بن معتصم بن نفيس الداودى التبريزى الحنفى الطبيب الذى
صار من أخص المماليك عند السلطان برقوق وكان « يدرى كثيرا
من الألسن ومن الأخبار فراج عند برقوق وباشر رياسة الطب .
وكان السلطان برقوق — كما سبقت الاشارة — معظما للعلماء
يقوم اليهم ويتلقاهم اذا حضروا عنده .

ويذكر أيضا أن السلطان المؤيد شيخ الحمودى كان كثير الاختلاط بالعلماء والفقهاء ، وكان يخصص يومى الأحد والأربعاء ليجتمع عنده جماعة من العلماء وطائفة من الصلحاء « يقعدون عنده - وهو فيما بينهم كأحدهم - من قبل العصر بساعة الى قرب المغرب فى القصر ، يباحثون بالعلوم الشريفة ويتذاكرون فى المسائل العويصة ، وهو يسمعهم وربما يشاركهم بلطف وأدب » .
تم كانوا اذا فرغوا يأمر بأن يسقوا من السكر المكرر المعد لنفسه فى سلطانيات كبار ، فى كل سلطانية قطعة كبيرة من الثلج فى أيام الصيف والهواجر . وقيل ان هذا شىء لم يفعله أحد من الملوك من قبله .

وكان من عادة بعض العلماء عند استفتاح الدرس بعد البطالة أن يعدوا طعاما حسنا « وشسيئا حلوا » للطلبة ، واذا ختموه للبطالة صنعوا مثل ذلك أيضا ، مثما كان يفعل يحيى بن عبد الرحيم القوصى الذى ينعت بمحيى الدين الذى آلت اليه رئاسة التدريس والفتوى بالأعمال القوصية ت ٧١٨ هـ / ٣١٨ م .

وتشير المصادر الى أن بعض العلماء فى ذلك العصر لم يكونوا راغبين فى المشاركة فى مثل تلك المجالس ، بل يفضلون العزلة ويجدون فى التزام الخاوة متعة ترضى نفوسهم وتسرهم وتغنيهم عن الاختلاط بالناس لغير ضرورته وكان من هؤلاء ابن القسطلانى الامام قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن على المصرى المتوفى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م (٦) .

ومن أشهر مجالس العلم التى عقدت فى عهد السلطان المؤيد كان سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م . وهو الذى عقد لشمس الدين بن عطاء الله الرازى المعروف بالهروى الذى أشيع عنه أنه يحفظ اثنى

عشر ألف حديث ، وأنه يحفظ « صحيح مسلم » بأسانيده ويحفظ « البخارى » فاستعظم الناس ذلك .

وسئل الهروى عن بعض المسائل الدينية التى أجاب عنها ولكن الحاضرين استشعروا كذبه (٧) . وكان القصد من ذلك هو — كما نرى — اظهار عجز الهروى ، ومع أن هذا المجلس كان مكتظا بالحاضرين واستغرق وقتا طويلا فاننا نلاحظ انه لم يتناول مسائل ذات بال من الناحية العلمية بقدر ما كان محوره الأساسى المجادلة ومحاولة اظهار عجز بعض الحاضرين وهذا ينقل المجلس من كونه مجلس علم الى مجلس افتخار وزهو وتحد من جانب الحاضرين بعضهم لبعض ، ولعل هذا مما يبرر اعتبار تلك المجالس — حتى ان كانت علمية — تدخل فى اطار وسائل الترفيه زمن سلاطين المماليك ، ذلك أن غاية الحضور هو تمضية وقت يستمتعون فيه ويرنهنون عن أنفسهم .

ورغم تعدد مجالس العلم والاهتمام بها على مدى عصر المماليك وعناية السلاطين والأمراء حتى العامة بهذه المجالس ، فان البحث لا يتناول موضوعات هذه المجالس ولا ينقدها بقدر ما يعرض لها من حيث كونها احدى الوسائل المهمة التى كانت بعض الفئات تقضى بها وقتها ، فقد كانت غاية معظم من يحضرون تلك المجالس هو كما ذكرنا من قبل الاستمتاع بما يدور فيها من مناظرات ونوادير العلوم وان كانت لا تخلو من فائدة ، فهى على الأقل قد حثت الناس على التفكير وتحصيل النقامة حسب ظروفنا العصر .

وحسبنا أن نشير الى كتاب « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية » الذى ألفه واحد ممن شسهدوا مجالس

غورى فى مصر وهو حسين بن محمد الحسينى ، وعمو
والى مصر وجمع فى كتابه هذا بعض المباحث التى كان
العلماء يتكلمون فيها(٨) . ويقول المؤلف « لم تكن المعارف
هرة فى مصر فى عصر الغورى » مستدلا على ذلك بالنظر
، و!مجادلات التى كانت تدور فى مجالس هذا السلطان ،
ب عن ضيق الأفكار وقلّة المعارف والولع بسفاسف الأمور
بن جلائها .

ب أيضا : « ينبغى ألا نعد هذه المجالس مصورة معارف
فى ذلك العهد ، فان كبار العلماء كانوا يتورعون عن
س . . . » وكذا أيضا فان القضاة الأربعة الذين يذكرون
نسئون ذلك العصر ، ولهم بالدولة والسلطان المملوكى
ة ، قل أن يذكر أحدهم نى مجالس السلطان الغورى .

ع المصادر على أن السلطان الغورى كان ذا حظ من
بنية كالتوحيد والفقه والتفسير ، ويشترك فى علوم
حو والبلاغة وغيرها كما كان مولعا بقراءة كتب التاريخ
قصص .

حوى كتاب « نفائس المجالس السلطانية » ، وكذا كتاب
الدرى «(٩) مسائل وافية تصور مجالس الغورى وتبين
، العلماء والكبراء الذين كانوا يفتشون مجالسه .

طبيعة هذه المجالس فقد كان السلطان يتصدر قاعة
، الأشرافية بالقلعة ، وهو يجلس على مرتفع مغطى
حريرى وأرض مغطاة بالسجاد الثمين ، فقد كانت تلك
عقدت فيها هذه المجالس تنبىء بوقوع أحداث جسام
تصدى للدولة العثمانية الوليدة التى دأبت على التحرش
، فكانت تلك المجالس تخفيف الواقع الصلب .

وقد تعددت تلك المجالس ، وتنوعت المسائل التى تناقش فيها ، رغم أن مقصود بعض الحاضرين كما جاء على لسان السلطان الفورى فى أحد المجالس ، لم يكن الا المكابرة ، لا اظهار الصواب والمناظرة أو قصده الغلب المطلق ، وان كان على عبر الحق ، كما اتهم بعضهم بانشاء أسرار المجالس العلية عند الناس والافتخار بها بين العوام والخواص ، وهذا مما كان يفضىب السلطان .

فغالبها أحيانا بعيد عن العلم قريب من الألفساز والنوادر خاصة أن تلك المجالس كانت تعتد ليلا فهى أشبه بالسهرات وأحاديث السمر .

بالاضافة الى انه كان يقام للكتب سوق تعرض فيها نفائس الكتب ، وكان الناس يقبلون على شرائها ، بل كان منهم من يحب ملازمة تلك السوق . فكان للكتب تجارة رائجة تدر على محترفيها أموالا طائلة ، مثلما كان ابن شاکر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م (١٠) .

وكذا كان على بن أحمد بن يوسف بن الخضر الأمدى الحنبلى الذى كان يتجر فى الكتب ، ولم يكن يخفى عليه منها شىء حتى انه اذا طلب منه أن يجد الأول مثلا من أحد الكتب قام وأخرجه ، بل كان يلمس الكتاب فيذكر ما يشتمل عليه ولا يخطئ فان كان الكتاب مثلا بخطبن ذكر ذلك .

وكذلك على بن اسماعيل بن يوسف القونوى علاء الدين (ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م) الذى كان السلطان الناصر يعظمه ويثنى عليه ، وهو الذى تولى قضاء دمشق فتوجه اليها فى سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م وأحضر صـحـتـه من الكتب « ما حمل على نحو العشرين فرسا » .

وبرغم ذلك فان البعض كان ينظر الى بعض تلك الكتب على انها ليست ذات نفع للناس ، بل اعتبرها مضلة لهم ومضسـيعة لأموالهم ، مثلما فعل الشيخ تقي الدين بن تيمية الذى ذكر المؤرخون انه اشترى الكيمياء ممن يحوزونها وغسلها فى الحال وقال : « هذه الكتب كان الناس يضلون بها وتضيع أموالهم فافتديتهم بما بذلته فى ثمنها .

ومما لاشك فيه أن الكتب وما حوته من مادة كانت احدى وسائل قضاء الوقت كوسيلة من وسائل الترفيه النافعة التى ساهمت فى نشر العلم والثقافة والأدب فى عصر سلاطين المماليك، حتى ان كان هناك من حرص على اقتنائها استكمالا للمظهر والابهة والتعلق بأهداب العلم ، فمن المسلم به أن قيمة تلك المؤلفات تكمن أخيرا فى مدى الاستفادة منها ومدارسة محتوياتها وهذا ما لا يمكن الجزم بحدوثه ولو لدى القلة ممن اقتنوا هذه الكتب ، خاصة أن البعض كان يقتنى الكتب النفيسة كما يقتنى الجوارى الحسان والآنية الثمينة .

مجالس الوعظ :

وهناك أيضا مجالس خصصت للوعظ والارشاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أقبل الناس عليها فى أوقات فراغهم ، وقام بالوعظ فيها وعاظ فضلاء ، حرصوا على عقد هذه المجالس خاصة فى شهور رجب وشعبان ورمضان فى كل يوم سبت .

وقد ألف بعضهم كتباً فى الوعظ منها ما عرف بكتاب الحريفيش وهو من تصنيف عالم صوفى وواعظ مشهور هو الشيخ الصالح عبد الله بن سعد بن عبد الكافى المصـرى المعروف بالحرفوش المتوفى سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م . وكذا كتاب ابن الرسام (ت

٨٤٤ هـ / ١٤٤١ م (١١) ، اندي كان يعمل المواعيد (١٢) وهو مؤلف في الوعظ على نمط كتاب شيخه ابن رجب المعروف بلطائف المعارف بالاضافة الى عدة تصانيف اخرى منها « سئينة الأبرار الحاملة للآثار والأخبار » وهو عبارة عن ثلاثة مجلدات في الوعظ وهي من تأليف شمس الدين محمد بن أحمد ابن سعيد المقدسى الحنبلى قاضى مكة المشرفة المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م .

كذلك ما كتبه العيني المؤرخ في المواعظ والرقائق وهو في ثمانية مجلدات . والرقائق لفظ اصطلاحى يطلق في كتب الحديث الكبرى على باب خاص من أبواب الحديث النبوى ، وسميت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه ما يجعل القلب رقبقا رحيمًا ، فيقال باب الرقائق ، وباب الرقائق والتسمية الثانية أكثر شيوعًا .

كما صنف الواعظ زين الدين بركات أحمد بن محمد بن يوسف الشهيد المتوفى سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م عدة كتب منها كتاب « حياة القلوب ونيل المطالب » في الوعظ وأيضًا « الكواكب الزاهرات في معرفة من اختلط من الرواة النقسات » ومنها كذلك « أسنى المقاصد في معرفة حقوق الولد على الوالد » و « الجواهر الزواهي في ذم الملاعب والملاهي » و « الأنجم الزواهر في تحريم القراءة بلحون أهل الفسق والكبائر » .

والحقيقة أننا لم نعثر على أى من هذه التصانيف ، التى كان يمكن أن تكون منها فياذا للموضوع .

وكانت مجالس الوعظ أشبه بمدارس شعبية ، تحملت عبء تثقيف العامة وقامت المساجد بهذه المهمة ، الى جانب المدارس المتعددة التى أكثر المماليك من انشائها ، كما سبقت الاشارة .

وكانت هذه المجالس تعج بالناس على اختلاف مستوياتهم دون قيد أو شرط حتى بلغ الحاضرون في بعض هذه المجالس الألوف من الناس . كما تميزت تلك المجالس بمعالجة المسائل الدينية والدنيوية ، لذا فقد كان أثرها واضحا في حفظ بعض معالم التراث الاسلامي ، ولاسيما ما يتعلق منه بالقيم والمثل الاسلامية العليا .

وكان عمل الواعظ يقتصر في الغالب على التذكير بالله وحث المواعظ المحركة الى الله تعالى ، وتخويف الناس من عذابه ويحضهم على التمسك بأهداب الدين ، وكان الناس اذا ما أعجبوا بأحد الوعاظ تعصبوا له وأقبلوا على مجالسه لاعتقادهم فيه اعتقادا زائدا ، بل كثيرا ما كانوا يقفون الى جانبه ضد بقية الوعاظ الذين يخالفونه الرأي في وعظه أو تنسييره ، حتى لو اقتضى الأمر استخدامهم القوة ، بل كان أحيانا يقع شجار بين العلماء أنفسهم بسبب خلافهم في الرأي .

وكان الوعاظ من القضاة والعلماء الذين يتولون الخطابة في مساجد مصر والشام ، خاصة علماء الجامع الأزهر منذ بناء جوهر الصقلي سنة ٣٦٠ هـ . ٩٨٠ م ، وقد حمل هؤلاء العلماء على اكتافهم مهمة الوعظ والارشاد ، وتوافد الناس عليهم من كل فج ، كما كان السلاطين والأهراء المماليك كثيرا ما يحضرون هذه المجالس خاصة تلك التي كانوا يدعونهم لعقدتها ، وسنذكر طرفا منها فيما بعد .

وقد كانت مجالس الوعظ تشد الناس اليها وتستولي على ألبابهم ، حتى أنهم كانوا يتركون أعمالهم ويتفرغون لها ، فتذكر المصادر أن أبا المظفر الحنفي البغدادي الدمشقي سبط ابن الجوزية .

المتوفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م « كان حسن الوعظ » وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التي تقوم عندها الوعاظ اليوم — زمن المؤلف — عند باب مشهد على بن الحسين زين العابدين ، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركون البساتين في الصيف حتى يسمعوا ميعاده ، ثم يسرعون الى بساتينهم فيتذكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن ، على طريقة جده ، وكان الشيخ تاج الدين الكندي وغيره من المشايخ ، يحضرون عنده تحت قبة يزيد ، التي عند باب المشهد ويستحسنون ما يقول . . وكان مجلس وعظه مطربا وصوته فيما يورده حسنا طيبا .

وكان الوعاظ لكونهم علماء ورجال دين يتمتعون بحب الناس كافة حتى كان منهم « الرائج عند العامة » ، وكثير منهم اشتهر بصدق اللهجة وجودة الرأي وحسن التذكير والأمر بالمعروف مع الصرامة والصدع بالوعظ في خطبه وقصصه وصارت له « وجاهته عند الخاصة والعامة » ، وبطبيعة الحال فانهم كانوا سعداء بذلك ، حريصين على ارضاء العامة فيظهرون لهم التواضع ولين الجانب في حين كان معظمهم يخاشن الملوك والسلاطين ، ويفلظ عليهم في القول . ومع ذلك كانوا يعظون في خشوع وتواضع حتى كان منهم من « يغيب في وعظه لفرط خشوعه » .

وتذكر بعض المصادر ما يشترط في الواعظ فأوردت أن للواعظ شروطا منها : « أن يكون عالما بالكتاب والسنة ، وأن يكون مستقيم اللسان حسن البيان ، ومن شرطه أن يكون صاحب اشارة ورموز فقد قيل : رب اشارة ابلغ من عبارة ، ورب لحظ ابلغ من لفظ ، وقال مالك بن دينار : الواعظ الذي اذا دخلت بيته تعظك آلة بيته ، فترى اناء الوضوء وسجادة الصلاة .

وقيل أن الوعظ ثمانية مراتب الحسبة فأولها في النهي
ثانية بالوعظ والثالثة بالردع والزجر ، ولا ينفع وعظ من لا يتعظ ،
ليس بصالح في نفسه كيف يصلح غيره ، وجاء أن على
تسبب أن ينظر في أمر الوعاظ ، ولا يمكن أحدا ممن يتصدى
الفن إلا من اشتهر بين الناس بالدين والخبر والفضيلة (١٣) .

ومن عرف شيئا يسيرا من كلام الوعاظ وحفظ من الأحاديث،
بار الصالحين قبل ذلك وقصد الكلام يسترزق به ويستعين
قوته فيباح له بشرط ألا يصعد المنبر ، بل يقف على قدميه ،
رتبة صعود المنبر رتبة شريفة لا يليق أن يصعد عليه إلا من
هر بما وصفناه ، وكفى به علوا وسموا أن النبي (صلى الله
وسلم) صعد عليه والخلفاء الراشدين من بعده والأئمة (١٤) .

وهناك نقد اجالس الوعظ في عصر سلاطين المماليك
أن صار الواعظ لا يطلب إلا لتمام شهر بيت أو لعقد نكاح ،
اجتماع هذيان ، ولا يجتمع الناس عنده لسماع موعظة ولا
ة ، وإنما صار ذلك من نوع الفرح واللعب والاجتماع ، وبجري
المجلس أمور لا تليق من اجتماع الرجال والنساء ، ورؤية
هم لبعض وأشياء لا يليق ذكرها ، واعتبر هذا من البدع
ة وكان الأولى حسم ذلك والمنع وان تعذر فلا يمكن من ذلك
جل مشهور بالدين والخير والفضيلة ، ومن شرطه أن يكون
لله مجتهدا قوالا فعلا ، هذا وقد اعتبر الفقهاء والمتكلمون
اء والنحاة أهل الذكر والوعظ قصاصا .

وكان على الواعظ أن يرفع صوته في مجلسه بحيث يسمعه
ن نفسا وأن يذكر بأيام الله ويخوف الناس في الله وينبئهم
السلف الصالح وما كانوا عليه ، وأهم ما ينبغى له وللخطيب

أن يكون مثلا أعلى وقدوة حسنة قولاً وعملاً وأن يعلم أن الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب فكل خطيب وواعظ لا يكون عليه سمات الإصلاح قل أن ينتفع الناس بوعظه .

والابتداع في الوعظ من المسكروحات ، فإن الواعظ المبتدع يجب منعه فلا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد اظهار الرد عليه ، فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدعة ، كما أنه إذا كان الواعظ شاباً متزينا للنساء في ثيابه وهيئته ، كثير الأشعار والإشارات والحركات ، وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه ، فإن الفساد أكثر من الإصلاح ويبين ذلك بقرائن أحواله .

ولا ينبغي أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكون والوقار ، وزبه زى الصالحين . وإلا فلا يزداد الناس إلا تمادياً في الضلال ، كما يجب أن يضرب بين النساء والرجال حائل يمنع النظر اليهن فإن ذلك مظنة الفساد (١٥) .

ورغم هذا التشدد في حضور النساء مجالس وعظ الرجال ، فإن المرأة في العصر المملوكي تمكنت من المشاركة في الحياتين العلمية والدينية ، حتى أن التاريخ يسجل أسماء كثيرات اشتغلن بالنحو ونظمن الشعر وتخصصن في الفقه والحديث بل لقد قررت امرأة شيخة على زاوية السلطان قايتباي بالمرج ، بعد أن مات زوجها الشيخ قلعج الرومي الأدهمي سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م وان كان ذلك عد من النوادر .

ويبدو أن مجالس وعظ للنساء كانت تعقد خصيصاً لهن ، يقوم بالوعظ فيها واعظات كن على درجة كبيرة من العلم والافتداز ، منهن — على سبيل المثال — ست الخطباء بنت القاضي تقي الدين

على بن عبد الكافي السبكي ، المولودة بالقاهرة وحدثت بمصر
والشام وتوفيت فى جمادى الآخرة سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م ، وكذا
ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المنجا التنوخية الدمشقية أم
عبد الله وتدعى وزيرة بنت القاضى شمس الدين عمر بن شمس
الحنابلة وجيه الدين ، وقد سمعت من والدها وغيره ، وحدثت
أبضا بدمشق ومصر وماتت فى شعبان سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م .

ومنهن أيضا أسماء بنت الفخر ابراهيم بن عرصه التى كانت
تلقن النسوة القرآن الكريم وتعلمهن العلم ، وكانت تجهد نفسها
فيما يقربها الى الله ، توفيت سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م ، وكذا عائشة
بنت ابراهيم المتوفاة سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م وكانت تحفظ القرآن
وتلقنه النساء ، قال عنها ابن كثير - وكان زوج ابنتها - كانت
عديمة النظير لكثرة عبادتها وحسن تأديتها للقرآن ، تفضل فى
ذلك على كثير من الرجال وأقرأت عدة من النساء وختمن عليها
وانتفعن بها .

ويكفى دليلا على اقتدار كثير من سيدات العصر فى الوعظ
ما شهد به ابن تيمية حيث أثنى على فاطمة بنت عياش بن أبى
الفتح البغدادية أم زينب الواعظة ، فقد كانت تدرى الفقه جيدا
حتى تعجب ابن تيمية من حرصها وذكائها وقد انتفع بها نساء أهل
دمشق لصدقها فى وعظها وقناعتها ، وعندما تحوالت الى القاهرة
حصل بها النفع وارتفع قدرها وبعد صسيتها توفيت ليلة عرفة
سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م .

وكذا ظهرت أخريات فى مجال الوعظ كفاطمة بنت على بن
يحيى بن عمر بن حمود البعلبكية ، وقد سمعت من القطب الونينى ،
وحدثت وسمع منها رجال كثيرون ، ولم يأنف كثير من كبار فقهاء

القاهرة فى عصر المماليك من الاعتراف بأنهم سمعوا من بعض السيدات الشهيرات اللائى أجزن لهم .

كذلك برعت فاطمة بنت محمد بن محمد بن جبريل بن أبى الفوارس وتدعى ست العجم التى أرخ لوفاتها تاسع عشر رمضان سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م ولها ست وسبعون سنة . كما سلكت بعض النساء فى عصر سلاطين المماليك طريق التصوف وشاركن مشاركة فعالة فى حركة التصوف التى اشدت ساعدها فى ذلك العصر بالذات بل ان بعض النساء لبسن خرقة التصوف كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق عليهن اسم الشيوخات ، ولازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والأربطة التى خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن .

ووصف بعض المؤرخين هذه الزوايا الخاصة بالنساء ، بشدة الضبط والمواظبة على وظائف العبادات والحرص على مبادئ الأخلاق ، حتى ان خادمة الفقبرات كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابريق ببزبوز ، وتؤدب من خرج على الطريق بما تراه .

وكان الواعظ يعتبر نفسه مصلحا يتلمس نواحي الصعف فى الحكومة وفى طبقات الأمة لذلك العهد فيتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعوان الى الاعجاب ثم يصف وسائل الاصلاح ، وهى غالباً ما تدور حول قيام كل بواجبه فى دائرة عمله . وكان يحصل للناس فى مجالس الوعظ رقة وخشوع وبكاء حتى تاب على أيدي الوعاظ كثيرون .

وارتبطت بمجالس الوعظ قراءة القرآن الكريم ، حيث كان يجتمع الناس والعلماء ويقراون ختمة كامله ، ثم يدعون بدعاء طويل فى عشى كل سبت ليلة الأحد . وكان بعض السلاطين

يحرصون على الاجتماع لسماع القراءة والدعاء وزيارة المدارس
التي هي موطن العلوم الشرعية والعبادات والصلاة مع الناس
وقد فعل ذلك السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ،
وكثيرا ما حدثت مناظرات ومجادلات في تفسير بعض الآيات
الكريمة ، ومسائل فقهية متنوعة .

وظهر من المفسرين في هذا العصر الامام القرطبي المتوفى
سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م وهو صاحب كتاب التذكرة بأمور الآخرة ،
والتفسير الجامع لأحكام القرآن ، وكان اماما علما من الغواصين
على معانى الحديث .

كما ازدهر فن القراءات ، فكان هناك من يقرأ القرآن بأربع
عشرة رواية . وكثيرا ما كان القراء والوعاظ يدعون في مناسبات
متعددة لأحياء لياليها بدعوة من السلطان أو أحد الأمراء ، وكان
يلى القراءة والوعظ أن تصنع وليمة حافلة ، يحضرها القضاة
الأربعة والأمراء المقدمون وأرباب الوخائف من المباشرين ، ويحضر
قراء البلد قاطبة والوعاظ ، ويحضر السلطان المجلس والسماط .

وكان السلطان يستمتع بمشاهدة مجالس الذكر والرقص في
الخوانق التي هي أماكن العكوف للمتصوفين ، وكان من عادة رجال
الصوفية أن يحضروا عند السلطان في كل يوم ثلاثة أشهر لقراءة
البخاري . وكانت العادة أن يقرأ كتاب صحيح البخاري بالقصر
من قلعة الجبل ، بحضور قاضي القضاة الشافعي وشيخ الاسلام
في طائفة يسيرة من الفقهاء بلغ أحيانا الستين فقيها ، بصرف
لكل منهم ألف درهم فلوسا .

وفي رمضان كان ختم قراءة البخاري بجامع الأزهر ، حيث
تجرى قراءته من أول الشهر في الجامع الأزهر بحضور القضاة
الأربعة والعلماء ثم تفرق عليهم الخلع والصرر .

وفى عهد السلطان الفورى نى رمضان ، كان ختم قراءة صحیح البخارى يتم بالحوش السلطانى وقد نصبت هناك خيمة كبيرة ، وكانت العادة القديمة ان البخارى يقرأ بالقصر وتخته بالقصر الكبير ، ويكون له يوم مشهود وتفرق هناك الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم ، فبطل ذلك وصار البخارى يقرأ بجامع القلعة ويختم بالحوش ، « فتكون ساعة يسيرة ثم ينفض ذلك المجلس على أمر هين » .

ويقال انه كان يصنع فى كل ليلة رابع عشر الشهر ، ليلة حافلة بجامع السلطان قايتباى فى الروضة ، وكانوا يسمونها البدرية نسبة الى البدرى حسن بن الطولونى ، وينصب على شاطئ النبل أمام الجامع ما لا يحصى من الخيام ، وتجمع المراكب هناك بكثرة . ويجتمع الناس وتوقد بالجمع وقدة حافلة ، وبحضر هناك قراء البلد جميعا والوعاظ ، وتكون « ليلة حافلة ، لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، واستمر ذلك مدة حتى أبطل .

كما شارك السلاطين فى الاحتفال بالمولد النبوى فى كل سنة يجتمع القضاة والعلماء فى الحوش من القلعة تحت خيمة كبيرة تضرب هناك ويحضر السلطان والأمراء ، وعندما يفرغ من قراءة القرآن الكريم يقوم الوعاظ واحدا بعد واحد ، ثم يدفع اليهم بصرر المال وتمد الأسمة الجليلة .

وكان السلطان الفاصر محمد بن قلاوون يحضر عند ابن جماعة لسماع الحديث . كذلك كان الظاهر جقمق عالما متفقا ، فصيح اللسان بالعربية .

وغالبا ما كان السلاطين يدعون الى مجلس لقراءة القرآن الكريم عند المقياس فقد ندب السلطان المؤيد شيخ الحمودى

طائفة من القراء للاجتماع على تلاوة كتاب الله بالمقياس وأجرى عليهم من الأطعمة ما يليق بهم فأقاموا على ذلك بالمقياس وكان سبب ذلك توقف النيل عن الزيادة عدة أيام فكثيرا ما كانت تعقد تلك المجالس القرآنية عندما تحل الأزمت بالبلاد ، أو تقع ظاهرة طبيعية غير عادية مثل كسوف الشمس أو خسوف القمر أو غيرها فقد كان ذلك مجالا واسعا للوعظ وحث الناس على فعل الخيرات دفعا لما قد يقع من البلاء .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م فى عهد السلطان المؤيد شيخ اشد الطاعون بالناس ، فنودى فى الناس بالخروج الى الصحراء ، وأن يخرج العلماء والفقهاء ، ومشايخ الخوانق ، وصوفيتها ، وعمامة الناس ، ونزل الوزير الصاحب بدر الدين بن نصر الله ، والامير التاج الاستادار بالصحبة الى تربة الملك الظاهر برقوق ، حيث نصبوا المطابخ بالحوش القبلى منها وشسارك السلطان فى ذلك مظهرا الخشوع والانكسار وهو يبكى ويدعو الله بين القضاة والخليفة وأهل العلم وطوائف من الناس لا تحصى ، وكان يوما مشهودا ، يقول المقرئى لم ندرك مثله .

وكانت مثل هذه التصرفات العاجزة سسمة بارزة ونغمة مشتركة فى مواقف الدولة ورجالها الذين يتمسحون برداء الدين ابان الأزمت .

وفى عهد السلطان الأشرف برسباى كان من عادة قاضى القضاة علم الدين صالح البلقىنى أن يخرج فى جمع موفور الى الصحراء ، خارج باب النصر وأن يجلس جانب تربة الملك الظاهر برقوق ، فيعظ الناس على عاداته ويعمل الميعاد .

ففى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٣٠ م وقع وباء عظيم بمصر فاجتمع أربعون شريفا اسم كل منهم « محمد » بالجامع الأزهر وقرأوا ما

تيسر حتى أذان العصر فصعدوا على سطح الجامع وأذنوا جميعا بصوت واحد ثم صلوا العصر وانفضوا ، وقيل أخذ الوباء يتناقص بعدها حتى انقطع .

ويبدو أن الناس كانوا سريعي الاستجابة للخروج فى مثل هذه التجمعات الدينية ، خاصة عندما كان يشتد الكرب ، ففي التاسع والعشرين من صفر سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م كسفت الشمس قبيل الزوال ، فاجتمع الناس بالجوامع لصلاة الكسوف ، فبادروا للتطهر وسعوا رجالا ونساء الى الجوامع وهم فى خشوع وذكر واستغفار .

ولم يكن المماليك أقل استجابة لتلك النزعة الدينية التى سادت فى العصر المملوكى ، فالمعروف أن بعض المماليك حفظوا القرآن الكريم كله عن ظهر قلب ، وحرص على تجويده ، فاشتهر الأمير ازهر الأبراهيمى الظاهرى جقمق بنلاوة القرآن والقراءة مع قراء الجوق ورياسته مع فهم فى الجملة وطول نفس . وعرف عن يثبك بن سليمان شاه المؤيدى الفقيه أحد أمراء السلطان المؤيد شيخ وصهره أنه اشتغل بالقراءات .

ومن المماليك من اشتهر بحسن الخط والتأنق فيه كالأمير تجكاس الاسحاقى الظاهرى جقمق الذى يقال أنه كتب قصيدة البردة للبوصيرى وقدمها لأستاذه جقمق فاستحسنها ، واعتبرت الاجادة فى الخط مبررا لزيادة ثمن المملوك .

ويبلغ من اهتمام المماليك بالقرآن قراءة وكتابة وحفظا أن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق كان له اشتغال بالعلم ، وبرع فى الفقه وأذن له بالافتاء ، توفى فى المحرم ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م . وكذا على باى بن برقوق نائب الشام المتوفى فى رجب سنة

٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، فى عهد الأشراف قايتباى ، كانت له عناية
بالعلم والاشتغال به ، وكان شابا ناضلا (١٦) .

ويذكر أن الأكابر والأمراء كانوا يحضرون مجالس الوعد
والعلم بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ويقبلون على شيخها
ويجلسون بين يديه متأدبين ، وهو يخاطبهم بأسمائهم من غير
تعظيم ولا تلقيب .

ولندع الرحالة ابن بطوطة يصف لنا طرفا من هذه المجالس ،
شاهدها بنفسه فى أقاليم مصر أثناء رحلته للحج إذ يقول :
« ونزلت من هذه المدينة — يقصد أخميم — بزاوية الشيخ أبى
العباس بن عبد الظاهر ، وبها تربة جده عبد الظاهر وله من
الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ، ومن عاداتهم أن
يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين وأولاده
وقاضى المدينة فخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن
ويذكرون الله الى صلاة العصر ، فاذا صلوا قرأوا سورة الكهف
ثم انصرفوا » ، ويضيف الرحالة أنه سافر من أخميم قاصدا مدينة
كبيرة بساحل النيل تسمى « هو » ويقول انه نزل منها بمدرسة
تقى الدين بن السراج ويقول : « رأيتهم يقرأون بها فى كل يوم
بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ، ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى
الحسن الشاذلى وحزب البحر » .

وكان الأمراء يتنافسون فى أفعال الخير ، وبناء المساجد
والزوايا ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضى فخر الدين
القبطى ، وكان نصرانيا فأسلم وحسن اسلامه وله منزلة عظيمة
عند الملك الناصر . . وكان من عادته أن يجلس عشى النهار فى
مجلس له فى داره على النيل ويليه المسجد ، فاذا حل المغرب

صلى فى المسجد وعاد الى مجلسه وانى بالطعام ولا يمنع حينئذ
أجد من الدخول كائنا من كان ، ويقضى حاجات الناس ، ومن
كان طالب صدقة أعطاه خازنه ما قدر له ، ويحضر عنده فى ذلك
الوقت الفقهاء ويقرا بين يديه كتاب البخارى فاذا صلى العشاء
انصرف الناس عنه .

وهكذا نجد أن مجالس الوعظ قد أسهمت اسهاما كبيرا فى
نشر الثقافة فقد كانت تسد فراغا روحيا كبيرا لدى الناس جميعا
حكما ومحكومين ، فى عصر غلبت عليه الأحداث الجسام ، وكثرت
فيه الأزمات والمجاعات ، فكانت تلك المجالس تخلص الناس من
همومهم أو تخففها عنهم .

مجالس القصص :

وارتبط بمجالس الوعظ نوع آخر من المجالس عرف بمجالس
القصص ، حتى أن بعض الفقهاء والمتكلمين والأدباء والنحاة ،
اعتبروا الوعظ قصاصا — كما سبقت الإشارة — وتلك المجالس
— حسب رواية أحد المؤرخين — نوعان ، قصص العامة ، وقصص
الخاصة (١٧) ، وكان القاص يجلس عادة فى الطرقات ، أو فى
المقابر أو فى الجوامع أو فى المدارس أو فى الخانات ، أو
يجلس فى الأسواق وقد أطلق على القصص أحيانا « قارىء
الكرسى » وتذكر المصادر أنه « هو من يجلس على كرسى يقرا
على العامة شيئا من الرقائق والحديث والتفسير ، فيشترك هو
والقاص فى ذلك ولكنهما يختلفان فى أن القاص يقرا من صدره
وحفظه ويقف وربما يجلس ، ولكن وقوفه وجلوسه فى الطرقات ،
أما قارىء الكرسى فيجلس على كرسى فى جامع أو مسجد أو
مدرسة أو خانقاه ، ولا يقرا الا من كتب .

وقد راج الأدب القصصى فى ذلك العصر ، ومن أشهر القصص ، كتاب ألف ليلة وليلة ، الذى تصور قصصه عصر المماليك بطريقة جذابة ، وان انتحلت شخصيات من العصر العباسى الأول لأبطال تلك القصص كما ذكرت بغداد عوضا من القاهرة ، ويضيف بعض المؤرخين أن ألف ليلة وليلة « كتبت للجمهور الذى كان يجتمع فى المقاهى يصفى الى ما يسرده القصاصون المحترفون للطبقة الوسطى غير المثقفة الكثيرة العدد فى القاهرة » ويرى أن هذا هو الذى جعل لهذه القصص قيمة خاصة فى نظر طلاب مصر فى العصور الوسطى . لأنها تجعلنا نصل الى حياة الشعب من خلال صفحاتها بصورة واضحة . كما كان القصص يقصون الحكايات والسير على العامة .

ومن القصص المشهورة قصتا عنتره والظاهر بيبرس وتعتبران من القصص الشعبية التى أعجب بها الناس كثيرا ، وتعدان الى الآن سلوى الجماهير فى بعض مقاهى الشرق الإسلامى . . وعرف قصاصو سيرة الظاهر بيبرس باسم الظاهرية نسبة الى صاحبها ، كما عرف غيرهم بما كانوا يحكونه من قصص وملاحم كالهالية والزنازية وهكذا .

وقصة الظاهر بيبرس قصة طويلة ، تمتاز بخيال خصيب ، ووقائع طريفة فضلا عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى تصويرا دقيقا . وكانت هناك قصص أخرى ، تروى بالمقاهى مثل قصة سيف بن ذى يزن ، وألف ليلة وليلة وغيرهما كما سبقت الإشارة .

والحق أن لغة القصص السهلة كانت تستهوى العامة أكثر من أسلوب العلماء الجاهد فى كثير من الأحيان ، خاصة أن مجالس القصص كانت تعتمد على رواية القصص والأساطير التى ترضى

ميول الحاضرين ، كما كان لهؤلاء القصص مـقدرة كبيرة على ارتجال الحكايات المطولة ، حتى بعضهم : أنه رأى درة(١٨) تقرأ سورة « يس » وقال آخر وكان غراب يقرأ سورة « السجدة » فإذا جاء عند آية السجدة ، سجد ويقول سجد لك سوادى واطمان بك مؤادى .

وخلاصة القول ان تلك المجالس كان لها دور واسع فى الترفيه عن الناس وان كان أثرها محدودا بالنسبة لغيرها من المجالس ، بالإضافة الى ضحالة موضوعاتها ، ونقافة أغلب القصص المتواضعة أو القاصرة فى كثير من الأحيان ورغم ذلك فقد كانت وسيلة لكثير من الناس للاستمتاع بها وما يستمعون فيها .

هواشئ الفصل الاول

(١) هو محمد بن محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي
وكان اماما عالما فاضلا (ت ٨٧٦ هـ) .
(٢) ومما قاله :

يا عين من اعيان الزمان وبا محيي بمصر سنة الشرع
ما قرع الباب عليك امرؤ الا وذاق حلاوة الفسح
(٣) حيث يقول :

« حضر في مجلس قاضي القضاة ابن هين الدولة مع شيخه وجلس في
اواخر الناس » فقال له القاضي : اطلع ياقيم ، ورفع في المجلس وانفق من
الحكايات انه وجد كراسة فيها نكتة خلافية ، وكان يوم النيروز والطلبة يلعبون ،
فأغلق بابه واشتغل بتلك الكراسة حتى أتقنها ، وبعد أيام قلائل حضر شخص
ومعه مراسيم ، وتجمع له الفقهاء يناظرهم ، فحضر الوالي والقاضي والشيخ
والطلبة فاستفتح ذلك الشخص وتكلم في تلك المسألة فقام الشيخ بهاد الدين
وقبل يد شيخه وقال : أنا اناظره ، فاستفتح وأعاد المسألة والاجوبة الى آخرها
ولم يتوقف ، الا أن ذلك المناظر قال له في أثناء الكلام : يا فتية الله تعالى حكمان
متوقف ، فقال شيخه ، أتم الكلام ، نعم لله حكمان : حكم عدل وحكم فضل ، وكمل
المناظرة وقام برفعه العوام » .

(انظر الطالع السعيد ، ترجمة هبة الله بن عبد الله بهاء الدين القنطري
(ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) .

(٤) عقد هذا المجلس في شوال سنة ٩١٦ هـ في عهد السلطان الغوري ،
فلما تكامل المجلس بدأ السلطان يتكلم مع العلماء وينكر عليهم اقرارهم للزاني
بالرجوع وهو معترف ، فقال أحد العلماء وهو ابن أبي الشريف ، شرع الله هذا .

وأرواه النقل في هذه المسألة ، فلم يلتفت السلطان الى العول في ذلك وقال :
أنا ولي الأمر ولي النظر العام في ذلك . فقال له ابن أبي النسريرف : نعم
ولكن بموافقة الشرع النسريرف وان غلبت بلزمتك وتبين ثمنهما ، فحقق منه وكاد
أن سطرش به في المجلس بم السب الى آخر وسأله عن رأيه فقال : له الرجوع
بعد الاعتراف فقال له السلطان هذا يكون في ذمك فقال « ايئس كنت أنا هذا في
ذمة الامام الشافعي صاحب المذهب » مانهمه السلطان بقوله : « أنت جهلت ما بقي
لك عقل » ثم التفت الى القضاة ووبخهم وقال : « إنتم الأربعة قوموا لا تروى
وجوهكم قط » فقاموا من ذلك المجلس وهم يتعثرون في أذيالهم ، وكان لهم يوم
مهول ، فانفصل المجلس مانما وحصل فيه كل سوء من مقت السلطان لهم « ثم
أنقض المجلس من غير طائل وحصل للعلماء في ذلك المجلس غابة السهولة » .

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهر ، ج ٤ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤) .

(٥) الحسن بن عمرو بن حبيب ، تذكرة النبي ، القاهرة ١٩٨٢ ، ج ٢ ص ١١٠
وعقد هذا المجلس في ١٢ رجب سنة ٧٢٠ هـ وتوفي ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ /
١٣٢٧ م .

(٦) ومما قيل شعرا في هذا المعنى :

إذا كان انسى في التزامي خلوني وقلبي عن كل السبرية خسال
فما ضررتني ، إن كان لي الدهر تالبا ولا سسرني من كان في مسوال

(٧) عن تفاصيل هذا المجلس ، انظر ، ابن حجر ، انباء الفهر بانباء العمر
تحقيق حسن حبشى القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ج ٣ ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٨) وقد نشر معظم هذا الكتاب ضمن « مجالس السلطان الغورى ،
صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجرى » بمعرفة عبد الوهاب عزام ،
ونشرته لجنة التأليف والنشر سنة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م .

(٩) نشر هذا الكتاب أيضا ضمن « مجالس السلطان الغورى ، بمعرفة
عبد الوهاب عزام السابق الاشارة اليه .

(١٠) هو محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاکر بن هارون بن
شاکر صلاح الدين المؤرخ الكسى الداراني ثم الدمسقى (انظر ترجمته في الدرر
الكامنة ، طبعه بيروت ، ج ٣ ، ص ٤٥١) .

(١١) هو قاضى القضاة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر بن أحمد بن على بن اسماعيل المعروف بابن الرسام ، ولى قضاء حماة ثم قضاء حلب وقدم الشام والقاهرة مرارا .

(١٢) يقصد بالمواعيد ، مجالس الوعظ والذكر تعقد فى مواعيد معينة من كل أسبوع (انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصامى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٠٣ ، حاشية ٢) .

(١٣) وقيل أيضا أن يكون ما بالعلوم الشرعية والأدب ، حافظا للكتاب العزيز ولاحدِيث النبى (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الصالحين ، وحكايات المتقدمين ، ويمتحن بمسائل يسأل عنها من هذه الفنون فإن أجاب والا منع ، كما اختبر الامام على بن أسى طالب رضى الله عنه الحسن البصرى رحمه الله وهو ينكلم على الناس فقال له : « ما عماد الدين ؟ فقال : الورع ، قال : فما آفته ؟ قال : الطمع ، قال : تكلم الآن ان شئت . ثم برزرت فله تلك الشروط مكن من الجلوس على المنبر فى الجوامع والمساجد فى أى بزمه أحب ، ومن كان جاعلا بذلك منع من الكلام فإن لم يمنع وداوم على كلامه عذر .

(انظر ابن الاخوة ، معالم القرية فى أحكام الحسبة القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٧٣) .

(١٤) وقيل : « كان العصر الأول لا يصعد المنبر الا أحد رجلين ، خطيب فى جامع يوم الجمعة أو يوم العيد ، أو رجل عظيم الشأن يصعد المنبر يعظ الناس ويذكرهم بالآخرة » .

(انظر نفس المصدر ، ص ٢٧١) .

(١٥) وتشير المصادر كذلك أنه يجب منع النساء من حضور المساجد للصلاة ، وكذا مجالس الوعظ خوفا من الفتنة بهن ، فقد نهت عن عائشة رضى الله عنها قين لها : ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما نهى عن الجماعات ، فقالت : لو علم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أحدث النساء بعده لنهى عن .

(انظر ابن الاخوة ، معالم القرية فى أحكام الحسبة ، ص ٢٧٢) .

(١٦) وقد مدحه الشهاب المنصورى بقوله :

مجا على باى بن برقوق مشسرق كبد سنى لبس بينهما فرق
فان بك سباقا الى الفضل والندا فلا تعجبسوا منه فوالده برقوق

(١٧) وقد عرف عند العرب من القصص نوعان : قصص للعبادة ، وقصص للخاصة فأما قصص العبادة فهو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظمهم ويذكروهم وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية أمرا معترفا به ، إذ ولي رجلا على القصص للنزويج لحزبه والدعوة له ، وقد أصبح عملا رسميا بسند الى رجال رسميين ينالون عليه اجرا .

(انظر ، محمد كمال الدين ، العرب والمسرح ، العدد ٢٩٣ من كتاب الهلال ص ٨٦) .

(١٨) قيل الدرة هي الببغاء وتطلق خاصة على الصفار منها (انظر ، الادفوى الطالع السعيد ، ص ٦٢ / حاشية ٣) .

* * *

الفصل الثاني

مجالات الأدب والشعر

يكفى غاية للأدب أن ينمى موهبة الذوق وحاسة الجمال وأن يربى الشخصية القومية ويصير بها فتضع بصماتها بعد هذا على سائر ما يصدر عنها من وجوه النشاط فى المجالات الأخرى .

والأدب بأشكاله المختلفة بالنسبة للفنون الأخرى يعتبر ركيزتها الثقافية ويمدها بأسباب التأثير والوان التعبير .

ولاريب أن الأدب يكون دائما مرآة أى شعب فى كل عصر من العصور يلقي ضوءا ساطعا على أحوالهم العامة ، بل حياتهم اليومية ، ويجلى كثيرا من علاقة الحاكم بالمحكوم .

هذا وقد تلهب الأزمات وقهر الحكام قريحة الأدباء والشعراء فيفسح بذلك مجالا كبيرا لأنواع كثيرة من الأدب . فكما ذكرنا فان الأدب الصادق هو الذى يكون مرآة صادقة لعصره .

وفى عصر المماليك كان الأمراء والكبراء وذوو الجاه يرون تقريب العلماء والأدباء والشعراء حلية من حلى العراقة والفضل ، ومظهرا من مظاهر الشرف والنبيل فكانوا يفسحون لهم فى جانبهم ويبذلون لهم من جاههم ، وكانت منازلهم وقصورهم مؤثلا لأولئك العلماء والأدباء والشعراء ، يجتمعون فيها كل ليلة أو كل أسبوع فيتباحثون ويتحاورون ويسمرون ويضحكون ، ويذهبون فى فنون القول مذاهب شتى ، فتلك حقيقة علمية خافية أو طرفة أدبية شاردة ، وتلك فكاهة حلوة ممتعة تروى وتحفظ ، فكانت هذه المجالس هى مجالس التفكير العلمى والأدبى ، والتدبير السياسى والاجتماعى ،

قلقى فيها الفكرة ويمحص الراى ، وتتلاقح الافكار ، والخواطر فتأتى بالمعجب والمطرب .

وشجع سلاطين الممالىك مجالس العلم والأدب حتى أصبح عصرهم زاهرا بالعلماء والأدباء ، فازدان بكثير من أفذاذ الكتاب الذين ضربوا فى الأدب بسهم واتصل كثير منهم بديوان الانشاء فكانت لهم اليد العليا فى تحرير التفاوض والعهد(١) .

ومن أجناس الأدب فى هذا العصر النثر الفنى والنظم ، وقد تجلى الأول فى الرسائل الصادرة عن ديوان الانشاء باسم السلطان وترسل الى حلفائه من الملوك والأمراء ، والى الولاة والعمال فى الأقاليم ، وكان يعنى بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية .

وأبرز من برع فى هذا الفن هو الأديب ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) الذى امتازت رسائله بأسلوب جذاب ، فقربه السلطان الظاهر بيبرس وعينه كاتباً للسرد ديوان الانشاء ، كما كان يختاره للقيام ببعض المهام الخطيرة .

وقد أولى المملك - بصفتهم مسلمين ، وبرغم انهم لم يكونوا عربا - اللغة العربية عناية كبيرة لأنها لغة الاسلام ، واذا لم يكن اهتمامهم - وهم الطبقة الحاكمة - بالأدب الخالص من نثر وشعر يصرفه أصحابه فى مدح أهل الدولة ، فان اهتمامهم باللغة العربية على انها لغة السياسة والادارة والعلم كان عظيما .

ولارىب فى أن فى عصر الممالىك كله كان عصر الموسعات فى العلم والأدب والمعارف الانسانية .

واعل من أبرز الخصائص الأدبية العامة فى عصر الممالىك وضوح الاتجاه الدينى من الزهد والتصوف والبديعيات ، وهى

القصاصد الطويلة فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحدِيث الشريف .

والى جانب هذا كله كان ثمة مظاهر من اللهو والمجون والفسق والنظم فى الخمر والحشيشة ، كما كثرت فى النثر والشعر المراسلات الاخوانية والمعارضات والمناقضات والألغاز والأحاجى والمحاويرات والمطارحات ويقصد بها المناظرات والاطناب فى القباب المديح والاطالة فى الرسائل والقصاصد مع بروز عنصر الوصف بروزا واضحا الى جانب اغراض تقليدية كثيرة للشعر سوف نعرض لها فى حينها .

وأما من الناحية اللفظية فان الاسلوب قد ضعف وأصبح التركيب ركيكا فى بعض الأحيان ودخلت عليه ألفاظ وتعابير عامية أو قريبة منها ، وتبع ذلك أوجه البلاغة وكان أكثر ماتعاطاه الأدباء فى ذلك نثرا ونظما هو وجوه التورية .

وتذكر المصادر ان نظم الشعر أيام المماليك كان من مستلزمات الأدباء والمتأدبين ودليلا على مبلغ ثقافتهم وتأديبهم حتى يقول واحد منهم عن نفسه : « وأما شعري وان كان ركيكا فان له فى ضعفه شريكا » ويضيف أن شعره لا يخلو من فائدة وموعظة . وذكر بعضهم رأيه فى الشعر نظما (٢) .

وازدحمت مجالس الأدب فى العصر المملوكى - كما أشرنا - بكثير من المناظرات أو الموازونات القائمة على الحوار بين أبرين يحاول كل أمر أن يفضل نفسه على نظيره أو مفاخره ، ولعل من أشهر هذه المفاخرات : مفاخرة السيف والقلم ، ومفاخرة الورد والنرجس (٣) ، وأصبحت تلك المناظرات فى هذا العصر فنا متميزا ان اتسع نطاقه وكثرت اغراضه وشاع عند الأدباء .

وكثيرا ما كان الشعر يرتجل حسب المواقف التي تعن للجالسين من الشعراء دون اعداد ، وانما يحاول كل منهم التعبير شعرا عما يراه فيحكى أن علاء الدين بن بنت الأعز أقام مأدبة دعا اليها بعض العلماء والأدباء ، منهم القاضي فخر الدين بن صدر الدين المارداني ، وبينما هم مجتمعون رأوا شابا حسنا يسبح فيتلطخ بالتراب ، فطلب صاحب المأدبة أن ينظم بعض الحضور في هذا الشاب شيئا ، فقام ثلاثة منهم الى ناحية وانفرد فكان الذي نظموه في ذلك جيدا (٤) .

واستحسن الحاضرون قول ابن بنت الاعز ، فهو أحسن المقاطيع وأما مقاطيع فخر الدين ففي ثانيها فساد للمعنى ، لان الليل ما يطل على الصباح وانما الليل يطل على النهار ، والصباح يطل على الليل ، وان كان هذا الاعتراض لم يعجب بعضهم .

وهكذا نرى ان ذلك النظم - رغم اختلاف الناظمين - قريب الاتفاق ولم يطلع أحد منهم على ما نظم صاحبه الى ان اتم كل منهم ما نظمه .

وفي إحدى مناظرات صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن الخطيب والذي كان مناظرا مستحضرا ، لايقوم بمناظرة ابن تيمية أحد سواه ، تناظر يوما ، ولما حميت المناظرة استشهد ابن تيمية ببعض الحاضرين فأنكر مناظره عليه ذلك شعرا (٥) .

وحدث أن دس أعداء المصدر الى السلطان الناصر قصيدة ذكروا أنه هجاه بها ، فأحس الشر وهرب التي غزة « وعندما دخل على الناصر فقال له يكثر الحاجب بس الأرض فامتنع وقال : مثلي لايبوس الأرض الا الله » ولما عاتبه السلطان على ما بلغه من خبر القصيدة أخبره ان أعداءه وحساده نظموا ما أرادوا على لسانه ، وأخرج قصيدة على وزن تلك القصيدة المنسوبة اليه في مائتي بيت وأنشدها على السلطان فصفع عنه وعظم عنده .

وعرف كثير من الأدباء بطول النفس فى المناظرة ، وبالذهن الثاقب والذكاء المفرط ومنهم من وصف بالظرف حتى سمي «الروضة» فرط ظرفه . كما عرف منهم الكثيرون بحب المطارحة والميل الى لدعاية والتظاهر بالهزل فينظمون بشكل تلقائي ما يعبرون به عن موقف عن لهم فى حياتهم اليومية ، ولم يسلم العلماء أنفسهم من بداعية الشعراء والأدباء فقال أحدهم دعابة لطيفة فى الشيخ زين الدين عبد الباسط بن الغربس خليل بن شاهين وهو من العلماء لفصلاء (ت ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) بسبب أن كان له أنف كبير (٦) .

ويدل ذلك على كثرة الفكاهة فى الشعر ، فى ذلك العصر ، كثرة ظاهرة ، كما نرى فى شعر أبى الحسين الجزار (ت ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م) وشعر سراج الدين الوراق (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩٦ م) وكذا شعر نصير بن أحمد بن على المناوى المصرى (ت ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م) الذى تعاطى نظم الشعر مع عاميته ، وكان يرتزق بضمان لحصامات (٧) .

وكان بينه وبين السراج الوراق وابن النقيب (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) وابن دانيال وغيرهم من المصريين دواعبات كثيرة (٨) .
ومرة أصيب السراج برمد فى عينيه فأهدى الجزار اليه تفاحا يكثرى وكتب مع ذلك بيتين من الشعر (٩) .

ومن المداعبات اللطيفة أيضا ما حدث عندما وقعت وحشة بين لشهاب أحمد بن الشيخ على المقرئ ، وعلى باى الذى سماه الأولى « زلابية » مضافا الى اسم شخص من الاتراك كان مضحكا يعبت عليه الناس وينادونه زلابية فيرجمهم فلما شاع ذلك بين الناس أخذ بعض الشعراء هذا وقال مداعبة شعرية لطيفة (١٠) .

وكثرت فى ذلك العصر النوادر المضحكة التى تنم عن ذهن صاف وميل لنيل السرور واشاعته بين الناس ، بحيث يمكن القول ان ما انتشر من نوادر فى ذلك العصر كان على نمط مايحكى عن جحا ، ويحكى عن أحمد بن محمد ابن عثمان صفى الدين بن القاضى شمس الدين بن الحريرى (ت ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م) أنه كان كثير التندر وكان من نوادره انه «قال : لغللمه يوما وقد عثرت بغلته لاتعلق عليها ثلاثة أيام عقوبة لها ، فجاء اليه فى آخر النهار ، فقال اذا لم نعلق عليها تحمر فقال : علق عليها ولا تقل لها انى اذنت » (١١) .

وكان طبيعيا ان أصحاب تلك الطرائف والنوادر كانوا على جانب كبير من خفة الروح وسرعة البديهة ، مما يحدث تجاوبا كبيرا بينهم وبين سامعيهم . وهم فى الغالب يكونون من بين الأدباء والشعراء الذين لديهم استعداد فطرى لذلك (١٢) .

والواقع ان كتب التاريخ والأدب التى تتناول عصر سلاطين المماليك تذخر بالكثير الوافر من تلك النوادر والمداعبات التى سادت ذلك العصر والتى لا يتسع المجال هنا للاحاطة بها ، وانما اكتفى ببعض الأمثلة للدليل على انتشار الفكاهة فى الأدب نثرا وشعرا .

وانتشرت الفنون الشعرية المختلفة فى العصر المملوكى شأنه فى ذلك شأن كثير من العصور الاسلامية السابقة ، وان كان أكثر تلك الفنون انتشارا ورواجا هو الموشح والدوبيت والمواليا والزجل ، بالإضافة الى وجود غيرها من الفنون الشعرية الأخرى (١٣) .

وكما تنوعت فنون الشعر ، تنوعت أيضا أغراضه وموضوعاته فى عصر المماليك بحيث يصعب حصرها فى تلك الحقبة بالإضافة الى تلك الاغراض التقليدية من وصف ومدح وهجاء ورثاء

وغيرها • ومن الشعراء من كانوا يقترحون عليه الأشعار في المهمات فيأتي بها على أحسن وجه • فقد نظم شعراء العصر المملوكي الشعر في مناسبات لا حصر لها - وما أكثر مناسباتهم - بل كانوا يقرضون الشعر في مواقف أخرى عديدة ، نعرض لها عند الحديث عن فنون الشعر التي كان أبرزها في ذلك العصر :

الموشحات :

كان الموشح في بادئ الأمر من القول الفصيح قريبا من نظم الشعر ، غير أنه تطور بعد ذلك حتى صارت العامية في خرجاته تكاد تكون ضرورية فيه ، وقد أكثر شعراء العصر المملوكي من نظم الموشحات ولكن بلا اجادة ، كما أكثر الناثرون من وضع المقامات بلا براعة •

ورغم أن الموشح كان موطنه الأول في الاندلس فان المشاركة « قد برعوا فيه » وأشهرهم في العصر المملوكي ، الصلاح الصفدي الذي عارض موشحة ابن زهر (ت ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م) (١٤) •

وبرع كذلك في فن الموشح صدر الدين بن الوكيل (ت ٧١٦هـ / ١٣١٦م) وقد جمع ابن الوكيل موشحاته وسماها « طراز الدار » وأشار بذلك الى ديوان ابن سناء الملك (ت ٦٠٨هـ / ١٢١٢م) في الموشحات فانه كان يسميها « دار الطراز » فقلبه ابن الوكيل ، كذلك فان من أصحاب دواوين الموشحات في العصر المملوكي الأديب الشاعر عمر بن مسعود بن عمر سراج الدين (ت ٧١١هـ / ١٣١٢م) ومن الموشحين أيضا عيسى بن محمد بن محمد بن قراجا بن سليمان بن مارق السهروردي الواعظ شرف الدين أبو الرضى (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م) (١٥) •

وقد تعددت أغراض الموشحات ، فتناولت كثيرا من جوانب حياة الناس فى العصر المملوكى ، وان مال أكثرها الى وصف مجالس الشراب والخمر والفتك وملذات الحياة(١٦) .

وواضح من ذلك ان الموشح يميل الى اللغة العامية ، ولعل هذا هو ما جعل الموشحات أكثر استهواء للناس ، لأنها أقرب الى أذهانهم من نظم الشعر فلقبت اقبالا منهم وتفتن فيها الشعراء .

ولدينا موشحة طويلة من نظم الأديب الشاعر شهاب الدين أبو العباس العزازى التاجر بقيسارية جهار كس بالقاهرة(١٧) . (ت ١٧١٠هـ / ١٣١٠م) وكان له نظم فائق ولاسيما نظمه للموشحات وقد كتبها يعارض أحمد بن حسن الموصلى(١٨) . وهى طويلة وكما نرى فانها تدعو الى اغتنام اللذات وتدعو الى الانهماك فى الشراب ، فتذكر الكئوس والعاملين على تقديمها ، وتشير الى أنواع من الشراب كالراح ، وتصفه بأنه حياة النفوس ، وان دل ذلك على شىء فانما يدل على ما كان سائدا فى ذلك العصر من الملهو والمجون حتى يدعو اليه الشعراء والأدباء دعوة صريحة دون موارد .

الدوبيت(١٩) :

وشاع من أدب ذلك العصر ضرب آخر من ضروب الموشحات يصاغ فى بيتين على وزن «الدوبيت» الذى اشتهر عند الفرس ، وقد انتشر الدوبيت بين شعراء العصر المملوكى(٢٠) . ومن أشهر من برع فى مجال الدوبيت الشاعر الزجال ابن سودون(٢١،٢٢) .

وله فى هذا المجال وصف خيالى يمثل حرمان الشاعر ومايعانيه من الفقر والعوز فهو لم يأت بهذه المشبهات من الرغيف والبيض

والجبن عبثا ولا قالها عفوا ، ولا شك ان هذا الاتجاه يصور لنسا
أحوال المجتمع المصرى وماتعرض له كثيرا من معاناة فى عصر
الماليك (٢٣) .

الموالي (الموال)

وهو ضرب آخر من الموشحات الا أنه أردأ أصنافه وهو
لا يلتزم فيه بشيء ، يسوده الجناس اللفظى ، قيل ان أول من قاله
جوارى البرامكة ، وقيل انه جرى على السنة الاماء والعبيد فى ندب
مواليهم والبكاء عليهم . ويعتقد أن اسمه جاء من ان احدى الجوارى
كانت تقول وامواليه فاشتق من ذلك ، ولكن يقول الأدباء ان الأقرب
الى الصحيح أنه سمي بالموال لموالاة اشطره فى قوافيه وجناسه
اللفظى .

وقد قيل الموال فى عصر الماليك فى أغراض متعددة فمنها
ما قيل فى مدح الأمراء ، وفى عهد السلطان برقوق أظهر الأمير يلبغا
الناصرى سيف الدين عصيانه للسلطان - الذى كان قد أمر بعزله -
وحاصر القلعة وكان النائب بها ناصر الدين المهمندار الى أن أخذها
بسهولة فحينئذ مدحه البهاء خضر بن سحلول فى مواليا (٢٤) .

وأحيانا كان الموال يتناول ذكر عدد من السلاطين الماليك
مرتبا منذ قيام الدولة على غير قوال مثال ذلك ما قاله جمال الدين
أبو المحاسن يوسف ابن الأمير الكبير سيف الدين تغرى بردى
(ت ٨٧٤هـ / م) (٢٥) .

ولدينا مثل ذلك مما أورده ابن اياس وهو يتضمن ملوك الترك
والجراكسة دون اسماء اولادهم على الترتيب واستمر حتى أوائل
الدولة العثمانية حيث أشاد بسلاطينها الأوائل (٢٦) . كما أورد

المؤرخ ابن اياس مواليا من نظمه فى السلطان الغورى عندما خرج فى موكب حافل بعد ان عوفى من مرض فى عينيه ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٩١٩هـ (٢٧) .

ولدينا أيضا بعض المواليا لعز الدين بن السويدي (ت ٦٩٠هـ / ١٣٩١م) يمدح فيها شخصا ويذكر محاسنه (٨) ٢ .

ويعتبر ابن سودون اشهر من قالوا المواليا فى اغراض متعددة ، اختلفت عن اغراض المواليا الأولى ، فقد ضمنت مواليه اغراضا هزلية تكشف لنا عن ظروفه القاسية ومعاناته الشخصية ، وبطبيعة الحال هو واحد من الشعب فهو يوضح لنا شريحة من المجتمع المصرى فى ذلك العصر (٢٩) .

ونرى ابن سودون فى هذا الهزل يعتمد على فن المفارقة وسرد البدييات على شاكلة ادعياء المعرفة سردا يلغى فيه المنطق المستقيم الغاء ويشبه البعض بأنه هو « جحا » مصر فى عصره ، فهو يدفع الناس بهزله دفعا الى الضحك كأنه مهرج من مهرجى التمثيل الهزلى (٣٠) .

وهكذا ابتدع ابن سودون اغراضا جديدة للمواليا فقصد الى السخرية والاستهزاء من خلالها ، وانتقل بها من الغرض الخاص الى الغرض العام ، ان عبر فى كثير من الأحيان عن حياة مجتمعه وما فيها من شكائيات ورغبة فى التنفيس عن مآسيه .

وخلاصة القول فان هذا الم ضرب من ضروب الأدب وهو المواليا قد حقق أهدافه فى التخفيف من معاناة الناس فى العصر المملوكى ، فكان وسيلة من وسائل الترفيه عن فئات كثيرة من الشعب وجدت فيه متنفسا لها يعبر عن رغباتهم ويرفع شكواهم .

بلغت عامية سهلة بعيدة عن فصاحة الشعر وتكلف الشراء حتى كان الناس يحفظونها شفاهة كما نرى البعض من الظرفاء يفعلون ذلك في عصرنا .

والحق ان ابن سودون كان مبدعا في مجال المواليا وان كان عرف أكثر ما عرف بأنه من أشهر الزجالين في العصر المملوكي والزجل لون من فنون الكلام نعرض له فيما يأتي :

الزجل :

ويقصد به رفع الصوت والجلبة فيه ، وخص به التطريب ، وهو ضرب من الموشحات أقصر نظاما وأردأ لفظا ، اذ يجنح به نحو العامية لزوما ، قيل انه نشأ بالاندلس في أول القرن السادس للهجرة ثم انتقل الى المشرق وانتشر بين العامة ، اذ رأوا فيه ما يغنيهم في التعبير عن احساساتهم بلغتهم الخاصة - شأنه في ذلك شأن المواليا - عن مشقة الأخذ بالأدب الفصيح وتكلف عناء الشعر ، وذلك ما ساعد على انتشار الزجل وجعله مادة أساسية للغناء حتى كادت القصائد والموشحات باللغة الفصحى تتوارى بازائه .

ويكاد ينفرد العصر المملوكي بكثرة الزجل والزجالين ، بحيث كان ينظم في اغراض عدة واوزان يصعب حصرها ، حيث كانت تختلف باختلاف الفاظه وطريقة نظمها ، وقد اشتهر بالزجل من المصريين في عصر الملك الناصر ، أبو عبد الله الغباري .

وغالبا ماكان الشعراء يجمعون بين نظم الشعر والزجل والبليق والآخر عبارة عن مقطوعات شعرية قصيرة كالزجل ، حتى اشتهر كثير منهم بالشاعر الزجال (٣١) ، ومن هؤلاء

عبد الكريم على السهروردي القوصي الأديب الشاعر الزجاجي
ويحكى انه طلب جوزة هدية من أحد التجار فلم يرسلها له ، فكتب
اليه زجلا بهذه المناسبة(٣٢) .

ومن ذلك يمكن التعرف على الجانب الترفيهي للناس في
عصر الماليك ، حتى الأديباء والشعراء الذين كانت لهم مجالس
أنس وتعاطى المكيفات وما يصحب ذلك من جلسات السمر والا
فلماذا يطلب ذلك الأديب أن تهدي اليه الجوزة التي لا يخلو
استخدامها الا مع جماعة حتى في عصرنا الحاضر .

وبرع كذلك من الشعراء الزجاجيين ، على بن مقبل بن عبد
الخالق الحموي التاجر الزجاجي (ت ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م) وتعاطى
الأدب ونظم الشعر وغلب عليه نظم الأزجال وجمع أزجاله في ديوان
في مجلدين وانتهت اليه الرياسة في هذا الفن وأنشد زجلا جيدا
في المؤيد صاحب حماة في حضرة ابن نباتة والصفى الحلبي .

وممن برع كذلك في هذا المجال ابراهيم المعمار الشاعر
(ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) وهو أديب ظريف عرف بغلام المورى
المصرى ، وتد برع في الأزجال والبلاليق بحيث كان غاية لاتدرك
وله ميل للمجون ، مما ينعكس على كثير من أزجاله التي تعف النفس
والقلم عن ذكرها .

وتعددت أغراض الزجل وتنوعت - كما سبقت الإشارة - حتى
أنه وجد من نظم في الرثاء زجلا طويلا ، وحتى الرثاء لم يخل من
الفكاهة وبث الضحك ، فمن أطرف الأزجال التي وصلتنا عن عصر
الماليك زجل رثى فيه بعض الزجاجيين الفيل « مرزوق » الذي أهده
تيمور لذك الى سلطان مصر(٣٣) . وهو ما يوضح تلك البروح

الفكرة لأدب العصر وكان من الزجل ما قيل في وصف خروج السلطان الأشرف قايتباي الى الشام ثم عودته بعد غيبة دامست نحو أربعة أشهر (٣٤) من سنة ٨٨٢هـ / ١٤٨٧م لتأمين أحوال البلاد هناك فقال الشيخ بدر الدين محمد بن الزيتوني تلمعة زجلية اعتبرت من محاسن هذا الفن ، كلها غرر وجناس تام ، وهى طويلة جدا تدور كلها حول مدح السلطان قايتباي وذكر مناقبه ووصف ما ألم به من مرض أثناء تلك السفارة ، وأشاد بما حققه فيها من انجازات .

ولابن الزيتوني مرثية فى السلطان قايتباي وفيها يعتذر لسامعيه من أصدقائه وأقربائه الذين يغشون مجالسه ويحلبون منه أن ينظم الزجل وهو لا يستطيع أن يقابى عليهم خوفا من أن يرموه بالعجز ، وهو يستحى أن يظهر الضعيف من نظمه وينسب جماله للقبه زيتونى ، ثم يطلب ممن يجد فيما يقول عيبا أن يستر ذلك الغيب ويكسب ثواب ستره ، ملتصقا لنفسه العذر بأن العصمة لله تعالى (٣٥) . ويبدو أن هذا الأديب الزجال كانت تسيطر عليه تلك الفكرة دائما وهى الاعتذار لسامعيه وتجاوزهم عن زلاته فى النظم فيقول فى قطعة زجلية أخرى مايفيد نفس المعنى (٣٦) .

وله مرثية زجلية كان يرثى بها أهل مصر عندما وقع فيها الطاعون سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م ، وانتاجه من الزجل وفير ، لامجال للاستطراد معه ولكن أهمية زجله فى الغالب ترجع الى مايتضمنه من تصوير لحياة الناس فى عصر المماليك وتتبع سفرات السلاطين والأمراء وماكان يصدر عنهم من اجراءات تجاه الرعية فقد تناول بعض الأدباء تلك الاجراءات وتحدثوا عنها شعرا أو زجلا .

فمنهم من ذكر ماتم من توسيع الطرق الضيقة وكشف أبواب المساجد والمدارس وكذا الأمر باصلاح الأبواب ودهانها ، وفى ذلك

أيضا إشارة الى أن الناس كانوا يمثلون لتلك الأوامر فلا يعصيها أحد ومنهم من أشار الى تزيين المدن والأسواق في المناسبات - وهي كثيرة - واقامة الأسمطة ودق الكوسسات عند دخول مواكب السلاطين .

وقبل أن نفرغ من الحديث عن الزجل كلون من ألوان الترفيه الأدبي في عصر سلاطين المماليك لايفوتنا أن نسجل أن زجالى هذا العصر - كغيرهم من زجالى العصور السابقة - كانت لديهم روح فكهة خفيفة ، كما كانت لديهم لفتات ذهنية بديعة تجلت في انتاجهم الذى انتشر في ذلك العصر وقد عرضنا بعض الامثلة منها فيما سبق .

ونشير في هذا المقام الى شخصيتين من أكبر زجالى العصر ، كان الزجل الفكاهى والهزلى قاسما مشتركا بينهما ، كما أن كليهما نجح في رسم صورة واضحة لظروف عصره من خلال انتاجه الأدبى الذى حاز اعجاب الجمهور واستهوى أفئدة الناس وأولهما هو الشاعر الزجال ابن دانيال ، الذى صور في مسرحيته « طيف الخيال » الحياة الاجتماعية والثقافية بمصر في عصره تصويرا هزليا ساخرا وسوف نعرض لذلك بالتفصيل فيما بعد .

أما الثانى فهو ابن سودون الذى عرف أنه أكثر الشعراء الزجلين الذين غلب عليهم الزجل حتى ينسبه كثيرون اليه لا الى الشعر ، خاصة الزجل الهزلى الساخر الذى طبعت نفس ابن سودون عليه ، وله فيه باع طويل يكاد لايدانيه فيه أحد وله ديوان باسم « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وقد تنافس الظرفاء في الحصول على شعره الذى يذهب جميعه مذهب الضحك والفكاهة .

وعنى بجمع هذا الشعر في ديوانه ، بل أضاف اليه طائفة من الحكايات الفكهة . والحق ان ابن سودون شخصية طريفة في

تاريخ الأدب المصرى الشعبى ، لأنه يفصح عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الفكاهى الذى اشتهرت به مصر فى عصورها المختلفة .

والواقع ان الشعر بصفة عامة كان بضاعة رائجة فى عصر سلاطين المماليك كان له اربابه الذين عجز بهم ذلك العصر على اختلاف مستوياتهم الثقافية والعلمية وكان الناس يستحسنون من الشعر الحسن ويستهجنون منه ما كان غير ذلك بمقاييس عصرهم مدركين الغث من السمين ، مقدرين لكل شاعر منزلته واجتهاده فكانوا يفاضلون بين شاعر وآخر ويضعون الشعاع فى المرتبة التى يستحقها .

حقا لقد كانت مجالس الشعراء واجتماعاتهم ومناظراتهم - التى كانت تتم فى اطار مجالس أدبية عامة أو خاصة - تقدر أفكارهم وتشجذ همهم نحو الاجادة مستلهمين من تشجيع الحكام المماليك وجمهور المشجعين دافعا لهم وحافزا .

وكما سبقت الاشارة فان شعراء العصر المملوكى قد نظموا الشعر فى أغراض تقليدية عديدة فشملت الرصف والمديح والهجاء والرثاء وغيرها وفى ظل هذا المفهوم للشعر وذلك الاطار لم يكن الشاعر يشكّل الصورة وفق ما يوافق هواه ، لأن ذلك يحتاج الى رؤية مغايرة ، وانما كان ينقل عناصرها ويقيسها على الصور السابقة ويقارن بها ، فليس للشاعر - بعد ذلك - فضل السبق والابتكار ، وانما له فضل التحوير والاضافة .

ويمكن أن نضيف انه فى عصر سلاطين المماليك قد تعددت أغراض الشعر بفنونه بتعدد واختلاف المواقف فى الحياة اليومية للناس ، فغالبا ما كان الشاعر يرتجل الشعر أو الزجل حسب المواقف التى قد يجد نفسه أمامها مهما كان موضوعها ومادتها .

وقبل أن نعرض لبعض أغراض الشعر في عصر الماليك فإن من الطريف أن نوضح رأيا من آراء بعض الشعراء المجيدين في الشعر ، فقد كان بعضهم يترفع عن هذا الفن - رغم حبهم له - ولم يرضوه بضاعة ، ولا اتخذوه صناعة ، بل دعاهم إليه - في رأيهم - محبة الأدب وسجية العرب ويدل على ذلك قول عمر بن عيسى مجير الدين بن اللمطي وهو أمير شاعر (ت ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) (٣٧) .

وجدير بالذكر أن المصادر التاريخية والأدبية تذخر بأمثلة كثيرة ونماذج متعددة من إنتاج هؤلاء الشعراء في العصر المملوكي متناولين أغراضا شتى مما أدى الى امكانية الاختيار وهذا في نفس الوقت أمر ليس سهلا فكما نرى أن الوفرة أحيانا تستلزم حذرا وجهدا كالذي تتطلبه الندرة .

لاريب أن الوصف في شعر العصر المملوكي كان من أهم أغراض ذلك الفن انتشارا ، فقد كان الشعراء يصفون معظم ماتقع عليه أعينهم عن طريق الارتجال فشمّل الوصف أشياء كثيرة حتى التافه منها كان مجالا لشعرهم (٣٨) .

وعبر بعض الشعراء عما يتمنون ويشتهون الحصول عليه حتى قال أحدهم وهو أبو الحزم القوصي شعرا يرجو فيه مروحة (٣٩) .

ووصف الشيخ بدر الدين الزيتوني ميدانا ومايجرى فيه من أسباب اللهو والسرور وصفا جميلا دقيقا يصور لنا مكانا من أماكن الفرجة والاستمتاع (٤٠) .

وتشير المصادر الى عادة تفشت في العصور الوسطى وهي أن البعض من الناس على اختلاف مراكزهم كانوا يهونون غلمانا

ومردانا يشغفون بهم ويهيمون ، وكان ذلك مجالا يخوض فيه الشعراء بلطف ودعابة ، ولدينا الكثير من الأمثلة نذكر بعضها منها مع الاكتفاء بما كان عفيفا يقتصر على التلميح ، ونغض الطرف عن القول الصريح حياء . ومن ذلك ما قاله الحسن بن هبة الله الالفوى (ت ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م) وهو أديب شاعر (٤١) .

وقال عبد الملك بن العجمى الحلبي (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م) يصف مليحا كان فى عنقه شامة اسمه العز حيث يتغزل فيه شعرا (٤٣) .

ومن قول الناصر محمد بن قرقمـاس الحنفى (ت ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م) فى وصف مليح من هواة ركوب الخيل يصفه كأنه ظبى (٤٣) .

واستغل أحدهم وهو فخر الدين ابراهيم بن لقمان (ت ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م) اسم مليح يدعى غلمش فقال فيه شعرا وقد باح باسمه لأول مرة حيث يبدو أنه كان يهواه (٤٤) .

وقد دأب بعض الشعراء على أن يتبادلوا النظم مطارحة فيما بينهم حتى ان البدر يوسف بن لولو (ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م) وهو شاعر مشهور من شعراء الدولة الناصرية يكتب الى آخر كان يهوى غلاما اسمه جارح مستعملا التورية فيما يكتب (٤٥) .

وكان لبعض الشعراء تصانيف عديدة فى هذا المجال منها « حسن الاقتراح فى وصف الملاح » ذكر فيه مؤلفه ألف مليح وصفاتهم وقد تناول الوصف كذلك مجالات أخرى تتسم بالجد ، كما تناول جوانب أخرى من حياة الناس ، والافتخار بالوطن ومما قيل فى ذلك ما نظمه زين الدين عمر بن السوردي (ت ٧٩ هـ / ٧٨٨ م)

وهو يصف حسن مصر ، وكان بذلك يعارض مقاله ابن زريق
الكاتب فى بغداد(٤٦) .

واجمالا يمكن القول بأن شعراء العصر المملوكى قد وصفوا
حياة الناس فى عصرهم حيث كانت الأعياد والمناسبات المختلفة وكذا
أنواع الرياضات المختلفة كالفرسية والعباب الكرة والسباحة
وغيرها من وسائل الترفيه فى عصرهم كالنرد والشطرنج وكذا
الصيد . وأماكن اللهو والتنزهات وأماكن القصف والشراب
والولائم والأسمطة وسوف يحين تناول ذلك فى مواضع قادمة من
هذا البحث .

كما كانت المجاعات والأزمات والأوبئة التى اجتاحت البلاد
فى بعض الأحيان مجالا للشعراء عبروا عنها بأشعارهم ويازجالهم .

وبالإضافة للوصف فقد برز المديح كغرض من أغراض الشعر
فى العصر المملوكى فأفردت له القصائد الطويلة واسترزق بعض
الشعراء من وراء ذلك ونالوا الأعطيات والهبات فى أغلب
الأحيان .

ونشير هنا الى نوع من المديح تناولته أقلام الشعراء تمشياً
مع تلك النزعة الدينية التى سادت فى عصر المماليك ونعنى بها
مدائح النبوية وهى قصائد طويلة عرفت بالبديعيات التى تناولت
مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) منها ما بلغ ذروة البراعة فى
شعر البوصيرى (ت ٦٩٥ هـ / ٢٩٦ م) الذى عاش فى عصر
السلطان الظاهر بيبرس ، وامتاز شعره بالرصانة والجزالة ويكثر
فيه مراعاة البديع ، ومن شعره قصيدة البراءة أو البردة وهى من
أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم(٤٧) .

وقد نقشت البردة على جدران مسجده بالاسكندرية ،
وللبوصيرى قصيدة أخرى همزية في مدح الرسول ، لا تقل عن
البردة في نصاعتها وجودتها (٤٨) وقد توافقت نفس البوصيرى
وطبائعه مع ما كان ينظم من قصائد في المدائح النبوية حتى انه
عندما نصرف في مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وبأشر بلبيس
قصبة الشرقية لم ترق في نظره هذه الوظيفة لما راه من خيانة
بعض العمال وسلب أموال الدولة فقال فيهم قصيدة مشهورة (٤٩) .

ومن الشعراء من نظم مدائحه على حروف المعجم مثل قصيدة
نظمها محمد احمد بن عبد الرحمن الكندي الدشناوى (٥٠) .

وهناك شعراء غلبت على شعرهم المدائح النبوية ، حتى ان
بعضهم نظم منها ما يزيد على الألفى بيت ، ومنهم من أوصى أن
تدفن معه مدائحه وحرص البعض على جمع تلك المدائح في مجلدات ،
حتى وجد في تركته سبعون مجلدا وقيل خمسة وتسعون .

والى جانب تلك المدائح النبوية انتشر ايضا الشعر الوجدانى
الصوفى الذى كان ينظم ارتجالا . على أن السلاطين والأمراء
أنفسهم كانوا محل اطراء ومديح من جانب الشعراء ، ولدينا الكثير
من الأمثلة على ذلك نسوق منها بعض ما قيل فى السلطان الظاهر
بيبرس عندما عبر الفرات وهزم التتار سنة ٦٧١ هـ (٥١) .

وكذلك حظى السلطان الغورى بمدح كثير من الشعراء -
كغيرة من السلاطين - وان كان هو ايضا اكثر السلاطين هجوا
وسوف نوضح ذلك فيما بعد ، ومما قيل مدحا فى هذا السلطان
قصيدة طويلة كلها مدح واطراء للسلطان الغورى ، وهو صاحب
مجالس الأدب ، حيث واظب عليها وحضرها العلماء والأدباء (٥٢) .

وكثيرا ما كان الشعراء يمدحون السلاطين والأمراء كلما انتهى
أحدهم من عمارة مسجد أو مدرسة أو خانقاه ، فقد نظم الشعراء
شعرا أشادوا فيه بذكر السلطان بيبرس في حفل افتتاح المدرسة
الظاهرية ، منهم الأديب أبو الحسين الجزار والسراج الوراق ،
والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب(٥٣) .

وقيل في مناسبة مماثلة في عهد السلطان الظاهر برقوق
عندما افتتح مدرسة بناها بين القصرين(٥٤) .

ونرى ابن اياس لايفوته ان يثنى على السلطان الغورى بعد
فراغه من بناء مصطبة بالحوش ليجلس فوقها للمحاكمات(٥٥) .

وان كان كثيرا ما لا يخلو شعر ابن اياس في السلطان الغورى
من هجاء او تندر ، وعندما سقطت إحدى منارات مسجد السلطان
حسن سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م) واعتبر الناس ذلك نذيرا بزوال
الدولة ، سارع الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن علي بن محمد
السبكي (ت ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م) ليجعل من ذلك بشير سعيد
للسلطان والدولة(٥٦) .

وفي رمضان من سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م) عندما احترق المسجد
النبوي الشريف بفعل صاعقة الحقت به خسائر كبيرة قال بعضهم
في ذلك شعرا(٥٧) .

ويقابل المدح في الشعر الهجاء ، فقد هجا كثير من شعراء
العصر السلاطين والأمراء ، بل هجا الشعراء بعضهم بعضا في
كثير من الأحيان وكثيرا ماتعرض الشعراء لسخط السلاطين أو
الأمراء نتيجة لما نالهم من هجاء ، حتى ان الشاعر جمال الدين

السلمونى قد دخل السجن عندما هجا قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ثم أفرج عنه السلطان الغورى فى رمضان سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٨ م .

واشتهر كثير من الشعراء بالهجاء حتى أصبح أحدهم يلقب بالخطبة لكثرة هجائه وأدبه السلطان لذلك ونغاه .

وقد ورد فى بعض الأخبار أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من عاقب على الهجاء ، وكان بعض الشعراء ينكرون الهجاء ويلومون أصحابه شعرا كما حدث للشاعر جمال الدين السلمونى عندما هجا القاضى معين الدين بن شمس وكيل بيت المال (٥٨) .

وكان القاضى معين الدين قد شكى السلمونى الى السلطان الغورى لهجوه اياه فأمر السلطان بتأديبه فوضع فى الحديد وسيق الى بيت قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة « وادعى عليه ، فضربه عبد البر وعززه وشهره على حمار وهو مكشوف الرأس .

ومع ذلك لانتصروا أن كل من هجا عوقب فكم من هجاء مقذع دون أن ينال صاحبه أدنى عقاب ، ويستبين لنا أنه فى هذا العصر قد أصبح القضاء والقضاة حينذاك محلا للتندر والنكتة ، بل لقد اتهم القضاء فى ذمتهم وقبول الرشوة اتهاما صريحا (٥٩) .

والواقع ان واقعة الشاعر السلمونى مع القاضى ابن الوكيل ما كانت لتستوجب ما ناله من عقاب بتلك الصورة المشينة من ضرب وتمزير وتشهير ، الا لأنه كما يفهم من المصادر كان كثير الهجاء حتى هجا القاضى عبد البر بن الشحنة نفسه واتهمه بكل كبيرة علانية دون موارد ، وكانت بينهما خصومة استغلها ابن الشحنة فى الانتقام منه ، وان كان السلطان الغورى له ميل وعناية بالسلمونى فى الباطن (٦٠) .

والمعروف أن السلطان الغورى كان عليلاً بعينه ، فلما اشتد عليه المرض « سامح أرباب المصادر بما عليهم من الأموال » ولم يتم ذلك بل عاد يطالبهم بها ، فكان ذلك محل تندر وهجاء (٦١) .

وقد تعرض الأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر لما أشيع . قتلته سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٣ م للسخرية والتهكم من جانب الشعراء الذين استغلوا هذا الذبذ أو هذا اللقب (٦٢) .

ولا يخفى ما فى تلك الأبيات من تورية ، وان كنا لنعجب ان معظم ما قيل من هجاء كان بعد موت من تعرضوا له ، خاصة اذا كانوا من السلاطين والأمراء .

ويبدو ان تلك هى طبيعة بعض الشعراء والأدباء وأرباب القلم فى كثير من العصور الذين يناون بأنفسهم خوفاً من تعرضهم للبطش والعقاب فيلجأون الى التورية فى كثير من الأحيان ، مستغلين مهارتهم فى اللعب بالألفاظ ، وقد أكثر شعراء العصر المملوكى من استخدام التوريات اللفظية واشتهر كثير منهم بذلك .

وقد ساعدتهم صناعتهم وألقابهم كثيراً فى ذلك كالمسراج الوراق والحمامى (ت ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م) وأغلبهم كما نرى من أصحاب الحرف الذين يميلون للنكتة ، وبدخولهم فى آفاق الشعر قد مزجوه بروحهم الخفيفة .

وكتب نصير الدين بن الحمامى الى المسراج الوراق ، وكان المسراج مقيماً بالروضة يتنزه شيئاً من ذلك (٦٣) .

واتسعت التوريات فيما عرف بالألغاز والأحاجى التى انتشرت فى ذلك العصر ، وهى « باب من أبواب الصناعة المعنوية (الاستعارة) والصناعة اللفظية (التورية) مع شىء من التعمية فى سياق المعنى » .

ومن طريف ما جاء فى ذلك قول ابن الصائغ فى الشيخ علاء الدين بن دقيق العيد مستغلا اسمه ، متندرا على ذقنه (٦٤) . ويدل ذلك من بعض الوجوه على أن تلك الروح الفكهة الخفيفة كانت منتشرة بين الناس فى العصر المملوكى ، وكل شىء تقع عليه أعين الشعراء والأدباء كان مجالا لتورياتهم والغازهم ، فمن ذلك ما قاله نور الدولة على بن أبى المكارم المصرى الشاعر (ت ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م) وهو يلغز فى كوز الزير (٦٥) .

وهذا اللغز من نظم محبى الدين بن عبد الظاهر ، وهو يستغل ماتعطيه كلمات (الأذن ، والحب ، والصب) من معان متباينة . وكثيرا ما يدور اللغز حول صفات الشىء آتيا بدلالات غير ما تعارف عليه الناس (٦٦) .

ولكن برغم هذه التعمية ، فإن الشاعر قد يضع بعض المفاتيح تعين على فهم اللغز حتى لا يصبح حله مستحيلا أو يخضع للتخمين . ومن هذا النوع أيضا ما قاله أيمن أبو البركات محمد ملغزا فى مقصص (٦٧) .

وهو يقصد بذلك جزأى المقص ويورى فى بعض كلمات ، وهى لاشك صورة تدعو الى التفكير واعمال العقل وهذا ما وجد الناس فيه تسلية ومنتعة .

والغز على بن محمد بن جعفر القنائى (ت ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م) حتى فى الكمون (٦٨) حتى اعضاء جسم الانسان كانت محلا ليث الألفاظ والأحاجى من جانب الشعراء فقال أحدهم وهو محمد بن جعفر القنائى (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م) ملغزا فى العين متضمنا تورية بعيدة بحيث يستشكل حله الا على من فطن (٦٩) .

وامتدت الألفاظ إلى المسائل العلمية من نحو وفقه إلى آخر ذلك من معارف العصر ، كما حملت الرسائل بين الأدباء وأهل الظرف كثيرا من هذه الألفاظ ولاظهار المقدرة والبراعة كان بعض الأدباء يجيب على اللغز شعرا .

ونورد هنا طرفا من هذه الألفاظ والأحاجي . لأنها بلا شك توضح جانبا من جوانب الترفيه التي سادت العصر المملوكي (٧٠) .

وبشيء من التأمل يمكن ادراك ما يقصده الشاعر من اختلاف حركات الكلمة وقراءتها طردا وعكسا . ولدينا نماذج من تلك المحاورات الشعرية نظمها أصحابها في شكل الغاز ، منها ما أنشده شمس الدين محمد بن الخضسر الحلبي بالقاهرة لابن حجر العسقلاني منسويا إلى علي بن عيسى بن محمد بن أبي المهدي الفهدي إذ يقول ملغزا في « مسك » (٧١) .

فرد ابن حجر بالجواب شعرا أيضا بذلك (٧٢) .

ولدينا نموذج آخر كتبه أحمد بن نصر الله بن باتكين القاهري محيي الدين (ت ٧١٠ هـ) ردا على ما كتبه إليه الحسين الجزار ملغزا في المشطرنج (٧٣) .

والغز الشيخ عبد القادر الدماصي (ت ٩١٥ هـ) في غزال وبعث به إلى الشهاب المنصوري (٧٤) .

وكان ابن الدماميني (ت ٨٢٧ هـ) قد ساق لغزا في الغزال أيضا (٧٥) .

وبمقارنة هذا بقول الدماصي ندرك مدى التوافق بين أفكار الشعارين واتفاق لغزيهما نصا ومعنى إلى حد كبير .

بتلك الطائف الأدبية سار هذا اللون من الوان الترفيه الذهنى. الذى رأى فيه الناس شحذا للكاتهم الفكرية ، وتدريباً لهم على ارتياد غوامض الأمور وفك رموزها ، فضلاً عما يتيح لهم ذلك من قتل الفراغ وامتاع النفس فالألغاز والأحاجى قد مثلت فى العصر المملوكى لونا ترفيهياً مهما شغف به عامة الناس وخاصتهم ولا سيما المتأدبون منهم ، ونادراً ما نجد شاعراً أو أديباً لم يخرب فى هذا اللون بسهم .

ولاشك أن ذلك لقى رواجاً - كما قلنا - بين طبقات الشعب ، وقد يكون شغف الناس بالألغاز مجرد التلهية وقتل الفراغ ، وقد يكون الانسان مدفوعاً بأسباب وجدانية فى نفسه تتمثل فى الرغبة فى الانتصار على المجهول واستجلاء الغامض .

ولا ريب أن تلك الوسيلة من وسائل الترفيه قد أسهمت فى نشر بعض معارف ذلك العصر بين جماهير الناس .

ولدينا أروع ما أنتج شعراً فى مجال الألغاز والمعميات فى العصر المملوكى ، وهو ما قصد إليه ابن سويون من نظم القصيدة الشعرية بشيء كبير من الطرافة ، معبراً عن ذلك برسم دوائر تحوى أبيات القصيدة مقطعة ويحتاج الأمر من القارئ الى كثير من الدقة والتركيز والتتبع ، حتى تتم قراءتها ، ويحصل بذلك الاستمتاع والترفيه مع شحذ الذهن واعمال العقل .

والواقع أن عصر المماليك كان فيه مما يشجع على هذا اللون من المعميات التى يمكن أن نشبهها اليوم بما تطالعنا به الصحف والمجلات من ذلك الذى نسميه الحروف المتقاطعة التى تجيء فى جداول وتعبّر عن كلمات ، وعلى القارئ أن يتتبعها ليعرف من أين يبدأ وإلى أين ينتهى .

وقديما حاول بعض الشعراء الاتيان بشيء من هذا فنظموا قصائد على ألوان من الطرافة فمناها ما يقرأ طردا وعكسا ، والمعنى هو هو لم يتغير وما من شك فى أن هذا ليس من اليسير بمكان ، فمن الصعب أن يكون البيت أو القصيدة كلها تقرأ طردا كما تقرأ عكسا والكلمات هي هي ، وكذلك المعنى هو هو .

ومن هؤلاء الشعراء من لجأ الى طريقة مثل طريقة ابن سودون غير انها كانت أيسر من طريقة ابن سودون ، فقد حاول بعض الشعراء القدامى فى هذه المعميات أن يجعلوا الأبيات على شكل مربعات أو مثلثات أو متقاطعات من حيث تبدأ يستقيم لك الكلام والمعنى وهذا ان بدا صعبا غير ميسور فانه بالقياس الى ما اتبعه ابن سودون بعد هينا يسيرا .

فقد نظم ابن سودون قصيدة على نمط يخالف تلك الانمط جميعا فجعل أبيات القصيدة تبدأ بحرف الهاء التى جعلها مركز الدائرة الكبرى وأحاط المركز بدوائر متشعبة تتبع كل دائرة دوائر أخرى وجعل فى الدائرة التالية للمركز مباشرة - الذى فيه حرف الهاء - مقسمة الى اقسام يشمل كل قسم حرف الياء وهو الحرف الثانى من الكلمة ، ثم جعل الدائرة التى تلى الدائرة الثانية مقسمة كذلك الى اقسام يحوى كل قسم حرفا وهذه الحروف مختلفة ، وهى تمثل الحرف الثالث من الكلمة ، وهكذا اتبع تلك الدوائر بدوائر أخرى متوالية مقسمة هى الأخرى اقساما يحوى كل قسم منها كلمة أو عبارة ، وبقراءة مافى هذه الدوائر نخرج منها آخر الأمر بتلك الأبيات التى تنتظمها .

ويبدأ القارئ بالمركز ثم يمضى صاعدا فى أى جدول شاء الى نهايته ثم يعود من الجدول التالى الى أن ينتهى الى المركز ثم يصعد ثانية من المركز الى الجدول التالى الى أن ينتهى الى نهايته حتى اذا ما بلغ نهاية الجدول رجع فى الجدول الذى يليه الى المركز

هيمما لى تمذر ايا عاذلى فتى
يهوى التفانى وجدا فى تواليه

هيل المتيم بعد الأمن منذ اقلت
أقماره فهو داهى القلب واهيه

هيهات يتعم بعد البين ذو شسجن
ان لم تكن ساعة اللقيا تواسيه

هى ساعة فى قدانيتها الحياة كما
فى بعدها الموت قد اضحى قرائيه

هى اذا رمت ان تلقى الهوى جادا
واب المنام فبئس الحب ابييه

هيب الغرام فكن ان حل ذا وجل
كم باسل منه داهى الطرف داميه

هيم اخى وخذل المنزل ذا شغف
بذكر اهيف زاكى الحسن وافيه

هيفاء قامتة حمراء وجنته
سوداء مقلته واهى اراجيه

ولعله بعد هذا يلمس جهد ابن سودون وكيف عنى نفسه نى
حبكها وكيف عنى القراء المجيدين فى حل هذه الاحجية • وتوى كم
من الوقت بذل ابن سودون فى تكوين هذه الدائرة على هذا النحو
لتستقيم له الأبيات التسعة ؟ لاشك انه بذل وقتا طويلا وجهدا كبيرا •

وما من شك فى أن الأبيات التى تنظم بهذه الطريقة لا يكون
المعنى فيها جد مقصود ولا تكون ذات غرض متكامل فى الغالب ، ولكن

تجىء أبياتاً شبه مستقلة ، كل بيت مستقل بمعناه ، بحيث يمكن أن يعاد ترتيبها حسبما تكون المشيئة فلا يتأثر المعنى، وأبيات ابن سودون التسعة وإن كانت قليلة فإنها تساوى ديواناً بأكمله من حيث الجهد المبذول فيها والعناء الذى تحمله صاحبها والوقت الذى بذله ، ولكنها على إيه حال متعة من المتع كان ذلك العصر الذى عاش فيه ابن سودون يتطلبها وينشد مثلها » .

مع أن ابن سودون لم يكن ليجهد نفسه فى كل مايقول دائماً على نحو ما فعل فى القطعة السابقة ، فقد نظم شعراً سهلاً ساذجاً يعتمد على ضروب من المفارقة والتباليه بذكر بديهات لا عمق فيها ولا معنى فكل ما يقوله قريب الى الحس ويجعل القارئ يشعر بما يشبه الصدمة بعد كل بيت لأنه يكاد لا يجد فيه معنى جديداً ، ولكن تلك الصدمة تدفعه للضحك دفعا أو على الأقل تجعل الابتسام يلم به على نحو ما نجد فى قوله (٧٦) .

ولدينا بعض محاولات الشعراء فى عصر الماليك حاولوا فيها نظم الشعر بحيث إذا حذف أعطى معنى مخالفاً فى غرض يختلف عما قيل فيه أولاً ، نسوق منها ما قاله شمس الدين محمد بن على المعروف بابن خطيب زرع (ت ٨١٠ هـ) الذى قال شعراً يقرأ مدحاً فإذا حذف كان هجواً (٧٧) .

ومنهم من نظم شعراً ليس فيه نقط كما فعل على بن عمر الهاشمى القوصى يقول فيها (٧٨) .

ولا يخفى ما يتطلبه ذلك من عناء وجهد لكى ينظم الشاعر نظماً ليس به كلمة واحدة بها نقط ، وذلك بلا شك يدل على البراعة وامتلاك ناصية الكلام حتى يستوى النص والمعنى معا .

والحق أن أدباء وشعراء العصر المملوكي قد شرحوا المجتمع المصري حينذاك وعبرت أشعارهم وانجالهم عن كل فئات المجتمع وثالت كل ظاهرة اجتماعية أو غيرها قسطا من اهتمامهم ، فكثيرا ما تهكموا على طبائع الناس وفئات الشعب الذين هم في الغالب قد نبتوا منه ، وعاشوا الناس في افراحهم واقراحهم ، ولعل ذلك هو ما جعل قولهم صورة واضحة الى حد كبير للمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (٧٩) .

ومن المعروف أن البخل والبخلاء على مر العصور كانا مادة للظرفاء في كل عصر ، يهتبلون الفرصة دائما لاضحاك الناس على البخلاء ، ويشيع ذلك جوا من السرور والمرح بين الناس وكان ذلك ما حرص عليه شعراء العصر المملوكي .

ولا شك في أن نهر النيل وما ارتبط به من فيضان أو نقص ، كان محلا للشعراء فافردت فيه للقوائد الطويلة وما عرف عند الشعراء بمقطعات النيل فكانوا يتتبعون حال النيل زيادة أو نقصا ، وعبروا عن ذلك في اشعارهم أحسن تعبير ، وارتبط بنهر النيل احتفال مهم ، يجري كل عام يحضره السلطان أو من ينوب عنه والأمراء ، وأصبح ذلك مجالا واسعا للأدباء والشعراء ، وقد ازدحمت المصادر المملوكية بأمثلة عديدة مما قيل في النيل وتعلق الناس به (٨٠) .

وكان الناس يفرحون بوفاء النيل وتعم الفرحة أرجاء البلاد وتكتب بذلك البشائر الى الأقاليم ويبيت الناس أحيانا والسلطان بالمقياس ، وتقام هناك مباحج وأسمطة ، وكان حد الوفاء للنيل ست عشرة ذراعا يخشاه الناس أن تعداها كثيرا. أو نقص عنها (٨١) .

وقال أحد الشعراء فى النيل طرفة ، تخيل النيل فيها شخصا يتحدث الى الناس ومن يستغل ماينجم عن نقصانه من غلاء ورفع الأسعار ، وفيها نقد وتهكم لهته الشريفة من الناس (٨٢) .

ولم يتوقف الأمر ببعض الشعراء عند نظم الشعر فحسب ، بل كان منهم من ينشده «بنغمة طيبة ، وصوت شجى » . وبرغم أن كثيرا من الشعراء قد عاش على مدح الأمراء يكسبون بذلك حياتهم ووجودهم فانهم ربما كانوا مأخوذين الى حد ما بما حمل لواء هؤلاء الأمراء من كفاح وجهاد .

وتشير المصادر الى أنه كان من الشعراء من لايقول الشعر « الا لصلبة أسباب المودات ، لا لمواصلة الافادات » ، كما جاء على لسان بعضهم ، كما ترفع البعض منهم عن وظائف الدولة فى ديوان الانشاء .

وكان منهم من عرف بحامل لواء الشعر فى عصره ، - ابن نباتة - وأطلق على آخر وهو تقى الدين بن حجة (ت ٨٣٧ هـ / ١٤٣٤ م) شاعر العصر ، وقد أصبح من ندماء السلطان المؤيد شيخ الحمودى وشاعره ، ومنهم من برع نظما ونثرا فى أن واحد فكان يملئ على جماعة « يملئ على هذا نصف بيت ، وعلى آخر وثالث ثم يكمل للأول ثم للثانى ثم للثالث ، بحيث يسبق بنظمه كتابة المستملئ » كما حظى الشعراء بحب السلاطين وتقديرهم ، فقد كان السلطان الظاهر ططر (٢٨٤ هـ / ١٤٢١ م) « يحب انشاد الشعر بين يديه لا سيما باللغة التركية » .

ولم يقف الأمر عند تقدير السلاطين والأمراء للشعراء ، والافساح لهم فى مجالسهم ، بل نظم بعض السلاطين والأمراء

الشعر ، فنجد أحد الامراء وهو أحمد بن موسى بن يغمور السمهودي
(ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م) ينشد لنفسه ويدعو الى الفضيلة ومحاسن
الخلق ، فتدور فكرة ابياته حول الكرم و غرض الطرف عن كل معيب
وصون العرض وستر ما يكون من نقصان عند الناس(٨٣) .

وحدث أن مدح شهاب الدين أبو العباس الشهير بابن القرقور
(ت ٩١١ هـ / ١٥٠٦ م) السلطان قنصوه الخوري بقصيدة طويلة
فلما سمعها السلطان ابتهج وقرأها بنفسه علي من حضر وكافاه
عنها بقصيدة من نظمه وجهزها اليه(٨٤) .

وهكذا كان بعض السلاطين ينظمون شعرا بالعربية وكذا
الامراء ما يدل على حُبهم للشعر وتقديرهم للشعراء في عصرهم .

وظهر في العصر المملوكي الى جانب الشعراء شاعرات أدبيات
!جدن الشعر ونظمه نذكر منهن مؤنسة بنت الشيخ محمد بن علي
ابن البيطار المقرئ(٨٥) .

ومنهن كذلك عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر ، وهي بنت
الباعوني المعروفة بالباعونية (ت ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) وقد برعت
علما وشعرا .

ويبدو أنه كان لدى الناس في عصر الماليك اعتقاد في منفعة
الشعر في درء الأمراض وحفظ النفس والدين والمال . وان كان ذلك
لا يرجع للشعر في حد ذاته انما يرجع في تصور أهل العصر الى
محتوياته(٨٦) .

هذا ويقول أبو الفدا المؤرخ المعروف أنه لما سمع هذا أنشد
مثله ينفع - حسب قوله - لحفظ النفس والدين والأهل والمال(٨٧) .

وهذا الاعتقاد لا يصبح أن نحكم عليه بمقاييس عصرنا نحن فإنه
غير مقبول ولا مستساغ ولكن يبدو أنه بمقاييس عصره كان متصورا

ومقبولا حتى من جانب المتنورين ولا أدل على ذلك من أن الراوى هو رجل مؤرخ له مكانته وسعة أفقه التى لا ينكرها أحد وهو أبو الفدا صاحب المختصر فى أخبار البشر .

ومع ذلك فان هناك من يعظم الشعر ويصف شعراء العصر بأنهم متشاعرون أى من مدعى الشعر وهم ليسوا أهلا له ، كما يصف شعرهم بالجنون (٨٨) .

وأنشد محمد بن محمد بن الجبلى الفرجوطى (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م) شعرا يسخر فيه من أحد الشعراء ويصفه بالجهل وسوء النظم (٨٩) .

ومع أن هذا القول قد ينم على تعال وظلم لكثير من الشعراء فانه يبدو أن صاحبه كان مدفوعا بما يلمسه من ركافة وضعف فى المعانى فى انتاج الشعراء ، خاصة أن بعض الشعراء كانوا أميين – وان أجادوا – ومنهم ابراهيم بن على بن خليل الأديب الشاعر أبو اسحاق الحرانى المعروف بعين يصل (ت ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م) .

وقد قيل مثل ذلك فى بعض الفقهاء مثل شمس الدين بن عوض (ت ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) وكان له طبع الفلاحين يتحدث بلهجتهم ويرتدى زيهم (٩٠) .

والقائل هنا استخدم التورية فى كلمتى « الدرس والدراية » وكل منهما من أعمال الفلاحة المعروفة .

وعلى النقيض من ذلك فان بعض الشعراء قد رثى أحد العلماء وأشار الى خلو مكانه فى المجالس والمدارس ويشيد بخدمته للعلم (٩١) .

ولعل ذلك يدل على أن الشعر بكل فنونه لم يكن متخلفا في عصر سلاطين المماليك ، ولا جامدا ، ذلك لأن إنتاج الشعراء في ذلك العصر كان يتمتع بشكل عام بروح شعرية عالية وكثير من المعانى المبتكرة .

وهكذا أدت مجالس الشعر والأدب في عصر المماليك وظيفتها في نشر الثقافة والترفيه على الناس في ذلك العصر الذي كان الناس فيه في أشد الحاجة لمثل هذه الوسائل الترفيهية نظرا لظروف المجتمع في ظل ذلك العصر .

أما مجالس الشراب والطرب وما تعلق بها من أمور اللهو والمجون فقد استحوذت على اهتمام الأدباء والشعراء في العصر المملوكي ، وهذا هو ما سوف نتحدث عنه في الفصل التالي .

هوامش الفصل الثاني

(١) على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ الممالىك إلبحرىة القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٤٢ ومن هؤلاء القاضى همس الدين ابراهىم بن القىسرائسى الذى كتب تفوىض الخافىة الحاكم بأمر الله أمور البلاد للسلطان الناصر محمد سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣م ، وشهاب الدين محمود الحلبى الذى كتب تفوىض الملك المنصور لاجىن سنة ٦٩٦ هـ وكذا القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر الذى كتب نص تفوىض الخليفة المستكفى بالله أمور البلاد للسلطان بىبرس الجاشنكىر سنة ٧٠٨ هـ .

(٢) هو القاضى مجد الدين اسماعىل بن ابراهىم بن محمد بن على بن موسى قاضى القضاة ، وكان فكه المحاضرة له ىدنو النظم والنثر وله دىوان شعر فى مجلد ومنه .

ان كنت يوما كاتباً رقعة تبغى بها وصول الطلب
اياك ان تغرب الفاضلها فتكتسى حرفة أهل الادب
(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج ٧ ، ص ١٦) .

وىقول :

لا تحسبن الشعر فضلاً بارعاً ما الشعر الا محنة وخیال
فالهجو قذف والرثاء نباحة والعذب ضعف والمديح سؤال

(٣) موضوع المناظرات قديم فقد رأينا فیه شيئاً عند الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فى وصف الكتاب وفى الموازنة بين الربىع والخريف وبين الديك والكلب (فى كتاب الحيوان) .

(٤) وما نظمه القاضى علاء الدين :

يترب لولا التراب بجسمه لم تبصر الابصار منه منظر
فكأنه بدر عليه سحابة والتراب ليل من سناه قمر

وكان الذى نظمه فخر الدين :
ومترب تربت يسدا من حازه
فكسان طرقة ونسور جبينه
وكان الذى نظمه الثالث .

ومترب قد ظن ان جماله
فغدا يضحكه فزاد ملاحه
وكانما الجسم الصقيل وتربة

(٥) ويقول :

ان انتصارك بالاخوان من عجب

(٦)

ادخلت فى منخره اصبعي
فقال لى مستعجلا : منخرى

(٧) وانشد لنفسه ..

ومتد لزمت الحمام صرت فى
اعرف حر الاشياء وباردها

(٨) ويقول :

رب راو عن النبى حديثا
قال قال النبى قولا صحيحا
فقهمت الذى النار اليه
قال لى يا اديب انت فقيه

فاجابه الوراق :

ان فعلا جعلته انت قولا
قابين منه مضارعا يظهر الخا
وتراه يبدو لعينك مقبلا
وهو فعل لم تاته انت يا شيطان

(٩) حيث قال :

اكافيك عن بعض الذى فعلته
بعثت خنودا مع نهود واعينا

كقضيبي تير ضسمخوه بعنبر
ليل اطل على صياح انور

سيصوته منا يترب اعفر
اذ قد حوى ليلا بصيح انور
كاثورة لطخت بمسك انفر

وهل رأى الناس منصورا بمنكسر

وقلت : ماذا العضو سمي
قلت : انا ياسيدي فيه

خلا يد ارى من لايداريه
واخذ الماء من مجاريه

سند ثابتا كاملا فصيجا
قلت قال النبى قولا صحيحا
وسمعت الذى رواه صريحا
قلت لا قال حزت ذهنا مليحا

ليس فيه يحتاج منك وضوحا
فى ويبدو الذى كقبت صريحا
وقد قلت فيه قولا صحيحا
فالفهم مقالتي تلويحا

لان لولانا على حقوقنا
ولا غرو ان يجرى الصديق صديقا

(يقول :

هوه لمن يدعى زلايية واتهم للوز نسبيته
وهو تشبيههم والاب برقوق فان اسم ابيه نصفه قوق

(منها أيضا : انه دخل الى المدرسة فرأى الشيخ نجم الدين
خارجا من الطهارة فقال يامولانا أنتم محكم فقال له الشيخ
ن قبحك الله .

(فيحكى عن أحدهم وهو الشاعر الحسين بن مسد بن هبة الله
المعروف بقطينة الاسفوني « انه طلع الى المصلى يوم عيد الاضحى
نبه شخص فلما ذكر الخطيب قصة الذبيح ، بكى ذلك الشخص
فالتفت اليه قطينة فقال له : ما هذا البكاء الطويل ؟ أما سمعت في
ضى أنه سلم وما اصابه شيء ؟ » .

(من المعروف ان فنون الشعر كما يحددها اهل الادب : هي الموشح
، والسلسلة والموالي والزجل ، وكان وكان ، والقوما .

(منها :

الصب المعنى هل لكما فى تلاقيه بوعيد مظمع

(يقول :

فى هواه ولا أبالى ملامنا
ت فى طلب الوصال غرامنا

(قال أحدهم وهو معتمد بن فضل الله بن ابي الرضى ابن الكاتب
لديب الشاعر فى موشح اوله :

بنا فى السقم كالعندم
الزسم كل فتاك او مرثف ابن تركى
الريح ريح المسك من كدر وضنك
والطيش يستخف منه الهموم تهرب
ولو اتت فى الف

انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٠٩) .

(١٧) قيسارية جهاركس . بناها الامير فخر الدين جهاركس الناصري
الصلاحى سنة ٥٩٢ هـ وكان اتبر امراء الدولة الايوبية ، وموضعها الآن
مشغول بالمبانى المشرفة على شارع المعز لمدينه
(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ،
حاشية ٢) .

(١٨) حيث يقول .

ياليلة الوصل وكاس العقار . دون اسبار ، علمانى كيف خلع العذار

اغتنم اللذات قبل الذهب
وجر انيسال المسيا والتسباب
واشرب فقد طابت كؤوس الشراب

على خدود نبت الجلفار ، ذات احوار ، طررها الحسن باتس العذار

الراح لا شك حياة النفوس
نجل منها عاطلات الكؤوس
واستجلها بين الندامى عروس

تجلى على خطابها فى ازار ، من النصار ، حبابها قام مقام المنثار
(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ٣٤٠ -
٣٤٥) .

(١٩) الدوبيت مأخوذ من الفارسية والكلمة فارسية مركبة من مقطعين ،
المقطع الاول « دو » ويعنى اثنين ، والمقطع الثانى وهو « بيت » ويعنى هذا
الشطر من الشعر فالكلمة تعنى فى الفارسية المزدوج أو بمعنى آخر الشعر
الننائى .

(انظر ، محمد البقلى ذ الاوزان الموسيقية فى ازجال ابن سودون ،
القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٨٢) . وقيل الدوبيت نوع من المواليا ، وقال ابن
خلدون « كان لعامة بغداد أيضا فن من الشعر يسدونه المواليا ، وتحتة فنون
كثيرة ، يسمون منها . القوما ، وكان ماكان) ودنه مفرد ، ومنه فى بيتين
ويسمونه : دوبيت .

(انظر ، الادقوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٢٣ ، حاشية ٢) .

(٢٠) يقول :

من بعد فراقكم جرت لى أشياء لا يمكن شرحها ليوم القيا
كم قلت لقلبي بدلا نال بمن والله ولا بكل من فى الدنيا
هو محمد بن جعفر بن حجون القنائى ، وهو فقيه شاعر توفى سنة
٧٢٨ هـ .

(انظر الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٠٥ ، ٥٠٦) .

وقال آخر فى دوبيت :

يا غاية منيتى ويا مقصودى قد صرت من السقام كالمفود
ان كان بدت منى ذنوب زلفت هبها لكريم عفوك المعهود
(انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٢٣) .

(٢١ ، ٢٢) ابن سودون : هو نور الدين ابو الحسن على بن سودون العلانى
البشباغوى ولد بالقاهرة سنة ٨١٠ هـ ، وكان أبوه قاضيا بمصر ، اشتهر
بالمزجل والشعر توفى بدمشق سنة ٨٦٨ هـ .

(٢٣)

والشمس والنجوم والقمر ان لاح خيالها بماء النهر
والشمس رغيف والنجمات بيوض والبدر كقرص جبن جاموسى طرى

(٢٤) حيث يقول :

ياناصرى سهم عزك فى العدى مرشوق
وانت منصور ومن حنت اليه النوق
اصبر فما دامت الشدة على مخلوق
غدا يجىء الخوخ تذهب دولة البرقوق

(٢٥) يقول :

ايبك تظن يعقبو بييرس ذو الاكمال
بعندو قلاوون بعندو كتيغا المفضال
لا جين بييرس برقوق شيخ ذو الافضال
ططر برسباى جقمق ذو العلا اينال

(٢٦) ابن اياس ، بدائع الزهور . ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٦ .
يقول :

وخلقتهم عنه قل	يلبى ذوالاقوال
تمر بغا قيتيبي	به الفحل ذوالاقبال
وقنصوه جنبيلا	ط خذ عنهما الاقوال
وبعده جاء طو	مان بى بالاقبال
وبعده قانصوه	الغورى ابو الاهوال
وبعده صار طومان	بى فى جبل جبال
وأما سليم شياه	خادم سعده عمال
ومذ ولى الملى	أعى امره الابطال
وانه بسعده فى	غاية الاكمال
وبعده احمد الباشا	بسيفو جبال

(٢٧) يقول :

سلطاننا لو محاسن فيه موصوفة	ولو مواكب لها أوقات معروفة
مذ خف عنو الرمذ بالطاق محفوفة	أوكب لها أوقات مصر محفوفة

(٢٨) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٧ .
يقول :

البيدر والسعد ذا شيبوك وذا نجمك
والقند واللحظ ذا رمحك وذا سسومك
والبفضض والحبيب ذا قسسمى
والمسك والحسن ذا نمالك وذا عمسك

(٢٩) يقول :

رأيت فى النوم غسل والموز فيه قد عام
كأنو سمك فى يرك والقلب لوقه هام
طلبت حيا أمسكو استنبهت أه مسادام
ضحكت على بقيت أبكى عنيه ماأسمام

(٣٠) ومنها :

انا احب الكنافة فى شراب نوفر
ولو رموا فوقها قستق على سكر

ألا تكن فى طبق والصحن ان فشر
وقال لك ملك ملىح قل ذا ملىح واكبر

وقال ايضا :
التور والبقرة دى العام ومن قبله
فى مصر والشام وفى غزة مع الرمله
هذيك تحيل وتولد عجل او عجله
ودك فى السقيا ياكسل بفرقله

جا يجور او يزيد
ويكون الرشيد

منعتنى من قريها
منك فلم تبخل بها

من لى معين
يا مسلمين
قلبى حزين
لا معيره
فى القنطره

من العساكر حين سافر حماه
فانتقى النبول ماه وريو حماه
لدورة المحمل يسوقوا الحيا
يردوا الخارج وأهل العناد

ان هسحبى والقرب ياتونى
ان تايست بالعجز يرمونى

(٣١) يقول :
جار حبيبي فقلت : ذا الحجاج
لو عدل عشت يوم مسرور

(٣٢) حيث يقول :
طلبت منك جوزه
وكم طلبت زوجة

(٣٣) وقيل
وقالت الفيلة امراتو
سهم الفراق قد اصاب قلبى
ونا غريبة هندية
وكان هذا الفيل زوجى
واليوم كان آخر عمرو

(٣٤)
سلطاننا الاشرف خرج فى اربعين
ومن حلب عدى يروم الفسرات
فى مصر فرسان اربعين بالعسد
ورعبهم ساكن قلوب الملوك

(٣٥)
اعتذارى للى سمع قولسمعسى
يقصدونى ويطلبوا فسسى

استحي أن أظهر ضعيف نظمي
والذي أبى النجا العوقى
استر العيب وأربح ثواب ستري

(٣٦)

أهل فنى تجاوزوا
تغنموا الأجر والثواب
الحسود قسط ما يسود
وعليش يحسدوا أديب
يابن زيتونسى مشتهر

(٣٧)

وما الشعر مما أرتضى كنيته
ولا قلته كى أبتغى بمقاله
ولكن دعتنى شيمة مضرية

(٣٨)

وجمالسى نسيب لزيتونسى
ان تجد عيبا فيما أقول حاضر
جل من لا فيه عيب وهو الخافر

وأسرروا العيب والزائل
والحسود عقلو فى خييل
والحسد ان عدل قتل
ناسب النظم فانتسب
نجل عوفى اذا انتسب

لعمرى ولا وصفى به فى المحافل
هنالك أن اجزى عليه بتائل
الى قوله معروفة فى القبائل

الشاعر الفقيه محمد بن على بن

بطيخة جل قدر باريها
أو غسل أو رضاب مهديها

فاعدته بالنصر يوما أبيضاً
جعل الذكور من الاعادى حياً

توصل للقلب غايبة الراجبة
تبذل ان اسم تساعد الراجبة

مساكين الولدان والحنور
من كل محسود ومقصود
من كل مسموع وعصفور
وكل حسويه ودرزور

فقد اهذى شخص الى أحدهم وهو
عبد الوهاب الادفوى بطيخة فنظم يقول :
أهدى لنا من تحبه كرماً
كأن من سكر حلاوتها
وقال آخر فيما يكتب على السيف :

أنا أبيض كم جلت يوماً أسوداً
ذكر إذا ما أنسل يوم كريمة

(٣٩) حيث يقول :

مأهنية النفس غير مروحية
تجور ولكسن بمسعد ولقسد

(٤٠)

ياحيذا الميسدان من جثة
أغصانه هب عليها الهوى
أطياره فى دوحها غردت
وكل من ضاحك مطسرب

(٤١)

ان المليحة والمليح كلاهما
والروض فتصت الصبا اكامه
ومدامة تجلى الهموم فبادروا

(٤٢) ومنه :

العز يدرك ولكن ان شامته
واقما حبة القلب التي احترقت

(٤٣)

وخلبي من العرب الكرام سألته
اذا ابن الذي تمشى الملوك امامه

(٤٤)

لسو وشى فيه من وشى
انا قد بحث باسمه

(٤٥)

قلبك اليوم طائر
كيف يرجسى خلاصه
ولما بلغه انه تركه كتب يقول :

خلصت طائر قلبك العانى الذى
ولقد يسر خلاصه ان كنت قد

وقال احدهم فى مليح اسمه مالك :

ومليح قلت مسال
قلت صفا لى وجهك اليزا
قال كالبندر وكالفص

حضرًا ومزمار هثاك وعود
فكانه مسك يفسوح وعود
واستغنموا فرص الزمان وعودوا

مسروقة من دجى صدغيه والغسق
فى حبه علقت للظلم فى العنق

لمن فى الورى تغرى فقال مؤنبي
اذا ماراوه راكبا يوم موكب

ما تسليت غلمشا
يقعل الله ما يشسا

عنك ام فى الجوانح
وهو فى كف جارح

من جارح يفسدو به ويروح
خلصته منه وفيه بسروح

ك حبيبي قال مالك
هسى وصف حسن اعتدالك
سن وما أشبه ذلك

(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٣٩) .

(٤٦)

ديار مصر هسى الدنيا ونسائها
ياصن يياهى ببغداد ودجلتها

هسى الأنام فقابلها بتقبيل
مفسر مقدمة والشرح للنيل

(٤٧) يقول :

أمن تذكر جيران يذى مسلم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

مزجت دمعاً جرى من مقلة يدم
وأومض البرق في الظلماء من اضم

(٤٨) وأولها :

كيف ترقى رقيق الأنيباء
لم يداتوك في علاك وقدحنا
انما مثلوا صفاتك للنساء
انت مصباح كل ضوء فما تصد

يا سماء ما طاولتها سماء
ل سنا منك دونهم وسناء
س كما مثل النجوم المساء
لدر الا عن ضوءك الاضواء

(انظر ، جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ١٥٩) .

(٤٩) وأولها :

نقدت طوائف المستخدمينا
فقد عاشرتهم وليئت فيهم

فلم أر فيهم رجلا اميننا
مع التجريب من عمرى سئيننا

(٥٠)

أبيت سوى مدح خير الورى
بروحى صفات تحلى القريض
تعين القريحة أنى ونبت
شراء الغيد امتداح البشير
جمعت السرور لسرى به

فأصبح نظمى وثيق العورا
وتسببكه ذهباً أحمررا
وتبرز الفاظها جوهرا
فهمها اطرا المدح فيه طرا
فأضحى به العيش لى أخضرا

(٥١) وهو :

الملك الظاهر سلطاننا
اقتحم الماء ليطفى به

نفديه بالامسوال والاهل
حرارة القلب من الغسل

(انظر ، ابن المراد ، شذرات ، ج ٥ ، ص ٣٣٣) .

كما مدحه محبى الدين بن عبد الظاهر ، عندما استولى على حصن عكار
بقوله :

ياملك الارض بشمسحرا
ان عكار يقيننا هسى

ك قسد نلسست الارادة
عكسار وزييسادة

(٥٢) ويقول ابن اياس

بالاسرف الغسورى المنسدا

أصبح ثغر الزمان باسم

ياقائصوه العلي قـدرا
فكل يوم تراه عيدا
فقت على من مضى وقـادم
بـه قـاوقائنا مواسم

ومما قيل في مدح الملك الاشرف برسباي بعد فتح قبرص :
بشراك ياملك الملوك الاشرف
فتح يشهد الصوم ثم قتاله
قالت وما تلك البلاد وقد عفا
انجيلهم اهلا باهل المصحف
يفتح قبرص بالحسام المشرفي
من اشرف في اشرف في اشرفي

واستمر حتى قال .

لم تخلف الايام مثلك فاتكـا
ملكـا ومثلي شاعرا لم تخلف
(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج ٧ ، ص ١٨٧) .

(٥٣)

ويقول ابو الحسين الجزار في هذا المقام :
الا هكذا يبني المدارس من بنى
لقد ظهرت للظاهر الملك همة
تجمع فيها كل حسن مفسرق
ومن يتغالي في الثواب وفي الثنا
بها اليوم في الدارين قد بلغ الثنا
فراقت قلوبا للانام واعينا

وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب في ذات المناسبة :

قصد الملوك حماك والخلفاء
انت الذي امرؤه بين الوري
ملك تزينت الممالك باسمه
وترفعت لعلاه خير مدارس
فافخر بان محل الجوزاء
مثل الملوك وجنده امراء
وتجملت بهديحه العصماء
حلت بها العلماء والفضلاء

(٥٤) ويقول :

قد انشأ الظاهر السلطان مدرسة
يكفي الخليلي ان جاءت لخدمته
فاقت على ارم مع سرعة العمل
هم الجبال له تسعى على عجل

والخليلى هذا هو الذى كان يباشر عبارتها .

وقال السراج الوراق ايضا :
ملك له في العلم حب واهله
فشيدها للعلم مدرسة عمدا
قلبه حب ليس فيه سلام
حراق اليها شبيق وشمام

(انظر الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٤٩٩) .

(٥٥) يقول :

قد جسد الأشرف سلطاننا
رخامها شبيهت ألوانه
يجلس للموكب من فوقها
فأق ملك القرك فيما مضى

(٥٦) يقول :

أبشر قسعدك ياسلطان مصر أتى
ان المنارة لم تسقط المنقصة
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت

(٥٧) منه :

لم يحترق حرم النبي لريية
لكنما أيدي الروافض لامست

(٥٨)

وشاعر قد هجا شخصا فحل به
فأشهره وجازوه بفعلته

مصنعية أوصافها تحكته
جواهر في عقد مشتيكه
يظهر في احكامه فتكته
ولم يضاها ملكهم ملكته

بشيره بمقال سار كالمثل
ولكن لسر خفى قد تبين لى
نألوجد في الحال أداها الى الميل

تخفى عليه وما به من عار
تلك الرسوم فظهرت بالنار

من حاكم الشرع نوبخ وتعزير
تباله شاعر بالهجو مشهور

(٥٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٢ ، محمود رزق سليم ،
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ، القاهرة ١٩٤٧ ، ج ١ ق ٢ ،
ص ٨٥ .

الى جدال بحكم غير منفصل
جهرا ويقبل سرا بعة الجمل

قاض اذا انفصل الخصمان ردهما
بيدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها
وقال آخر :

صفات قاضينا التى تطرب
يتسم يقضى بالهوى يكذب

ياأيها الناس قفوا واسمعوا
يلبوط يزنئ ينتشى يرتشى

(انظر ابن اياس بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

(٦٠) ومما قاله :

ولم لا وعيد البير قاضى قضاتها
يرى انه حل على شبيهاتها
بخسل وبرم مظهرا منكراتها

فشا الزور فى مصر وفى جنباها
اذا جاءه الدينار من وجه رشوة
أجاز أمورا لاتصل بملسة

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١١٣ ، ١١٤ ، محمود

رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٥) .

(٦١) قال ابن اياس :

سلطاننا مذ كان في ضعفه
فمذ شفاه الله من دالسه

يمنحنا عدلا واحسانا
اجسدث ظلمنا فوق ما كانا

(٦٢) قال :

اوردت نفسك ذلا
وبالرفضا حزت حالا
وكم عليك قلوب

ورد النفوس المهانة
مالت منه الخزانة
ياحمص خضر ملانسه

وقال فيه ايضا :

جنتت بالملك لما
وقد امنت الليالى

اتسناك بالبسط مساجن
ياحمص اخضر وداجن

وفيه يقول بعضهم مداعبا وقد رجع من سفرة :

لما رجعت اليئنا
خلناك تحنو علينا

من بعد ذا البعد والبين
ياحمص اخضر بقلبين

ويقول آخر .

طوى الردى طشتمر بعد ما
عهدى يدكان شديد القوى
الم تقولوا حمصا اخضرا

بالغ في دفع الاذى واحترس
اشجع من يركب ظهر فرس
تعجبوا بالله كيف اتدرس

(٦٣) قيل :

وكم ترودت للباب الكريم لكى
وانثنى خائبا فيما اومله

ابل شوقى واجيبى مبت اشعارى
فانت فى روضة والقلب فى نار

(٦٤) قال :

لعلاء الدين ذقن
فاعمل المنخل منها

تملا الكف وتفضل
(لدقيق العيد) وانخل

وقال احدهم موريا :

واختتم احاديث الهوى بيننا

ففى خلال الروض نمام !

والتورية هنا فى لفظ « نمام »

الذى ينقل الحديث الى من لا يجوز

نقله اليهم كما يعنى نوعا من الازمار ،

كما نلاحظ التورية ايضا فى كلمة

« من » فيما يأتى :

.

ياعاذلى فيه ، قل لى
يمر بى كل حنين
عن حبه كيف أسلو ؟
وكلمنا مر يطسو
(انظر ، عمر فروخ ، تاريخ الادب العربى ، ج ٣ ، ص ٦٢١)

(٦٥) حيث يقول :
وذى اذن بسلا سسمع
اذا استوى على صب
له جسم بسلا قلب
فقل ماشئت فى الصب

(٦٦) قال فى رمح :
ماعجوز كبيرة بلغت عمرا طويلا
قد علا جسمها صفار ولم تشك
ولها فى البنين قدر وسهم
وتبتغيها الرجـال
سقاما ولو عراها هزال
وبنوها كبار قدر نبـال

(٦٧)
نحن محبان ما رأينا
فمن يصل بيننا نبادر
فى الصب أشفى من العناق
يقطعه خشية الفراق

(٦٨)
يا أيها العطار اعرب لنا
تبصره بالعين فى يقظه
عن اسم شىء قل فى سومك
كما ترى بالقلب فى نومك

(٦٩)
ومحبوبة عند المنام ضممتها
لنيذة ضم لا اطيق فراقها
احس بها لكذنى ما نظرتها
ورب ليال فى هواها سهرتها

(٧٠) يقول ابن الشقيقة المحدث نجيب الدين ابو الفتح نصر الله
(ت ٦٥٦ هـ) ملغزا فى الواو واليم والنون :

اوله أخـره
ثلاثه حروفه
ان شئت ان تعكسه
وبعضه جميعه
وواحد مجموعه
فانت تستطيعه

وقال : علاء الدين ابو الحسن
يا اماما فى النحو شرقا وغربا
ايما اسم قد جاء ممنوع صرف
(ت ٩٢٥ هـ) ملغزا فى النحو :
من له باب سره المكنون
واتسى الجرفيه والتنوين

وأجاب هو عنه بقوله :

علم كان للمؤنث جمعاً
وقال في اجابة على بعض فضلاء النحو :

سألت جمع زين فيه يكون
عندى سؤال من يجبه يعظم
واذا جزمت فاننى لم اجزم
جزمت ومعناها التردد فاعلم
وتعت ولكن شرطها لم يجزم
(انظر ، ابن العماد ، بذرات ، ج ٥ ، ص ١٣٧) .

كذلك يقول سيف الدين المشد ملغزا في كلمة « فرح » :

ما اسم اذا ما فتحت آخره
وهو حبيب لمن تأمله
أصبح فعلا مقلوبه حرف
وليس فيما شرحته خلف
(انظر : فوزى أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ، ص ٢٣٠ .

(٧١) يقول :

كتبت رموزا ولم تكتبوا
فما اسم جرى ذكره فى الكتاب
ففيها مصحف مقلوبية
وليست بغادية فافهموا
لهذا (كهذا) الذى سببه واضحة
فان شئتم فاقروا الفاتحة
يجبر عن حالة صالحة
ولكنها أبدا رائحة

(٧٢) حيث يقول :

قرانا الكتاب جهارا وقد
وجدناه من قبل تصحيفه
وسل قبل تسع قبيل البروج
بتغيير ثانيه مع قلبه
تبدي له السر فى الفاتحة
سهل له سببه الواضحة
يرى ثم كالانجم اللاتحة
ومع حذفه ثم بالرائحة
(انظر ، ابن حجر : الدرر ، ج ٣ ، ص ٩٣) .

(٧٣) هو يقول :

وماشء له نفس ونفس
يود به الفتى ادراك سؤال
وهى طويلة فاجاب محيى الدين بابيات منها :
لقد اهديت لى لغزا بديعا
واحكمته درا نضيرا
فحسب اللفز خمسان ثلاث
ويؤكل عظمه ويحك جوده
وقد يلقي به مالا يوده
يضل عن اللبيب لديه رشده
يشغف مسمعى بالدر عقده
للفزك ان ترد لى احنده

(٧٤) يقول :

مولاي ما اسم لوحش ناقر انسى
حروشه اربيع لكنها عجب
فاجابه الشهاب المنصوري :

مولاي الغزبت فيما ناب عن قمرى
فالبعض لام حكمت لامات سالفه

(٧٥) حيث يقول :

ان من قد هويته
فماذا زال ربعه

(٧٦) حيث يقول :

البحر بحر والنخيل نخيل
والارض ارض والسما خالفها
واذا تعاصفت الرياح بروضة
والماء يمشى فوق رمل قاعد

(انظر (شوقى ضيف ، الفاكهة فى مصر ، ص ٩٤) .

(٧٧) حيث يقول :

التاج بالحق فوق الراس يرفعه
فضلا وبذلا وصنعا قاضرا وسخا
وتصديفه يكون هجوا كما قال :

الباخ بالخف فوق الراس يرقعه
فضلا ونذلا وضيعا فاجرا وسخا

(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج ٧ ، ص ٩٤) .

(٧٨) منها :

اطاع مسمعه الاصم ملاما
كلا واحسور كالمهاة مصارم
واعد عام وصالة لك ساعة
امحرما ومسيلا اراه محلبلا

فى ماربى منه اشياء جمعت فيه
ان زال اول حرف زال باقيه

جيذا او حاكى سوادا فى اماقيه
وبعضه قد غزا فى الله باقيه

محبستى فى وقوفه
زال باقىسى حسروفه

والفيل فيل والزراف طويل
والطير فيما بينهن يجول
فالارض تثبت والقصون تميل
ويبرى له مهما مشى سيلول

اذا كان فردا حوى وصفا مجالسه
واسال الله بيقيه ويخرسه

اذا كان قردا حضوى وضعامخالبه
فاسال الله ينقيه ويخرسه

ام هل نراه اعاره الماما
كل اطاع له هواه وهامما
واعد ساعة صده لك عاما
ومعسلا مسيدا اراه حراميا

(٧٩) ففي البخل قال بعضهم :

يفنى البخيل بجمع المال مدته
كدودة القز ما تبنيه تهدمه
وللحوادث والايمان ما تدع
وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

وعرف السلطان الغورى بالبخل حتى قال فيه البعض :

لا تعجبوا ان سعى كريم
فانه كالخلاء حتما
لحاجة فى يدي بخيل
لا يد فيه من الدخول

ومن اطرف ما قيل فى البخل والشح .

ورب جار لنا شحيح
أعظم شئ تراه منه
ليس له بالجميل عادة
مساكم الله بالسعادة
(انظر ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩٨) .

(٨٠) ومما قيل فى وفاء النيل :

قد وفا النيل رابعا عشر مسرى
جاء فى وقته اذا قلت اهلا
فملا بشره قلوب العباد
بحبيب قد جاء فى الميعاد

قال بعض الشعراء فى ذلك .
قد قلت لما تزايد نيلنا
يا نيل يا ملك المياه باسرها

وقيل فى نقصانه :

تقاصر النيل عنا
حتى قنعنا اضطرارا
تقاصر المتتابع
منه بمص الاصباح

(٨٢)

النيل قال وقوله
فى غيظ من طلب الغلا
وعيونهم بعد الوفا
اذا قال ملء مسامعى
عم البلاد منافعى
قلعتها باصابعى

وقال بعضهم :

كان النيل ذرفهم ولب
فياتسى عند حاجتهم اليه
لما يبدو ولعين الناس منه
ويمضى حين يستغنون عنه

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٦) .

(٨٣) يقول :

حسلا من الاكرام والاحسان
لتطا وزد في كثرة الكتمان
متحليا بمحاسن الايمان

اذا حللت ديار قوم فاكسها
واغضض ودين طرفا وفرجا واحرنز
تكن السعدين مبيلا ومعظما

(٨٤) يتول مطلعها

مديحا به اثنى عليه واحمد
ويثبت دعوى حبنا ويؤكد
وهى طويلة ايضا ووصفت بانها احسن من الاولى .

اجاد لنا القاضي ابن فرفور احمد
وقاضي قضاة الشام جاء يزورنا
وهى طويلة ايضا ووصفت بانها احسن من الاولى .

(٨٥) ومما قالته :

تعيد بهم عند انقضاء المجالس
رجعت بمأمول من الفضل ايس
شبيهة التصاوير التي في الكنائس

مودة شراب السلاف مدانة
اذا جئتهم يوما ارفع ملامة
لهم صديحة لاروح فيها تانها

(٨٦) هذان البيتان منسوبان للامام الشافعي (انظر ، ابو الفدا ،
المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١٤٠) .

ومن ذلك ما قيل لحفظ البصر :

بما استعاذ به اذ خافه البصر
يشير يوسف قانهب ايها الضرر

يا ناقري بيهتوب اعينكمما
قميص يوسف الناد علي بصرى

(٨٧) يقول ابو الفدا :

وروت الركب بساء طاهر
ذريتي وباطني وظاهري

امرت كفا سبحت فيها الحصى
على معاشي ومعادى وعلى

(٨٨) ابن حجر ، الدرر ، ج ١ ، ص ١٢٢ . ١٢٣ . وقائل البيتين هو
احمد بن الحسن بن الدمشقي مجد الدين بن الخياط ، له ديوان شعر في
عدة مجلدات (ت ٧٣٥ هـ) .

فيقول .

اقل صفات شعرهم بالجنون
وقافية وما شاعت تكون

وفي مقترعري عصرى اناس
يظنون القريض قيسام وزن

(٨٩) فيقول :

وقرط جاهل أنه يشعر
يحدث من فيه ولا يشعر

والماعر يزعم من غيرة
يصنف الشعر ولكنسه

(٩٠)

لنا به الدهر غلظ
هكذا من النخل سقط

ورب قصف قد اتسى
سالت عنه قبيل لسي

وقال آخر في المعنى :

برعت في العلم والرواية
تعلم للدرس والدراسة

فقيه ريف يقول : انسى
فقلت : لاشك انت عندي

(٩١) يقول ابو الفدا في هذا المعنى وهو يرثى ابن جملة :

لك يا ابن جملة حين فاجاك الردى
خدم العلوم جزاؤه أن يصعدا

بكت المجالس والمدارس جملة
فأصعد الى درج العلا وأسعد فمن

* * *

الفصل الثالث

مجالس الشراب والطرب

غناء ٠٠ موسيقى ٠٠ رقص

مجالس الشراب

الواقع أنه مع تطور فنون الطرب ووسائله وانغماس الناس فيه من ذوى الجاه والشأن فإن ذلك أدى الى الامعان فى الاستزاده من المتعة والتلذذ ، فارتبط الطرب بمظاهر ترفيحية أخرى مصاحبة كالشراب وغيرها ، فأصبحت تقام مجالس للشراب والطرب ، تدار فيها الكؤوس بالخمير ، ومايصحبها من لهو ومجون .

وتشير المصادر الى اهتمام حكام المسامير على مر العصور بعقد مجالس الشراب والطرب وأسرفوا فى ذلك حتى جاهر الناس بالشراب ، وقيل ان أحدهم اتخذ بركة فى قصره كان يملؤها خمرا ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويشرب منها ، ويظل هكذا حتى يظهر النقص فى البركة .

وعلى الرغم من ذلك فإن نفس المصادر تشير الى أن بعض خلفاء المسلمين لم يشربوا الخمر ، ولم توضع على موائدهم .

وأصبحت مجالس الشراب والطرب من الأمور المألوفة فى العصور الوسطى ، فقد شغف بها كثير من حكام مصر ، حتى عصر المماليك الذين اظهروا بذخا كبيرا فى هذه المجالس ، فقد اعتادوا أن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغانى فى داره .

وآدى ذلك ببعض سلاطين المماليك الى تقريب أرباب الموسيقى والغناء الى مجالسهم ، وكانوا اذا سمع أحدهم بمغن ، أرسل فى طلبه ، وكلفه بتعليم جواريه الغناء ، كما فعل الناصر بن قلاوون مع المغنى كتيلة بن قرانغان ، الذى تخرج على يده كثير منهم ، وكان حسن الطرب بالجنك العجمى .

وكذا فان الأمير تنكز قرب اليه المغنى عمر بن خضر بن جعفر بن زاده المدشتى جمال الدين ابو سعيد ، وجعله يعلم الجوارى عنده . وعندما علم الناصر بخبره استدعاه اليه ورتب له راتبا .

ورغم هذا التلازم بين الشراب والطرب فقد عوانا على أن يظهر كل منهما على حدة ، حتى يكون ذلك أدعى للتركيز ، ولأن كلا منهما يستحق أن يفرد له مكان بمفرده ، وهو ما سار عليه البحث فى هذا الفصل .

وعرف عن المماليك اقبالهم على اللهو والطرب ، فهذا الملك السعيد محمد بن الملك الظاهر بيبرس (٦٧٧ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٨ - ١٢٧٩ م) - بعد أن أرسل جيشا الى سويس - أخذ الى الراحة « وأخذ فى اللهو والمعب » ومايجرى فيهما من مسرة وشرب وغناء مما يدل على انتشار تلك المجالس حتى أصبحت مجالا للشعراء وظاهرة لا يمكن تجاهلها(١) .

وقد دعا الأمير سيف الدين على بن سابق الدين قزل المعروف بالمشد (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) الى معاقره الشراب وحضور مجلس شرابه وطربه ، واصفا اياها بأنها تخفف الهموم ، مؤكدا ذلك بتجربته الخاصة ، وهذا هو يصف الساقى فى هذه المجالس بما يتفق مع الموقف(٢) . وله كذلك نظم فيمن يشربون الخمر وقد سماهم أهل الهوى يصفهم وهم ساهرون(٣) .

وانتشر هذا اللون من الشعر وصفا لمجالس الشراب والطرب
واللهو حتى بلغ الأمر بأحد الشعراء أن يجمع لكتابا ضمنه شعرا ونثرا
فى الخلاعة والمجون سماه « الزرجون فى الخلاعة والمجون » (٤) .

وكان المماليك بطبيعتهم يقبلون على الشراب ، حتى أصبح ذلك
من عاداتهم المرعية حتى السلاطين كانوا يشربون الخمر مع أمرائهم
وعرف من أنواع المشروبات ، شراب القمز أو القراقمز ، وهو عبارة
عن لبن الفرس المحمض وقد عرف المماليك شربه فى موطنهم الأصلي
ويعتقد أنه كان غير معروف فى مصر قبلهم والبوظة أو البوزة ،
وهى تصنع من الدقيق أو التمر أو غيرهما ، وتلك قد عرفوا شربها
من مصر .

كما شربوا أيضا المزر ، وهو شراب يتخذ من الذرة ، ويبدو
أنه كان منه نوعان ، فقد وجد نوع منه يصنع من القمح عرف بالمزر
الأبيض ، وكان العامة يشربونه ، حتى ان اثمان القمح كانت ترتفع
أحيانا بسبب ذلك مما دفع بعض الولاة الى كبير أواني الشراب .

ويبدو أن شراب المزر هذا هو (البوظة) فليل ان أهل
السودان بمصر كانوا يصنعونه ، ويعرف عندهم بالمريس ، حيث
ان المنطقة التى كانوا يسكنون بها - بين القاهرة ومصر - كانت
تعرف بهذا الاسم .

ومنع النساء من أن تتعمم وتتزيى بزى الرجال ، وحبس
المفسدات حتى يتزوجن وعم المنع مصر والشام ، فظهرت جميع
البقاع ، وعندما وصل المرسوم بذلك الى الاسكندرية ، قال القاضى
ناصر الدين بن المنير قاضى الاسكندرية فى ذلك شعرا به تورية
لطيفة (٥) .

وقد وصل الأمر بالسلطان الظاهر بيبرس الى أن يصب أحد
شاربي الخمر يدعى بابن الكازرونى ، ليكون عبرة لغيره ، وكان ذلك
التشدد مثارا لتعليقات الشعراء ، فكان منهم المستحسن ومنهم
المتهم فى خبث .

هذا وان كان الظاهر بيبرس قد استدعى الأمير عز الدين
الدمياطى فى جمادى الآخرة سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م - بعد أن أفرج
عنه - وشرب معه القمز وحضر ذلك أكابر الأمراء .

ويبدو أن شرب الخمر كان منتشرًا حتى بين المسنين ، فهذا
قطب الدين عبد الحق بن سبعين المرسى الصوفى وكان فيلسوفًا
(ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م) كان يشرب الراح يستر شيبته بخضاب رأسه
ولحيته .

وتشير المصادر الى أن السلطان الظاهر بيبرس - ان قبل موته
قد عقد مجلسا لشرب القمز فى الحرم من سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧١ م
وعظم سروره وفرحه ، فأكثر من الشرب ، وبعد انقضاء المجلس ،
توعك وظل حتى مات .

ولعل السلطان بيبرس كان يرى أن شراب القمز ليس خمرا
- مع انه مسكر - بدليل انه كان يواظب على شربه هو والأمراء ،
حتى فى أيام منع المنكرات .

وكما قال الشعراء فى الخمر ، قالوا فى الحشيش ، فمنهم من
ينكر تحريمه ومنهم من يذمها (٦) .

وكان السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ -
١٢٩٣ م) يميل الى شرب الراح وحب الملاح .

والسلطان المنصور لاجين الحسامى (٦٩٧ - ٦٩٨ هـ /
١٢٩٧ - ١٢٩٨ م) عرف عنه فى صباه أنه انهمك فى الشرب « حتى

صار وهو بدمشق يعاقر أعيان أهلها وينعم في مجالس اللهو عليهم .
وكان من عاداته أن يصطحب معه في سرحات الصيد أرباب الملاهي ،
هذا وان كان لاجبن قد شدد نهيها بعد في منع المحرمات وحد نهي
الخمير بعض أولاد الأمراء ، حتى أصبح يصوم رجب وشعبان ،
ويقوم الليل ويكثر من الصدقات .

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فقد أمر في جمادى
الآخرة سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م بإدارة الخمارة بدار ابن جرادة ،
ويقصد بها حانة الخمير والفسوق فظهرت الخمور والفواحش
« وضمنت في كل يوم بألف درهم » .

ويبدو أن الحشيشة كانت منتشرة في عهد السلطان الناصر
محمد بن قلاوون حتى ان احد الشعراء ، وهو احمد بن الثقفي
(ت ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م) يسوق شعرا موضحا مضارها وأثرها
السييء على متعاطيها (٧) .

هذا وقد أبطل في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون
الاحتفال بعيد الشهيد (٨) ، عند النصارى ، حيث أقام الأمير بيبرس
الجاشنكير في إبطاله ، وكان يباع في ذلك اليوم من الخمير « بنحو
مائة ألف درهم ، حتى انه في سنة ياع رجل نصراني بمائتين
وعشرين ألف درهم خمرا ، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من ثمن
الخمير .

وكان من عادة الممالك كذلك أن يقدموا في بعض المناسبات
مشروبات بريئة الى الناس عبارة عن شراب السكر والليمون الذي
يجهز في أحواض لهذا الغرض ، كما حدث عند قدوم السلطان من
الشام بعد هزيمة التتار في شوال سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م وزينبت
القاهرة ، كما كان يقدم مثل هذا عادة بعد الأسمطة .

ويبدو أن السلطان الناصر محمد هو أول من رتب المواكب بالقصر الكبير وشرب السكر بعد السماط ، وسار على ذلك من جاء بعده من السلاطين .

وتشير المصادر الى أن أهل الأدب كانوا أكثر الناس ميلاً للشرب والطرب فقل أن عبد الرحيم بن محمد بن يوسف السهمودي (ت ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م) وكان ظريفاً خفيف الروح « جارياً على مذهب أهل الأدب في حب الشرب والشباب والطرب » .

ولعل كثرة ما قيل من نظم في الخمر يدل على ذلك ، حتى قال أحدهم وهو الأديب ابن بيلبك المحسنى (ت ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م - في الخمر أبيات ماجنة يصف فيها الساقى والخمر (٩) .

ولعل ذلك يدل على أن شرب الخمر كان منتشرًا ليس في القاهرة وحدها بل كان كذلك في الأقاليم .

وكان بعضهم يفاضل بين الخمر والحشيش ويفضل الخمر على الحشيشة (١٠) .

وفي فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ، حدث في بغداد مثلما حدث في القاهرة في عهد الظاهر بيبرس ، من تنويب الخواطي وتزويجهن « حتى لم يبق في البلد خاطئة » ، وأريق الشرب « حتى لو صب في دجلة لفرق بغداد كثرة » ، كما منع الناس من عصر العنب ، ونودي « أن من تخلف عنده شيء من الشرب يكون ماله ودمه للسلطان » وقيل قتل بسبب ذلك جماعة .

ويبدو أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلاً ، فسرعان ما كان الناس يعودون الى سابق عهدهم في الشرب ، حتى أنه في عصر السلطان الكامل شعبان (ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م) اضطر الأمير

سيف الدين أرقطاي الذى عين نائبا فى حلب أن يبطل الخمر
والفجور « بعد اشتهاها » .

أما السلطان أبو بكر بن الناصر محمد ، فلم يبق فى الحكم
الا شهرين الا يوما (٧٤١ - ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١ م) حيث
خلعه الأمير الكبير قوصون نائب السلطنة لفساده وشربه الخمر ،
ونفى هو وأخوته الى قوص ، وتولى أخوه احمد بن الناصر محمد ،
الذى خلعه هو الآخر لاشتغاله بملذاته وانعكافه على اللهو وبقي
بقلعة الكرك حتى قتل سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ليتولى أخوه الصالح
اسماعيل ورغم انه قد سار من قبل على صراط مستقيم ، فأنسه
افتتن بالملك وشغف بحب الجوارى .

وفى عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد الذى تولى
الحكم سنة (٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م) فقد خربت بلاد كثيرة
على الرغم من قصر فترة حكمه ، ويرجع ذلك « لشغفه باللهو ،
وعكوفه على معاقره الخمر وسماع الأغاني » .

والسلطان المظفر حاجى بن الناصر محمد فقد « انعكس مزاج
الناس عليه بلعبه واقباله على اللهو والشغف بالنساء » .

وكان السلطان الناصر حسن يحب اللهو والطرب ، ويميل
الى شرب الراح وحب القيان من النساء الملاح .

هذا وذكر أن الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى قد « انهمك
على شرب الخمر ، وسماع الآلات والزمور ، واشتغل بذلك عن
أمور المملكة ، فخلعه الأمير يلبغا العمري وسجنه بدور الحرير
بالقلعة واستمر فى لذاته فكان فى مدة سجنه بالقلعة « يسلى نفسه
عن إيلك يشرب الراح وسماع المغاني ومشاهدة الملاح ، فكان
لا يصحو من السكر ليلا ونهارا » .

والسلطان الظاهر برقوق الذى عرف عنه عدم رغبته فى اللهو والطرب كان « بعض الأوقات يوم الأحد والأربعاء ، يشرب القمز مع بعض خواصه من الأمراء ، لاجل انشراح صدره وانهاج غمه »

وفى سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م من عهد السلطان الظاهر برقوق ، أحدث الأمير تمبرغا المنجلى شرابا من الزبيب ، يعمل لكل عشرة أرطال من الزبيب أربعون رطلا من الماء ، ويدفن فى جرار بزبل الخيل أياما ، ثم يشرب فيسكر .

« وصار يقال له التمبرغاوى » وأقبل السلطان على الشرب منه والامراء ولم يعرف عنه أنه يتعاطى المسكر قبل ذلك .

وفى عهد المنصور عبد العزيز ، تولى الاتاىك بييرس أمور السلطنة مع عدم أهليته لتصرف أمور الدولة « لانهماكه فى اللذات ولا تعكفه على اللهو والطرب عمره كله ، لا يميل لغير ذلك ، ومنذ مات خاله الملك الظاهر برقوق لم يدخل بنفسه فى أمر غير هذا المعنى المذكور(١١) .

وكان السلطان الناصر فرج مسرفا على نفسه منهماكا على شرب الخمر وسماع الزمور . وفى سنة ٨٠١ هـ / ١٢٩٩ م عاد السلطان فرج الى قصوره بعد أن ركب للعب الكرة « فعكف على شرب الخمر » ، وكان يخرج للتنزه الى بر الجيزة ويطلع الى القلعة « كل ذلك وهو لا يملك نفسه على فرسه ، من شدة السكر وكان يستقبل زواره وهو فى مجلس شرابه ويشربون معه .

ومن أن لآخر درج شعراء العصر أن يصفقوا لنا مجالس الشراب . والقائمى عليها ، فهذا أحدهم وهو على بن أيبك بن عبد الله الدمشقى الشاعر (٨٠١ هـ / ١٢٩٩ م) يسوق لنا نظما .
فى هذا المجال(١٢) .

هذا وقد اقبل العامة على شرب الخمر ، لذا فقد ارتبط بذلك انتشار بعض الخرافات ، والاعتقادات المتعاقبة بها ، كما هي عادة العوام فى سرعة انتشار مثل ذلك ، فقد قيل انه اجتمع رجالان من العوام بدمشق فشربا الخمر ، فأصبحا محروقين دون أثر للنار فى غير بدنهما ، وبعض ثيابهما ، وانتشر ذلك بين الناس فاقبلوا أفواجا لرؤيتهما للاعتبار .

ومهما يبدو فى مثل هذه الروايات من سخافة ، وبعد عن الواقع فانها توضح لنا جانبا مهما من حياة الناس فى ذلك العصر ، فبرغم الاقبال على شرب المنكرات وتفشيها ، فان الناس لم ينسوا ذلك الوازع الدينى والضمير الحى الذى ينكر ذلك .

ويستمر الشعراء فى وصف الخمر وشاربيها والقائمين على سقايتها فهذا محب الدين أبو الوليد محمد (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) ابن الشحنة يتغزل فى الساقى غزلا مكثوفا ، ويبدو ان ذلك كان من طبيعة العصر ، حيث كان الساقى يتمتع بشغف الشاربين ورواد المجالس ، ويظهر أن السقااة كانوا يختارون من ذوى الجمال وحسن السميت (١٣) .

وأدى انتشار الخمر بهذه الصورة الى ان بعض القضاة (١٤) اثناء مباشرتهم أعمالهم لم يتورعوا عن اراقة الخمر وازالة المنكرات ، وقد يتعرضون نتيجة لذلك لتعصب البعض عليهم ، وقد يصل الأمر الى عزلهم .

والغالب أن منع الخمر والمنكرات كان مرتبطا بما يحدث من أزمات كانت البلاد تتعرض لها ، فكان المعاصرون يفسرون تلك الأزمات والايوثة التى تحل بهم فى ضوء فساد الناس وخروجهم

عن طاعة الله واسرافهم في المعاصي مثل شرب الخمر وغير ذلك
لذا نجد ان الدعوة الى التوبة الى الله تعلق في اوقات تلك الازمان
فيسارع الناس الى اراقة الخمر ، والبعد عن السيئات ، عسى
ان يكشف الله عنهم الغمة ، وذلك مثلما حدث سني ٧٠٩ و ٧٨١ ،
٨٢١ و ٩٢٢ فقد منعت الخمر وحرم تعاطيها في انحاء البلاد .

ولكن كما سبقت الاشارة فان تلك الاوامر لم تكن ليستمر
مفعولها طويلا ، اذ لا يلبث ان يعود الناس الى سابق عهدهم .

وقيل انه في عصر الأشرف قايتباي قبض على شخص وهو
سكران في رمضان فضرب بالمقارع وشهر به في القاهرة . كما
أخذ رجل آخر سكران وهو يشرب الخمر في النهار « فضرب الحد
وطيف به ، فثار به عامة الصليبية فقتلوه ثم أجبوا نارا فلقوه
فيها » .

وفي عهد الأشرف قايتباي ايضا قبض الوالى على جماعة
من المماليك الأروام وهم يشربون الخمر في نهار رمضان فضربهم
وأشهرهم في القاهرة ثم سجنهم .

أما السلطان المؤيد شيخ الحمودى فكان يميل الى شرب
الراح ، ففى عهده « الزم التاج الوالى بالقاهرة اليهود والنصارى
بحمل الخمر فوزعت على الأسارى وغيرهم » .

وعرف عن السلطان الظاهر ططر عفته عن سائر المنكرات .
وكذا السلطان الظاهر جقمق ، فقد كان على خلاف من سبقوه من
السلطين ينفر بطبعه من اللهو والمجون والطرب .

وتشير المصادر كذلك الى ان السلطان الناصر محمد بن
قايتباي « وكان امتقيا في نفسه ، لم يشرب قط خمراته ، ولا كانا

يستعمل شيئاً من الأشياء المخدرة » • وله اشتغال بالعلم كثير .
المطالعة في الكتب •

أما السلطان قنصوه الغورى ، فلم تشر المصادر انه شرب
خمرا - برغم كثرة متنزهاته ومجالسه - بل نودى فى عهده « بقنع
الخبز والحشيش والبوزة ومنع النساء الخواطى من عمل الفاحشة
واستمر يشهر المنادة بذلك ثلاثة أيام متوالية » • بل لقد أمر
السلطان الوالى بما فحواه « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران
فاقبض عليه • • »

ويبدو ان ذلك كان أيام تزايد الطاعون ، وكان ذلك مما تعارف
عليه الناس فى ذلك العصر كما سبقت الاشارة •

وحكى أن أحد الشعراء مر على قوم جلوس للشرب ، وكان
معروفا لهم ، فدعوه عندهم يذاكرهم ، وبينما هم كذلك ان جاء
جماعة الوالى فأخذوهم وأخذوه معهم ، فلما عرضوا على القاضى
عرفه فوجه اليه اللوم (١٥) •

وكان السلطان الغورى مغرماً بتقديم الفاكهة والحلوى
لمجالسيه وكذا شراب السكر والليمون مع انه كان مغرماً بالطرب
والغناء وهذا ما سوف نوضحه فيما بعد •

واعتماد المماليك بعد رمى القبق ان يدعى الأمراء والمشترون
لشرب سكر مذاق وهم جالسون فى خيمة تقام خصيصاً لهذا
الغرض ، فيمر السقاة على الأمراء بالأوانى المصنوعة من الذهب
والفضة والبلور • أما الاجناد فتشرب من أحواض قد يبلغ عددها
المائة حوض •

وقد كان لبعض السلاطين مضحكون ، يضحكونهم فى
مجالسهم ومحافلهم فكان للسلطان الغورى نديم يضحكه يدعى

« الشنقجي العجمي » يلعب بالصحون النحاسية والجريد ، كما أن
الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه في مجالسه .

ويبدو أن هذا التقليد قد استمر بعد عصر الماليك حتى
العصر العثماني بدليل أنه وصلتنا تصويرة من مخطوط المهرجان
« سور نامه » مدفوفة بمتحف طويقا بسراي ، تمثل السلطان أحمد
الثالث في مجلس طرب وأنس يحضره بعض المضحكين يبدون في
أسفل الصورة ، وهم يقومون ببعض الحركات المضحكة .

وبلغ من اهتمام سلاطين الماليك بمجالس الشراب
ومستلزماتها إلى أن أنشأوا دارا ضمن الدور السلطانية تعرف
بالشراب خاناه « يعين لها موظف من الامراء يدير شئونها من يعرف
بشاد الشراب خاناه يختار عادة من بين امراء المثين أو امراء
الطبخاناه ، وهو المسئول عن الأصناف الواردة إلى خزانة الشراب
من السكر والفواكه والحلوى والشراب ونحوها .

وبلغ من أهمية هذا الموظف ما يوضحه قول ابن اياس عن
متولى هذه الوظيفة في عهد الناصر محمد فيقول « فلما بقى شاد
الشراب خاناه اجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد
بالديار المصرية ، وصار السعي لأرباب الوظائف من بابه ، وعولت
الناس على اشغالها في رد جوابه .

وقد نال هذا الموظف رعاية السلاطين ، فحظى بانعاماتهم ،
فالسultan الأشرف قايتباي « قد أنعم على برفوق شد الشراب خاناه
بتقديمه ألف » ثم كان هناك موظف آخر يختص بالشراب خاناه وهو
مهتار الشراب خاناه (١٦) ، وهو يرأس طائفة الشراب دارية وهم
الغلمان المكلفون بالخدمة في تلك الدار .

هذا وقد ورد فى المصادر المعاصرة أن السقاة الذين يوكل اليهم أمر المشروب ، عليهم النصيح حسبما تقتضيه وظائفهم ، وعلى الساقى أن يراعى أمرين :

الأول : الا يحضر لمخدومه منكرا يشربه ، وعليه أعمال الخكر والحيلة فى سد هذا الباب وابعاده عن الأمير بقدر طاقته ، وله فى ذلك أن يكذب أما اذا كان الأمير جبارا فعليه التوسط ودفيع المنكر ما أمكنه خاصة فى الأوقات التى يجلس فيها الأمير للحكم بين الناس خشية ان يحكم وهو سكران .

الأمر الثانى : هو ان يحفظ حقوق مخدومه والخشبية عليه من أن يدس له فى المشروب ما يهلكه من سم ونحوه . ويقال ان جماعة من المماليك السقاه قتلوا مخدوميهم لأغراض الدنيا ، فلم يحصلوا على شىء مما أملوه .

ومع ذلك فإن لدينا خبرا مؤداه ان السلطان الناصر قتل الأمير بكتمر بالسم والمعروف أن بكتمر كان هو ساقى الملك الناصر .

وتجدر الاشارة الى ان مجالس الشراب - كما اشيرنا فى البداية - كانت مرتبطة فى غالب الأمر باسباب الطرب من غناء وموسيقى ورقص أحيانا فقديما قيل : ان « غناء بلا شراب كنهلة بلا عطية ، وهدية بلا نية ، ورعى بلا مطر ، وشجر بلا ثمر ، وحداء بلا بعير ، وروضة بلا غدير . قال الرشيد : النكس الذى يشرب على غير سماع .

ذلك ما كان يجرى زمن سلاطين المماليك ، فكثيرا ما صاحب الشرب غناء ، ولهو ومجون فى بعض الأحيان ، وان كان بعض السلاطين قد عقدوا مجالس للطرب خالية من الشراب الا غير

مسكر ، كما وجد من السلاطين من لم يعاقر الخمر ، ومع ذلك كان مولعا بمجالس الطرب غناء وموسيقى .

ولوحظ كذلك - من خلال المصادر - اقتران اسماء كثير من الشخصيات فى العصر المملوكى بمجالس الطرب أكثر من اقترانها بمجالس الشراب .

ولعل ذلك هو ما أوجب أن يفرد للطرب حديث يتناول مجالسه وهو ما نعرض له فيما يلى .

مجالس الطرب :

قيل فى الطرب والأسباب الباعثة عليه انه ما استفز الانسان من الفرح والحزن ، وليس يختص بالغناء وحده ولا بالملاهى ، بل يستفز الانسان للشعر والحديث ولذكر الجود وللمواضع الحسنة ، ولكل منظر رايق وحديقة مونقة . ومنه ما يعرض عند الخوف ، وذكر الموت ، والفجيرة ، والنعى والفراق ، والصلة السيئة ، ولقاء المحبوب .

فلكل حاسة من حواس الانسان ادراك ، وان فى مدركات كل حاسة ما يستلذ ويكره ، فلذة حاسة البصر - مثلا - « فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن ، وسائر الألوان الجميلة وهى فى مقابلة ما يكره من الألوان الكدرية والقبيحة » .

الغناء :

أما الطرب للغناء ، فطرب كل انسان على ما يوافق ، ويأتى على ما فى نفسه « وكأما علت معرفة الانسان بالغناء قل طريقه ، لقلبة ما يعجبه وإطلاعه على الخلل والزلل والنقص والتبديل » .

وقيل : فضل الغناء على الكلام كفضل الكلام على الخرس .
ويرى البعض أن الالحان ، والموسيقى ، - وهي مصاحبة للغناء - ليس الهدف من وضعها الالتئاذ بسماعها فحسب ، وإنما قصد بها ضروب من المداواة والسياسة والتخيل « لاحالة البخيل الى السخاء والساخط الى الرضا والقاسى الى الرقة ، والجبان الى الشجاعة ونقل النفس من حال الى حال » .

وقال حجة الاسلام ابو حامد الغزالي (رضى الله عنه)
الطرب يسوق النفوس الى موطنها الاصلى ، فاذا انساقنا
النفوس الى موطنها طلبت عنصرها ، فيعقبها عن ذلك البدن الكثيف
فتهوى راجعة ، وهو غناء الأرواح وله أثر فى البدن . . .

وحدث أن أحد المطربين مر على جماعة من مثله ولما غنى
عليهم أطربهم وتغيرت أحوالهم بتغييره عليهم حتى ضحكوا ضحكا
شديدا ثم غير عليهم فبكوا بكاء شديدا واستمر بغير عليهم حتى
تاموا جميعا .

وتلك الرواية تشير الى استخدام آلات الطرب مع الغناء ،
وأن من تلك الآلات ماكان معقدا ، كما توضح أثر الطرب فى النفوس
فمنه المضحك ومنه المبكى ، والنوم ، ويتوقف ذلك على مهارة العازف
والمطرب ، وتهيئة نفوس السامعين ، وقيل الرقص (سبب فى تحريك
السرور والنشاط) و« اظهر » السرور بالانغمات والشعر والرقص
والحركات محمود » .

وما من شك فى أن وسائل الطرب ومجالسه ، قد اخطت
باهتمام الناس على مر العصور ، فلكل عصر وسائله فى تحقيق
الطرب وان تشابهت فى معظم العصور ، مع اختلاف اقتضائه سبته
التطور ، وأفرزته المدينة والتحضر .

وكان المماليك يقبلون على الاستمتاع بالحياة ، وخصوصا ان مصر بغناها وثروتها جعلت نفوسهم تميل نحو الابتهاج بالحياة لذلك اقبلوا على الملاهى وأحاطوا أنفسهم بأربابها . فكان بعض السلاطين يميلون الى سماع الموسيقى والغناء ، وأقاموا لذلك المجالس الحافلة والليالى الملوكية النادرة .

وقد ذكر ان أصول الملاذ (اللذات) فى الدنيا ثلاثة ، وقيل أربعة وهى « الأكل والمشروب ، والنكاح (المنكوح) والمسموع الطيب ، والمنظر الحسن ، وهى بمصر أكمل من غيرها » .

وكما شغف السلاطين المماليك ، شغف ايضا الناس فى ذلك العصر بسماع الموسيقى والغناء ، ومما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة فى ذلك العصر ، تشجيع السلاطين واغداقهم على المغنين والمغنيات ، ثم انتقال الأغاني الى الناس عن طريق السماع ومع ذلك كان هناك من ينفر من الغناء ولا يحضر مجلسه (١٧) .

وتطالعنا المصادر المعاصرة بأخبار بعض السلاطين والأمراء الذين اضطهدوا المغنين والمغنيات ، كالملك الظاهر بيبرس الذى أمر سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م باغلاق الحانات ، ولاسيما ماكان منتشرا منها بالاسكندرية ، وكذا أرباب الملاهى والخلاعة والمجون ، حتى ضاقت بهؤلاء سبل العيش ، فى عهده وقل عددهم ، واستراحت البلاد من مفاسدهم .

وقد ضرب هذا السلطان المثل فى السلوك والقذوة ، حتى انه فى حفل ختان ابنه الامير نجم الدين خضر سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٥ م لم يقبل من أحد هدية ، ولا مقدمة ، ولم يبق من يشمله احسانه من سائر الطوائف الا المغانى وأرباب الملاهى ، فانه لم تنفق لهم فى طول أيامه سلغته ولا نالهم منه رزق البتة .

ولاشك في ان الألمان تكسب النشاط والحركة ، وانجاز الأعمال في أيسر مدة ، وأدرك سلاطين الماليك ذلك فحدث انه عندما خرج السلطان المنصور قلاوون الى جهة البحيرة ، لحفر البحر المعروف بالطيرية من أجل منقعة البلاد ، وياشر العمل بنفسه هو وأولاده ومماليكه واستأجروا جماعة ممن أظهروا الهمة ، وحضر اليه جمع غفير من الناس بالطبخانات « وحضرت مغانى العرب وغيرهم من كل جهة ، فنجز العمل في أيسر مدة » .

وبرغم اظهار بعض السلاطين الاضطهاد للغناء وأربابه ، فان الناس ظلوا على شغفهم بالطرب والغناء ، حتى بعض الفقهاء ورجال العلم لم يتورعوا أن يظهرُوا ميلهم لتلك الفنون فان أحد الصوفية وهو الشيخ عبد الله بن كتيلة وهو من شيوخ العراق (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) كان - مع علو قدره - « يترنم ويغنى لنفسه في بعض الأوقات » .

وبلغ الأمر أن بعضهم (١٨) وكان « مرتاضا محبا للسمع ، أوصى أن تخرج جنازته بالدفوف والشبابة ، وتمنع النائحات والباقيات عليه » .

وكان بعض الوعاظ يحضرون السماع وهو حلقات الذكر التي تقيمها الصوفية يتناشدون فيها الأشعار بانتظام وحركات خاصة ، ويتظاهر فيها البعض بالتواجد .

وشارك العوام في الغناء في مناسبات كثيرة ، منها ما حدث عندما رسم السلطان المظفر بيبرس الى شنكير سنة ٧٠٩ هـ بفتح السد من غير وثناء ، وقد نقص عن الوفاء ثلاث أصابع « فصنف أهل مصر كلاما ولجنوه وصاروا يغنون به ، في أماكن المفترجات وغيرها وهم يسخرون من السلطان » (١٩) .

ولما سمع السلطان بذلك أمر الوالى بالقبض على جماعة من
العوام فضرب بعضهم بالمقارع واشهرهم فى القاهرة على جمال ،
كما رسم بقطع السنة بعضهم .

ويدل ذلك على أن العوام فى العصر المملوكى ، عبروا عن
سخريتهم وسخطهم عن طريق الغناء التلقائى الذى ينقدون فيه
أوضاع الدولة كما تظهر جانب الشدة فى معاملة الناس عند بعض
السلطين .

وحدث أن استأذنت احدى المغنيات تدعى النصيفة للدخول
على جماعة كان معهم الأديب حجازى بن أحمد صفى الدين
(ت ٧٠١ هـ) ، وكانت تغنى شعره فأجابها على الفور شعرا وطلب
منها الغناء (٢٠) .

وكان السلطان المنصور لاجين « يصحب معه فى متصيداته
أرباب الملاهى » ، وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون كذلك
شغوفا بحب الجوارى والمولدات والسود بحيث بلغت عدتهن عنده
ما يزيد على ألفين ومائتى وصيفة ، وكان يستدعى من يعلمهن
الغناء كما سبقت الاشارة وعندما سمع عن المغنى على بن عبد الله
الماردينى - وكان من ممالك صاحب ماردين ، واشتهر بضرب
العود - استهداه من صاحبه ، فأرسله اليه وحظى عنده الى الغاية
« فلما مات الناصر تاب من ضرب العود وكسر آلاته مع انه كان
لا نظير له فيه » .

كما اشتهر من مغنى مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون
المغنى عبد العزيز المعروف بابن الفصيح (ت ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م)
الذى « كان اعجوبة زمانه فى صناعة الغناء » (٢١) .

ولما عاد السلطان الناصر محمد من الشام بعد عودته من الحج « فزينت له القاهرة ولاقته القضاة الأربعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ولاقته المغانى » .

وعندما اتم الناصر محمد عمارة القصر الكبير المعروف بالقصر الأبلق جمع القضاة الأربعة والأمراء ، وقرأ ختمة ، ومد سباطا حافلا وملاً الفسقية التى بالقصر سكرًا وإيمونا ، وشرب الناس بالطاسات ، كما أخلع السلطان على جميع الطوائف الذين اشتركوا فى البناء ، وفرق على الفقراء فى ذلك اليوم نحو خمسين ألف دينار « ثم أحضر آخر الليل المغانى وأرباب الآلات ، ووقد بها وقدة عظيمة ، وبات بالقصر تلك الليلة ، وكانت ليلة ملوكية » .

وقد فرضت الدولة على المغنين والمغنيات فى ذلك العصر ضريبة عرفت باسم « ضمان المغانى » ويذكر ابن اياس أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أبطل ضمان المغانى وكان « عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا ، وذلك لو خرجت أجل امرأة من نساء القاهرة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وقامت بما يلزمها من القدر الذى يتعين عليها ، فما قدر أكبر من فى الحكام يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة ، وكان يحصل من ذلك لنساء أعيان مصر ، وبناتهم ، غاية الفساد » . وكان ضمان المغانى يمثل مصدرا كبيرا للاموال بالنسبة للدولة .

ويبدو أن ابطال ضمان المغانى فى عهد هذا السلطان قد ارتبط بابطال البغاء فيقول ابن اياس « فأبطل هذه الفاحشة العظيمة من مصر » .

وحديث ابن اياس عن البغاء يدل على ما كانت عليه بعض النسوة فى مصر ، وما كانت تتمتع به المرأة المصرية فى ذلك العصر من حرية خارج المنزل فى شوارع القاهرة وأسواقها ومنتزهاتها ، وبطبيعة الحال لم تكن كلهن يستئن استغلال تلك الحرية انما هى على أكبر الظن فئة محدودة عرفها التاريخ فى كل العصور وكل الأمم .

هذا ويذكر بعض المؤرخين أن سانوتو (Sanuto) وهو رحالة أجنبى زار القاهرة فى عصر المماليك ، لاحظ هو وغيره ما كان بعض النسوة عليه فكن يتغيبن عن منازلهن فى أوقات كثيرة من النهار ورغم ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن وان كان هذا القول فيه ظلم كبير لكثير من النسوة فى ذلك العصر .

هذا وقد حظى المغنون والمغنيات وأيضا العازفون على الآلات الموسيقية باهتمام الشعراء فى عصرهم فنظموا فيهم كثيرا من أشعارهم (٢٢) .

وكانت طوائف كثيرة من الشعب لها الملم بالموسيقى ، حتى الوعاظ ، كان لبعضهم ميل نحو الموسيقى ، كما كان الشيخ شرف الدين عيسى بن محمد بن محمد السهرودى (ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م) يعرف الموسيقى وسوف نشير الى امثله اخرى عند الحديث عن الموسيقى فى هذا الفصل .

أما السلطان ابو بكر بن الناصر محمد فكان منكبا على اللهو ومعاقرة الخمر بشكل بخس حرمة الملك ، بحيث صار « يطلب الغلمان فى الليل ويبعثهم لاحضار المغانى » فيطلعون اليه رجسالا ونساء .

واعتماد المماليك فى المناسبات أن يضربوا الكوسسات(٢٣) وطبلخانات الأمراء فى مناسبات كثيرة مع اقامة الزينة فى مصر والقاهرة ، مثلما حدث بعد أن عوفى السلطان أبو بكر من مرض ألم به حيث « ضربت الكوسسات وطبلخانات الأمراء يومين » وأقيمت الزينة عشرة أيام .

ولاشك أن تلك المناسبات كانت مجالا رحبا للناس فى عصر المماليك للفرجة يجدون فيها متنفسا لهم وترفيها ، بما يعزف من موسيقى وما يقام من زينة وان كانت تلك الزينة قد مثلت عبئا على الناس لكثرتها كما سبقت الاشارة .

وعرف عن السلطان الصالح اسماعيل شغفه بحب الجوارى السود « وأفرط فى محبة اتفاق العوادة ، وفى العطاء لها ، وقرب ارباب الملاهى وأعرض عن تدبير الملك باقباله على النساء والمطربين » .

هذا وقد أعيد فى أيام الملك الكامل شعبان بن الناصر « ضمان ارباب الملاعب وعدة مكوس » كما شاعت محبته الزائدة لاتفاق العوادة التى قيل أن قيمة عصبته التى على رأسها بلغت مائة الف دينار .

والسلطان المظفر حاجى قد شغف أيضا بمحبة اتفاق العوادة المذكورة وصارت محظيته ، وسمع المغنى اسكندر بن كتيلة الجنكى وكذا دبيعة مغنية عرب الجيزة ، وكانت من المخيلين بالقلعة .

ومن محظياته أيضا : سلمى والكركية وكيدا ، وقيل انه كان لا يفارق كيدا هذه .

كذلك كان السلطان الناصر حسن « كان يحب اللهو والطرب » ويميل الى شرب الراح ، وحب القيان من النساء الملاح ، وكان

يميل الى سماع الآلات ، ويقرب المغاني ، ويحب أرباب الفن من
المغاني قاطبة .

كما كان يتخذ من مغن اسمه « عطط » نديما له ، والى
جانب نديم آخر يدعى « الدخان » المشبب وكان يحضر فى مجلسه .

وفى عهد الناصر حسن كثر اقتناء الجوارى لدى الأمراء
ورجال الدولة حتى أن الوزير فخر الدين ماجد بن خصيب كان لديه
« سبعمائه جارية » ، وكان عنده جاريتان برسسم المطبخ ، تحسن
كل واحدة منهما ثمانين لونا من الثقالى سوى بقية ألوان الطعام .

ويحكى أن محمد بن عيسى حسن بن كر البغدادى الذى ولى
مشيخة الزاوية التى بجوار المشهد الحسينى (ت ٧٦٣ هـ /
١٣٦٢ م) قد أخذ علم الموسيقى عن غير واحد ، وفاق الأقران ،
وصنف فيه تصنيفا بديعا « وصار فى فنه لا يلحق ونقل مذاهب
القدماء وحررها ، وأخذ نفسه بالألا يمر به صوت مما ذكره أبو
الفرج الاصفهانى الا يجىء به على وجهه » : وقبل انه لم بتكسب
بصناعة الموسيقى « وكان يغنى فأضحك ثم غنى فأبكى فنوم » وقال
ابن الصائغ الحنفى : « مر بن كر على قوم يغنون فحرك بغلته حتى
مشيت على ايقاعهم » .

وحدث عند دخول الملك الصالح صلاح الدين الى القاهرة
عائدا من دمشق سنة (٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م) اقيمت الزينة فى موكب
حافل « واصطفت له المغاني ، من الرجال والنساء على الدكاكين
وكذلك الطبول والزمور » .

والسلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى عزل بسبب انشغاله
عن أمور المملكة بشرب الخمر وسماع الآلات والزمور ، « وكان

عنده جوقة مغان نحو عشر جوار ، يذفون بالطارات عند الصباح وعند المساء » . ويبدو أن ذلك كان من عادات الاكابر من أهل مصر ، حيث تقف عندهم الجوارى المغانى ولكن ذلك أبطل .

وقيل « لما مات الملك المنصور ، استمرت جواريه المغانى يعملن الأفراح للناس وكن يعرفن بجوقة المنصور » (٢٤) .

وفى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ، أسقط ضمان المغانى ، وذلك بعد أن اجتمع به قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة والشيخ سراج الدين عمر البلقينى « وعرفاه ما فى ضمان المغانى من المفاصد والقبايح » فأمر السلطان بإبطال ضمان المغانى والأفراح بجميع اعمال مصر من أسوان الى العريش ويذكر المقرئى أن وزراء السوء كانوا قد أعادوه « لكثرة ما يتحصل منه » .

وكان يدفع للضامنة من أهل العرس - حسب حالهم - مبلغ خمسمائة درهم أو يزيد ، وكان على كل مغنية قطيعة تحملها الى الضامنة ، « فان باتت فى بيتها قامت بمال للضامنة » وكانت تراقب المغنيات بواسطة جماعة خصصوا لذلك « فتدور فى كل ليلة على بيوت المغانى جماعة من جهة الضامنة لمعرفة من باتت منهن خارج بيتها » ، كما كان يفرض على البغايا ضرائب مقررة .

ويبدو أن ذلك لم يكن مقصورا على القاهرة وحدها ، بل انه امتد الى بلاد الصعيد والوجه القبلى ، حيث كانت تفرّد حارات للمغانى والبغايا « تقوم كل واحدة منهن بمال مقرر » .

وبطبيعة الحال أدى ذلك التساهل من جانب الحكومة ، مع هؤلاء البغايا الى التجاهر بالزنا وشرب الخمر ، حتى انه « لو مر غريب بتلك المواضع - دون أن يقصد الزنا - لألزم بان يأتى بغيا

من تلك البغايا ويكره على ذلك ، أو يفتدى بمال يدفعه اليها « حتى تقوم بما عليها من الضريبة » .

هذا وقد أهدى الى السلطان الأشرف شعبان من صاحب استانبول هدية فيها « صندوق عمل بمحركات هندسية ، فاذا مضت ساعة من الليل والنهار أخرجت تماثيل بنى آدم ، وضربت بصنوج فى أيديها ، وأنواع من آلات الملاهى معها ، واذا مضت درجة سقطت بندقة » .

ويبدو أن تلك الهدية كانت عبارة عن ساعة كبيرة شبيهه بما تراه اليوم على أشكال مختلفة وحيل مقابينة .

هذا وقد كان لبعض المغنسات دور كبير فى حياة بعض السلاطين فالسلطان الأشرف شعبان ابان صراعه مع كبار الأمراء قد اختفى فى بيت احدى المغنات وهى المغنية آمنة بنت عبد الله امرأة ابن المتولى ، بحارة الجودية وكان يعرئها قبل ذلك .

ويبدو انه فى عصر المماليك كان هناك لون من الغناء الجماعى الذى تمثل فى أغانى العمل . وقد سبقت الاشارة الى بعضها عند حفر البحر المعروف بالطيرية فى عهد السلطان المنصور قلاوون .

وهذا نموذج آخر من عهد الملك الأشرف شـعـبـان ، عندما حاول السلطان جر عمودين عظيمين الى عمارته تحت القلعة وعجز الناس عن جرهما ، ولكن استطاعوا بعد جهد تحقيق ذلك فى عدة أيام « وكان للعامه فيها اجتماعات بطبولهم وزمورهم وقالوا من نزهاتهم فى جر العمود غناء تداولته ألسنتهم عدة سنين » .

ويبدو أنهم اهتموا بتسجيل تلك الواقعة ، فظهر بالاسكندرية قماش سمي « جر العمود » وهو من حرير خصص لليس الفيضاني .

ونذكر انه فى عهد السلطان المنصور على أعيد جمال الدين محمود العجمى الى حسبة القاهرة ، ففرح العامة بذلك كثيرا « وكادوا يحملون بغلته وهو عليها بالخلعة • وبالغوا فى اشعال الشموع والقناديل بالقاهرة ، ووقفت له المغانى تزفه اذا مر بها فى مواضع عديدة » •

وحدث ايضا ان الأمير الكبير برقوق قد أمر بإبطال ضمان المغانى فى نواح عديدة من مصر والشام ، كمدن حماة والكرك والشوبك ، ويبدو أنها كانت قد عادت فى مصر فى بعض النواحي حتى أمر بإبطالها كذلك فى ناحية منية ابن خصيب من أراضى مصر ، وفى ناحية زفتا (٢٥) •

وكان المحتسب يراعى تنفيذ تلك الأوامر بمنع المغانى والمنكرات حتى ان المحتسب الأمير جمال الدين محمود قبض على جماعة وقدمهم الى والى القاهرة الذى فرض عليهم غرامة مالية كبيرة وصلت الى مائة ألف درهم « وذلك أنهم ضربوا خيمه على جانب البحر يتفرجون فيها وعندهم مغان » •

مع انه عندما حدثت واقعة سرقة ابن القماح وهو أحد التجار بقيسارية جهاركس لحوانيت القيسارية ، محتالا على الحارس ، قبض عليه وعلى ولده وحمل المال المسروق على عدة حمالين « وسار بهم والمغانى تزفهم الى الامير الكبير ، والعمله من ورائهم على رؤوس الحمالين والمغانى تزفهم فى شوارع القاهرة » •

وأحيانا يكون التشهير على جمل والمغانى تزفه ويطوفون به البلد كما حدث لشخص فى ولاية دمياط فى عهد المؤيد شيخ •

ولعل ذلك يوضح استخدام المغانى فى غير غرضها وهو الطرب وانما استخدمت فى التشهير أو التجريس بمفهوم ذلك العصر •

أما فى عهد السلطان الظاهر برقوق فقد تعرض بعض المغنين المشهورين لهادث لاقوا فيه مصرعهم ، فتشير المصادر المعاصرة الى ان السلطان برقوق اقام احتفالا بمناسبة المولد النبوى عام (٧٩٠ هـ / ١٣٩٠ م) وحضره ابراهيم ابن الجمال رئيس المغنين وشقيقه خليل رئيس المشبيين وعملا السماع بحضرة السلطان - كما جرت العادة - وبعدها حضرا حفلا آخر دعيا اليه بطبقة فى رحبة الخروب ، وبعد فراغ المولد وعمل السماع طلع الناس الى ايوان الطبقة ، وغنوا ورقصوا ، وبينما هم كذلك ، سقط سقف القاعة ، ومات ابن الجمال وشقيقه « وهما رئيسا صناعتهما » • ومعهم ستة غيرهم •

وتوفى - بغير ذلك السبب - سليمان القرافى المصرى الملقب بعلم الدين المادح وكان « رئيس اهل صناعته فى المدح والغناء » • وكذا المعلم اسماعيل الدجيجانى (٢٦) •

وعندما طالب الناس السلطان باعادة الأمير حسام الدين حسين ابن الكورانى (ت ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م) الى ولاية القاهرة ، فاعادة « ففرح الناس به فرحا شديدا ، وتلقوه المغانى بالقاهرة » وأوقد أصحاب الحوانيت إلقناديل ، كما أوقد اليهود النصارى الشموع •

أما السلطان المؤيد شيخ فكان يحب التنزه والمفترجات ، فكثيرا ما كان يخرج الى مواضع متعددة كسريا قوس والجيزة والريدانية ويقيم هناك مدة طويلة ، ويعمل أوقاتا بالقراء والمغنين ، والسماعات ويفرق على أهل الخانقاوات ، وعرف عنه أيضا معرفته الفن الموسيقى ونظم الشعر (٢٧) •

وركب مرة الى خانقاه سرياقوس ، وعمل هناك مجتمعا
حضره « عشر جوق من قراء القرآن ، وعدة من المنشدين » • ومدت
لهم اسمطة جليلة وبعد فراغ القراء والمنشدين أقيم السماع طول
الليل ، وانعم على المنشدين وصوفية الخانقاه بمائة الف درهم •

واشتهر من المغنين فى عهده ، صارم الدين بن باباي العواد
وصار من ندماء الملك المؤيد شيخ ومغنيه « وكان أعجوبة زمانه فى
ضرب العود والغناء » رغم أنه لم يكن جيد الصوت « ولكن فاقت
شهرته فى آلة العود وفى فن الموسيقى ، وانتهت اليه الرئاسة فى
ذلك ، ولم يخلف بعده مثله •

ويبدو أن مثل هؤلاء المغنين من ذوى الحظوة عند السلاطين
قد حصلوا ثروات طائلة من وراء فنهم ، حتى انهم كانوا دائما
عرضة للمصادرات من جانب بعض السلاطين والأمراء فى حالة
نقمتهم عليهم ، وذكر أن باباي هذا « جدد عمارة بستان المحلى
المطل على النيل ، وخلف مالا جزيلا » •

وقد ركب السلطان المؤيد من قلعة الجبل بأمرائه ومماليكه ،
ووجه دولته ، وسار الى حيث العمل فى حفر البحر تجاه منشأة
المهرانى (٢٨) « ونزل فى خيم نصبت له هناك ونودى بخروج الناس
للحفير ، فخرج الناس طوائف ، ومع كل طائفة الطبول
والزمرور ، وهم فى لهو ولعب » •

وركب السلطان بعد العصر وقدمت اسمطة جليلة « فكان
يوما بالهزل واللهو اشبه منه بالجد » • وكان على الأمراء مقطوعية
يحفرها كل منهم واستمر ذلك كل يوم •

وكان بعض الأمراء يصطحبون معهم - الى جانب مماليكهم
بعض الحيوانات كالفيول والزرافة بعدة طبول وزمرور ، « واجتمع

هناك معظم الناس من الرجال والنساء للفرجة ، فكثرت سخريتهم
وتضاحك بعضهم على بعض » •

أما السلطان الظاهر ططر ، فكان « يحب انشاد الشعر بين
يديه لا سيما باللغة التركية ويميل الى الصوت الحسن ،
ولسماع الوتر ، مع عفته عن سائر المنكرات » وسبقت الإشارة الى
ذلك •

هذا وقد كسدت في ايام السلطان الظاهر جقمق احوال ارباب
الملاهي والمغاني اكونه كان يكرهه وينفر منه بطبعه ، ومن كل الوان
اللهو والمجون والطرب كما سبقت الإشارة •

والسلطان الأشرف قايتباي كان كثير الخروج والتنزه ،
تصحبه المغانى من رجال ونساء ، وكذا الأوزان والشعراء والشبابية
السلطانية ، وتصطف له جوق المغاني من النساء •

فتشير المصادر الى انه ركب لصلاة الجمعة - وكان له مدة
لم يركب بسبب كسر ساقه - « فلما ركب لاقتة المغانى من بساب
الجامع وكان يوما مشهوردا بالقلعة » ووردى بالزينة من أجل
ذلك •

ويبلغ من شغفه للتنزه « ان توجه الى الأهرام وهو عاشق
وحوله الأمراء وعملات هناك اسمطة حاقله ، وصار ابن رحاب
المغنى عمال في كل ليلة وبقية مغاني البلدى » •

وكثيرا ما كان يخرج السلطان الى قبة الأمير بشببك
بالمطرية في موكب حاقل ، فتلاقيه الأوزان والشعراء والشبابية
السلطانية وابن رحاب المغنى « وتصطف له جوق المغاني من
النساء •

وشارك الأمراء سلطانهم فى ذلك فاظهروا التجميل والبهجة
فى مواكبهم فقد شق الأمير يشبك من القاهرة ، وهو فى موكب
حافل وقدامه الأمراء ، وسارت الأطلاب امامه شيئاً فشيئاً « وبقيته
المغنى من رجال ونساء من باب النصر الى سلم المدرج ، والكوسات
عمالة بالقلعة والطبل والزمر مصفوف على الدكاكين » .

وثمة مظهر آخر من مظاهر الغناء الدينى ، كان شائعاً أيام
المماليك عند الخروج للج أو العودة منه ، فعندما خرجت خونسد
فاطمة - زوجه السلطان الأشرف قايتباى - وهى ابنة العلاء على
بن خاص بك ، عندما خرجت للحج سنة (٨٧٩ هـ / ١٤٧٥ م)
وأمامها جميع ارباب الدولة وغيرهم من المباشرين ، وأعيان الخدام
« بايدهم العصى وقدامهم من الحدادة أربعة منهم : إبراهيم بن
الجندي المغنى وابو الفوز الواعظ » .

وعند رجوعها من الحج فى المحرم من سنة ٨٨٠ هـ /
١٤٧٦ م ، لاقاها الأمراء والقضاة وهى فى تجميل زائد فى المحفة
« ولاقاها المغنى بالطارات » . ثم طلعت الى القلعة .

وفى عهد السلطان قايتباى كان كل من المغنى الموسيقى محمد
المعروف ببيرقوق التونسى (ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م) « وكان بارعا
فى الغناء والانشاد وله شهرة طائلة » . وابو المواهب محمد بن
أحمد ويعرف بابن زغدان البرلسى (ت ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م) « وله
مؤلفات فى حل سماع العود » .

كذا ابو الفدا ، الواعظ الناشد المادح (ت ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م)
« وكان من أعيان دواخل مصر فى حسن الصوت وجودة الغناء » .

وكذا المنشد المطرب الواعظ المادح ، شمس الدين محمد بن
حلة (ت ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م) « وكان من مشاهير الوعاظ وله نظم
جيد » . والمغنية خديجة الرحابية (ت ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م) .

ويبدو أن الأمراء المماليك كانوا يستكثرون على عامة الناس أن تستمتع بما يجرى حولهم من فنون وطرب ، حتى أصبح مما يؤخذ على المغنى أن يقصد الى ترفيه الشعب ، وكان هؤلاء المطربين والمطربات متاعا لهؤلاء الحكام وأشياعهم ، دون غيرهم .

ففى عهد السلطان قايتباى قبض الأمير يثبك بن حيدر والى القاهرة على « خديجة الرحابية » وهى تغنى فى بعض الافراح بتهمة افساد عقول الناس ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٨٨٦ هـ ١٤٨١ م . وأمر بضربها بين يديه نحو خمسين عصا ، وقررت عليها غرامة مالية ، كما كتب عليها تعهدا بعدم مزاوله مهنتها . وقد لبثت بعد هذه الحادثة مريضة حتى ماتت ولم تتجاوز من العمر ثلاثين عاما .

وخديجة الرحابية هذه ، كائت من اعيان مغانى مصر وكان أصلها من مغانى العرب ، عظم امرها « وحظيت عند ارباب الدولة ورؤساء مصر ، وكانت جميلة الشكل ، حسنة الغناء فافتتن بها الكثير من الناس(٢٩) .

أما السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، فقد توجه الى قبة يشبك بالمطرية - السابق الاشارة اليها - وبات بها ، ثم شق من القاهرة فى موكب حافل « وجعل قدامه طبليين وزمرين ، وعبيدا سودا ترمى بالنقوظ قدامه » .

أما السلطان قانصوه الغورى ، فقد افاضت المصادر المعاصرة فى ذكر صفاته وما انطوى عليه من ميل للتنزه ، كما كان له نظم باللغة التركية ، وعرف بولعه بسماع الموسيقى والغناء ومعرفته بهما ، حتى « كثرت المغانى فى أيامه لكثرة ما يصغى اليهم » .

وكثير ماتوجه السلطان الى الفيوم والأهرام ، ويقوم في
الوطاق (٣٠) الذي ينصب له هناك عدة ايام ، وكان من عادته ان
يأخذ معه جماعة من المغاني وأرباب الآلات ، منهم محمد بن عويضة
العواد وجلال السنطيرى والبواقلة وابن الليمون وغير ذلك من
المغاني ، وكان ينعم على من يصطحبه في رحلته من المغاني لكل
واحد منهم بعشرين دينارا وحنين صوف بسنجاب ، كما حدث في
رحلة الفيوم في ذى الحجة سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م .

وكان غالبا ما ينزل ويتوجه نحو المقياس ويجلس في قصره
هناك ثم يعود من يومه ، ومعه جماعة من الامراء « وانشرح في
ذلك اليوم الى الغاية ومد هناك اسمطة حاقله ، واحضر بين يديه
المغاني وأرباب الآلات . كما تسلى بمشاهدة مضحك يقال له على
باى الذى كان يعمل عفريتا في المحمل .

وكانت جزيرة الروضة من المواضع المفضلة عند السلاطين
المماليك خاصة السلطان الغورى ، حيث كان ينصب له خيام على
خرطوم الروضة ويبيت هناك ويمد له الامراء اسمطه حاقله « وطاب
له ذلك المكان وانشرح به وكان صحبتته المغاني وأرباب الآلات » .

وكانت قبة الأمير يشبك التى بالمطرية مقصدا لكثير من
السلاطين قبل السلطان الغورى ، الذى كان يتوجه اليها ويبيت
بها خاصة فى الليالى المقمرة « وحضر عند السلطان مغاني وأرباب
الات وانشرح هناك الى الغاية واقام فى القبة يومين » .

كما حظيت الاسكندرية بزيارة السلاطين على امتداد العصر ،
فقد توجه اليها السلطان الغورى سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) وصحبته
جماعة من المغاني وأرباب الآلات من دواخل البلد فى الغناء .

وكان السلطان قد انشأ بستانا بميدان القلعة ويذهب اليه ويطلق ماء البحرة وينثر فيها الورود والياسمين ، ويضاء البستان بمصابيح من اشكال متنوعة ، وتحضر اليه مغاني البلد وأرباب الآلات الدواخل ويحیی بذلك ليالى حافلة عرفت بالليالى الملوكية (٣١) وقال فيها بعض الشعراء يصف ليلة من تلك الليالى .

ويدل هذا النظم على ان مجلس طرب السلطان الغورى كان يصحبه شراب ، فيذكر الساقى والندامى ، كل ذلك يدور فى جو عبق بالزهور والرياحين .

وتشير المصادر أن السلطان كان له عادة فى الخروج عند ابتداء موسم ضرب الكرة فى الميدان وأن يجتمع له سائر الأمراء المقدمين وهم بالشاش والقماش - أى بملابسهم الرسمية .
« والأوزان عمال والمغاني على جارى العادة » .

وكان بعض الأمراء والقضاة يضيفون السلطان الغورى عندهم ، كما فعل القاضى كاتب السر محمود بن آجا ، حيث يقيم ببولاق ، واصطحب السلطان ابنه معه « وانشرح السلطان هناك للمغاية واحضر بين يديه المغانى وأرباب الآلات ، واطهر القاضى كاتب السر انواع العظمة من الفرش الفاخرة والأوانى الصينى والنحاس المكفت » .

وثمة ملاحظة وهى أن السلطان الغورى كان يصطحب معه جماعات من المغانى وأرباب الآلات ، اينما توجه فى متنزهاته ، التى كانت كثيرة ومتقاربة ، وبدل ذلك على شدة حبه للغناء والموسيقى .

وفى عهد هذا السلطان انتشرت مظاهر الطرب الى حد كبير حتى شارك فيه الشعب بفئاته ، فبرغم استحواذ المماليك على كسار

المغنين والمغنيات وأرباب الآلات ، فان الشعب لم يكن محروما من تلك المتعة ، حيث كان لديه - بلا شك - المنشدون والمغنون والمغنيات من طبقات الشعب القريبة من عامة الناس من حيث المستوى الاجتماعي فالمغنون كانوا من طبقات شتى ، ويختلف منبع غنائهم ، فبعضهم من طبقة راقية مثقفة ، وبعضهم من طبقة شعبية .

ويدو انه كانت هناك جماعات للانشاد الجماعي ، يقود كل جماعة منها شيخ له دراية بهذا الفن ، ف قيل ان الشيخ صالح محمد بن الخياط المدني المؤذن وجماعته كانوا ينشدون ، فأطرب الحاضرين وتباكى غالبهم .

كما كان السلطان يصطحب معه في الغالب صبيانا ينشدون حتى انه بعد صلاة احدى الجمع في الجامع الاموي ، ولما فرغ الناس من التسبيح عقيب الصلاة « انشد الصبيان الذين كانوا مع السلطان ، واجتمع الناس حولهم حتى كادوا يقتتلون » .

وفي عهد السلطان الغوري كان عدد من مشاهير المغنين والمغنيات وعازفي الآلات ، والريسات ممن كان لهم شأن كبير في مجال الطرب في تلك الحقبة الأخيرة من عصر المماليك . كان اشهرهم الرئيس نور الدين علي بن رحاب (٩٠٥ هـ / ١٥٠٠ م) « المغنى المنشد المادح ، فريد عصره ، ووحيد دهره ، وكان من نوادر الزمان ، ينظم الشعر ، ويركز الخفائف بالالحن الغريبة وكان آخر مغاني الدكة في الدخول والطرب ، ولم يجيء بعده أحد مثله في الدخول » (٣٢) .

وكان الأمير طومان باي قد سبق له ان قبض على ابن رحاب في شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٩ م ، وضربه بالمقارع .

وشهر به فى القاهرة وهو عريان ، مكشوف الرأس على حمار ،
وكان ذلك على أثر وشاية اتصلت بالأمير عنه .

وكذا الأستاذ على بن غانم الذى كان علامة فى ضرب
الطنبورة ، ومعرفة الأنغام « وهو الذى أظهر الخنائف النجدية
بمصر ولحنها فى التلاحين الغربية حتى ابطل بها فن الموسيقى » .

وفى عهده سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م توفى الناصرى محمد بن
قجق نديم السلطان « وكان علامة فى ضرب الطنبورة ، عارفا
بصناعة الأنغام ، ومشى فى جنازته أعيان الناس حتى أعيان مغانى
البلد والآلاتية ، فانه كان شيخهم » .

ومن المغنيات والريسات عزيزة بنت السطحى (ت ٩٠٦ هـ /
١٥٠١ م) وهى من أعيان مغانى مصر « فريدة عصرها فى النشيد ،
مع حسن الصوت وفصاحة بأعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعد
أحد من النساء المغانى » ورأت من العز والعظمة ما لم يره غيرها
من أرباب هذا الفن (٣٣) .

وفى ربيع الآخر سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م توفيت الريسة
انعام ، ريسة خوند الخاصكية « وكانت من أعيان مغانى البلد » ،
وكذا الريسة خديجة أم خوخة (ت ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م) « وكانت
من أعيان مغانى الدكة ، ولها فى هذا الفن اليد الطويلة » والريسة
بدرية بنت جريعة « وكانت من أعيان المغانى أيضا ولها شهرة بين
المغانى بذلك » .

وكما سبقت الإشارة فان كثيرا من المغنين والمغنيات
تعرضوا للاضطهاد من جانب بعض السلاطين والامراء ، فهذا هو
السلطان الغورى يامر بالقبض على المغنية « هيفة اللذيذة » فى
رمضان من سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م وكانت ريسة المغانى ، وذلك

بسبب وشاية بعض أعدائها والكيد لها عند السلطان بان لها دائرة كبيرة من المال ، ولها حلة للكرى ، فتعرضت للضرب ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار ، قباعت كل ما تملك فما حصلت غير ألف دينار ، وسعى لها القاضي بركات بن موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها خمسمائة دينار تورد كل شهر مائة دينار على كل جامكية .

على ان سلاطين المماليك وأمراءهم لم يتركوا مناسبة من المناسبات الا استمتعوا فيها بالطرب في مجالسهم غناء وموسيقى ورقصا ، بيد أنهم اختلقوا مناسبات كثيرة ، ليفسح لهم مجال للهو والطرب الى أبعد حد حتى فى المناسبات الدينية التى أصبحت فى عرف الناس من المناسبات المهمة والتى كان أهمها : الاحتفال بالمولد النبوى ، وموالد الأولياء ، ورحلات الحج ذهابا وعودة ، واحياء ليالى رمضان ، والاحتفال برؤية الهلال ، ورأس السنة الهجرية وصعود القضاة والعلماء لتهنئة السلطان بهذه المناسبة .

وعنى المماليك كذلك بكثير من الحفلات الخاصة التى اقيمت فى مناسبات عديدة ، كحفلات قدوم مولود ، وحفلات السبوع أو العقيقة ، وحفلات الختان وحفلات الزواج ، ورغم ان هذه كانت حفلات خاصة بالسلاطين والأمراء فانها لم تخل من المشاورة الشعبية فيها بصورة أو بأخرى .

هذا علاوة على الاحتفالات التى ترتبط بمواكب السلاطين والأمراء كالخروج للعب الكرة أو لكسر الخليج عند وفاء النيل ومثل ذلك من المناسبات التى حرص المماليك على ان تبدو ابهة الملك واضحة من خلالها .

فبرغم ان شهر رمضان كان شهر عبادة وطرب طول ايامه فان احتفال المماليك برؤية الهلال فى اوله ، واحتفالهم بانتهائه وحلول عيد الفطر قد نالت اهتماما كبيرا وعبرت عن مظاهر البهجة والسرور .

وهذا ما كان عليه الحال ايام الفاطميين . ففى عيد الفطر يقام احتفال فخم ضخم ، وينزل السلطان بأبهته وعظمته ، ومن حوله الأمراء والعظماء الى المسجد ، وبين يديه الملاعبون والزامرون والمنشدون ، حتى يصلى العيد . وهكذا كان يحدث فى عيد الاضحى وان اختلف الأمر فيما يقدم من أسباب اللهو والطرب . وكان السلطان فى الغالب يخرج فى العيد من باب القصر الوسطانى .

واعتاد الناس يوم العيد ومابعده الخروج الى القرافة خارج القاهرة وخرطوم الجزيرة ببولاق ، ويقبلون على اللهو والمسرات ويتفننون فى أنواع المذات .

أما الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، فقد صار فى عصر المماليك من الأمور التى ألفها الناس كل عام ، بحيث لا يمكن التخلي عنها ، لذلك فقد كان الشعب يصرف عنايته الى الاحتفال بهذه المناسبة من تلقاء نفسه .

ولم يقتصر هذا الاحتفال على ليلة واحدة كما كان فى أيام الفاطميين بل أصبحت ايام المماليك تستوعب أيام الشهر كله .

وكان من عادة السلاطين المشاركة فى هذا الاحتفال ، فتتصب خيمة كبيرة فى الحوش ، يتصدر السلطان المجلس ثم أرباب الدولة ، ويقرأ القرآن ثم يعظ الوعاظ ، وتمد الأسمطة « ويقام السماع من بعد ثلث الليل الى قريب الفجر » .

واعتاد المماليك ايضا الاحتفال بموالد الاولياء والصالحين ، ولعلهم هم الذين ابتدعوا الاحتفال بمولد السيدة نفيسة ، حيث كان من فعل ذلك من المماليك هو السلطان قيتباى فى ربيع الأول سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م بالمشهد النفيسى « وصار يقال له مولد الخليفة » وكان يقام فى نفس موعد الاحتفال بالمولد النبوى الشريف .

كما احتفل المماليك بمولد سيدى اسماعيل يوسف الانببى فى زاويته بناحية امباية تجاه بولاق ، فكانت تضرب الخيام فى الجزيرة التى ببولاق ، بلغ عددها خمسمائة خيمة ، وقد عنى السلطان الغورى على الأخص بهذا الولي ، ومولده .

وكانت هذه الاحتفالات مجالا للفرجة والقصف لعامة الناس ، كما تدل على أمان الناس ورخائهم ، وكانت تقع مفاسد كثيرة فى هذه الموالد « من كثرة النساء والفساق » حتى أشيع انهم وجدوا فى الزرع مائة وخمسين فارغة من جرار الخمر فى ليلة مولد الشيخ الانببى .

كما كانت هذه المناسبات مجالا لرواج فن الغناء والموسيقى ، خاصة الانشاد الدينى وغناء الشعر الوجدانى .

أما الاحتفال بعقد القرآن أو الزواج فكان من الاحتفالات المهمة عند المماليك ، وعند الأهالى ، حيث تدعى المغانى وأرباب الآلات ، لأحياء هذه الحفلات ، ويبدو فيها الاسراف بلا حدود ، خاصة إذا كان صاحب الحفل من السلاطين أو الامراء أو أبنائهم أو من يدور فى فلکهم .

ففى ربيع الآخر سنة ٨١٢ هـ / ١٤١٠ م ، عقد قرآن الأمير بکتمر فزفته المغانى حتى دخل دار السعادة « ثم عقد العقد بحضور السلطان المؤيد الذى تولى العقد بنفسه .

ففى المحرم سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، أقيم الاحتفال بعرس الأمير فخر الدين باحدى جوارى السلطان « وعمل فرح جليل ذبح فيه ثمانية وعشرين فرسا ، وأغناما بلغ زنة لحمها عشرة آلاف رطل ومن الدجاج ألفين ومائة طائر ومن الأوز ثلاثة آلاف طائر ، ومن الدقيق ستة وخمسين قنطارا ، ومن الزبيب خمسين قنطارا عملت مشروبا » .

ولم يدع الممالىك مناسبة مولد طفل لسلطان أو لأمير الا احتفلوا بهذه المناسبة ، فعندما يولد للسلطان ولد تدق له البشائر ثلاثة أيام وتزين القاهرة لولادته ، وعلى سبيل المثال ، حدث ذلك عندما ولد للسلطان الأشرف شعبان مولود أسماه أحمد وأخر أسماه رمضان .

حتى حفلات السبوع أو العقيقة كان يهتم بها الممالىك ، مثلما حدث فى عقيقة الأمير ابى المعالى محمد بن السلطان المؤيد شيخ ، وطلع على الامراء وأركبوا الخيل بالقماش الذهب « فتجاوز المصروف عليها خمسة عشر ألف دينار » .

حتى الختان كان يحتفل به فى العصر المملوكى ، احتفالا يتناسب مع حال صاحبه ، فقد اقيم مهم حائل بمناسبة ختان اولاد الملك المنصور عثمان ابن الظاهر جقمق سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٦ م ، وكان الختان بثغر دمياط « فبعث السلطان اليه بألفى دينار احتياج المهم ، وتوجه اليه ابن رحاب المغنى ومشى فى الزفة » .

هذا ولدينا وصف لابن اياس لحفل ختان اولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م الذى أقامه فى بركة الرطلى (٣٤) .

ويبدو أن الناس كانوا يستغلون هذه المناسبات فى التنزه
واللهو والفرجة الى أبعد حد ، فقد بلغ كرى كل مركب « أربعة
اشرفية » واستمر ذلك الحفل ثلاث ليال متوالية (٣٥) .

ثم كان ختان ولد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال بثغر
الاسكندرية « فأرسل يطلب على بن رحاب المغنى بسبب الزفة » .

واحتفل أيضا بختان ولد السلطان المقر الناصرى محمد الذى
تسلطن بعده وعمره نحو من سبع سنين وأشهر « وكان المهتم
بالقلعة سبعة أيام متوالية وكان من نوادر المهمات فاجتمع سائر
مغانى البلد ورسم السلطان بان تزين القاهرة ، فزينت زينة حافلة ،
حتى زينوا داخل الأسواق . . »

وقبلها ركب ابن السلطان فى موكب من قاعة البحرة الى باب
الستارة والسلطان جالس فى المقعد ينظر اليه « ولاقاه المغانى
ودخل قاعة البيسرية فكان الختان بها ، وتختن معه كثير من أولاد
الأمراء والخاصكية » فكانوا زيادة على أربعين ولدا .

وقد نذر العصر المملوكى بكثير من المغنيات والمغنين الذين
ذاعت شهرتهم بين الناس فى ذلك العصر ، وحظى كثير منهم عند
السلاطين والامراء .

ولعل من أشهر تلك الأسماء من المغنيات ، المغنية زهرة
واغلنية اتفاق ، والريسة دنيا البغدادية ، والمغنية خوبى العوادة ،
والمغنية بياض ، والمغنية الشهيرة خديجة الرحابية ، وخليفتها
المغنية هيفة اللذيذة والمغنية عزيزة بنت السطحى ، ومغنية قدعى
النصيفية وغيرهن .

وبطبيعة الحال ليس هذا حصرا لمن برع فى فن الغناء من
النساء فى عصر المماليك ، ولكن هذا أكثر من لمع من الاسماء ،

فلا بد انه كان هناك غيرهن الكثيرات اللاتي كن اقل شهرة من هؤلاء وطواهن التاريخ ، وربما ساعد على بروز تلك الاسماء ارقباطهن بقصور وحنلات السلاطين والامراء ، فكان ذاك بمثابة الاعلام بهن .

وقد ورد ذكر هؤلاء المغنيات فى مواضع متفرقة ، ولكن لا بأس من أن نشير الى اكل منهن بنبذة قصيرة لزيادة التعريف بهن .

فالمغنية زهرة وزميلتها اتفاق قد استأثر بهما قصر الفاضل محمد أتوك بن محمد بن قلاوون ، ولما بلغ السلطان ذلك « أمر بمنعهما منه » . وأما اتفاق فقد نشأت عند ضامنة المغانى ببليبيس ، ثم انتقلت الى ضامنة المغانى بمصر ، فعلمتها ضرب العود على يد المعلم عيد على العجمى ، ففاقت فيه للغاية ، وعندما قدمتها الضامنة لبیت الناصر حظيت عند ابنه الصالح اسماعيل وولع بها « وولدت منه » ثم شغف بها بعده أخوه الكامل وولدت منه أيضا .

ولعل زواج اولاد الناصر من هذه المغنية السمراء ، يدل على ما كان للمغنيات من منزلة فى تلك البيئة ، ويقال ان ثلاثة من ملوك ذلك العهد اخوة تنافسوا على حب تلك المغنية اتفاق .

ويقول المؤرخون انها لم تكن جميلة ، وانما تقدمت بالغناء ، ومهما كان الأمر فليس هناك شك فى أن حسن غنائها هو الذى قدمها أولا وأوقع هؤلاء السلاطين الثلاثة فى هواها .

والريسة دنيا البغدادية ، كانت من أجل حظاها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وقيل انها كانت زوجته ، وعرفت بالريسة لأنها كانت حاذقة فى الغناء ، توفيت سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٣٤ م .

أما عن المغنية خوبى العوادة ، فكانت مغنية فائقة فى ضرب العود اشتراها بكثر الساقى بعشرة آلاف دينار مصرية ، ويقال

« انه لم يدخل مصر لها نظير » ويحكى أنه بعد موت بكتمر كسرت عودها ، فباعها الناصر لبشتاك بستة آلاف دينار فلم تحظ عنده « وماتت بعد الأربعين » .

واشتهرت فى هذه الفترة كذلك مغنية اسمها بياض ، وعرفت باسم (قومة) وكانت تجيد الغناء ، ويأنس الناس بها فى مجالسهم ولما علم السلطان الناصر خبرها ، طلبها واختص بها ، واصبحت من محظياته ، وولدت له ابنه أحمد ، ثم تزوجها الأمير بكتمر بعد ذلك فى حياة الناصر .

أما عن المغنية خديجة الرحابية ، فكانت من أشهر المغنيات فى عصرها ، وكان أصلها من مغانى العرب ، وحظيت عند ارباب الدولة كما سبقت الاشارة ، ومدحها بعض الشعراء ، ولكن لم يطب لها الحال فقد قبض عليها الأمير يشبك والى القاهرة ، بتهمة افساد عقول الناس ، وتعرضت للضرب والغرامة ، وسبقت الاشارة الى ذلك .

كذلك المغنية هيفة اللذيذة ، وكانت رئيسة المغنيات فى عهد السلطان الغورى ، ومن الطريف ان البعض يعلل اسمها هذا ، فيقول قد يكون هيفاء ثم خففت الى « هيفة » أو انها كانت فى حياتها الأولى ليست على شىء فتندر الناس بها واطلقوا عليها لقب « هايفة » بمعنى السذاجة ولكن لم يجزم الأمر بهذا أو ذلك .

وغالبا ما تكون الأسماء غير معللة ، وان كنا نتوقع ان هذا كان لقبا ، وليس اسما حقيقيا لها ، فكل ما ذكر عنها لم يزد على « هيفة اللذيذة » .

ويبدو أن ذلك كان لقبا فنيا ، كما يحلو لبعض مغنى ومغنيات

عصرنا فى اختيار اسم فنى يكون ادعى للشهرة وسرعة الانتشار
بين الناس .

وعلى أية حال فقد أصابت هذه المغنية ثروة كبيرة فى عصرها
مما حرك عدااء خصومها ، فحقدوا عليها ووشوا بها عند السلطان
فامر بتعذيبها ثم سجنها وتغريمها كما سبقت الإشارة الى ذلك .

أما المغنية عزيزة بنت السطحى فقيل انها : « فريدة عصرها
فى النشيد ، مع حسن الصوت ، وحظيت بمدح الشعراء ، وكانت
على قدر كبير من الثقافة والفصاحة . ومنهن أيضا المغنية جارية
النطاع وأصيل القلعية ومن الريسات : الريسة انعام ، وبدرية ،
وأم خوخة .

والى جانب هؤلاء المغنيات والريسات ، كان هناك لقيف من
المغنين الرجال ، الذين ذاعت شهرتهم وطبقت الأفاق ، وشاركوا
مشاركة كبيرة فى احياء مجالس الطرب والسرور ، فى كل
المناسبات ، ونالوا تقدير السلاطين والأمراء حتى اتخذوا منهم
الندماء . منهم على سبيل المثال لا الحصر :

المغنى سليمان المادح ، والمعلم اسماعيل الدجيجانى ، ونور
الدين على بن رحاب ، الذى بلغ قصور السلاطين ، وكان نجما
متألقا . ولكن لم تصف له الأيام كما سبقت الإشارة .

واشتهر كذلك من المغنين ، صارم الدين بن باباي ، وصار
من ندماء السلطان المؤيد شيخ ومغنيه « وكان أعجوبة زمانه فى
ضرب العود والغناء وكذا الناصر محمد بن قجق ، الذى كان نديم
السلطان الغورى علامة فى ضرب الطنبور ، عارفا بصناعة
الأنغام .

وبطبيعة الحال فان مجالس الطرب قد اشتملت على فن الغناء في كل المناسبات ، يصاحبه في كثير من الأحوال وبالضرورة ألوان من التلحين الموسيقى كما كانت تضم ايضا بعض الراقصين والراقصات . فقد نرى غناء بمفرده ، ولكن نادرا في ذلك العصر ماكان بحى موسيقى حفلا بمفرده ، فالموسيقى كانت تشكل وسيلة مهمة من وسائل الترفيه في ذلك العصر وبرز فيها الكثيرون - سبقت الاشارة الى بعضهم - سيأتى ذكرهم فيما يلى :

الموسيقى :

ان فن الموسيقى وقن الغناء يرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطا وثيقا فكثيرا ما كان الموسيقى هو الشاعر والمغنى والملحن فى أن واحد ، خاصة فى العصور الغابرة ، ثم مرت الموسيقى بمراحل مختلفة حتى أصبحت فنا قائما بذاته . وأصبحت قصائد الشعراء تغنى من قبل موسيقى مرافق أو بواسطة مغن أو مغنية بمصاحبة موسيقى . وتساهم الآلات الموسيقية فى اخراج التحفة الفنية لا لتلعب على مسرحها الدور الرئيسى ، بل لتقوم بوظيفة المرافق للصوت أو الضابط للايقاع .

ومما يدل على هذا الارتباط بين الغناء والموسيقى ان كثيرا من المغنين كان موسيقيا ، ومن الموسيقيين من كان مغنيا ، وان كانت هذه المشاركة ليست على اطلاقها ، فقد كان لفئة من الموسيقيين بعينها القدرة على المشاركة فى الغناء خاصة من كانوا يستخدمون آلات معينة مثل العود والطنبور ولم نسمع عن زمار مثلا حاول الغناء ، فالتة الموسيقية تحول بينه وبين الغناء وقد يكون مثله الطبال .

وقد أوردت المصادر المملوكية أخبار التلحين والموسيقى متناثرة فنكرتها عرضاً مع ذكر المغنين والمغنيات ، وفي تراجم الأدباء والفقهاء وغيرهم ، كما أوردت أسماء بعض الآلات الموسيقية كالطبل والمزمار والعود والطنبور والجنك والدف ، ونسب اليها بعض اصحابها ، فقليل : الطبال ، والمزمار والعود وهكذا . وكثيراً ما نلاحظ نسبة بعض المغنيات الى ماكانت تجيده من آلة موسيقية خاصة العود ، فقليل العرايدة والطبالمة . وان دل ذلك على شيء فانما يدل على وجود نوع من التخصص في آلة بعينها ، وان وجد من نسب الى الموسيقى دونما تحديد لنوع ما يجيد من آلة فيقال : الموسيقى ، والعاذف ، وهكذا .

ولا شك ان الموسيقى كانت من أهم وسائل الطرب والسرور فيقول ابن خلدون : « ان النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب » .

ويبدو انه في عصر المماليك كان هناك ما يعرف بالانتساب الى معلم يعلم الموسيقى ، فيقول ابن خلكان : « لما اتقنت العلوم الرياضية ، تاهت نفسى الى الاجتماع بالشيخ كمال الدين بن يونس فسافرت الى الموصل واجتمعت به وعرفته قصدي فقال : تريد اى الفنون ؟ فقلت الموسيقى ، فقال : منصلحة فقرأت عليه أكثر من أربعين كتاباً فى مقدار سنة ، وكنت عارفاً بها ، لكن كان غرضى الانتساب اليه » .

وكان كمال الدين الادفونى وهو صاحب كتاب الطالغ السعيد وكتاب الامتاع فى احكام السماع ، وهو من الفقهاء « له خبرة بالموسيقى وميل الى سماع » .

وقيل عن شهاب الدين الأذرعي الإمام (ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م)
الذي أصبح من ندماء الملك المؤيد شيخ « وكان يجيد قراءة المحراب
الى الغابة وكان لصوته نداوة وشجاوة ، وكان يشارك في نأدية
الموسيقى » . كذلك ممن عرف الموسيقى من الأئمة كمال الدين محمد
بن عبد الواحد ، المعروف بابن الهمام (ت ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م) .

هذا وقد أوصى أحد الصوفية وهو محمد بن عبد الله الصوفي
بهاء الدين الكازروني (ت ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م) بأن يخرجوا به
الى قبره بالدف والشبابة ، كما عرف الموسيقى بعض من كانوا
يقراون على القبور فذكر ان صالح بن محمد بن عربشاه الهمزاني
(ت ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م) « متواضع يدرى الموسيقى » .

وكان بعض الأدباء والشعراء يتعلمون الموسيقى ، ويبدو ان
ذلك كان بغرض الامام بأعراف العصر ، وكنسوع من الهوايات
المبهجة .

بل كان منهم من يعرف الموسيقى وينظم الشعر ويلحنه ، مثل
شمس الدين محمد بن علي بن عمر المازني الدهان (ت ٧٢١ هـ /
١٣٢١ م) .

كذا أحمد بن كامل الثعلبي القوصي المنعوت بالصلاح
(ت ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م) « وكان يعرف شيئا من الموسيقى ، وله
أبيات لحنها ونظمها وغنى بها (٣٦) » .

وممن حذق في الموسيقى يحيى بن عبد الرحمن الجعبري -
قيل الجعفري - نظام الدين المعروف بابن النور الحكيم (ت ٧٠٧ هـ
/ ١٣٠٨ م) « وكان حاذقا بالموسيقى فكان قوصون يستدعي ذلك
منه خلوة » .

وكان ابن حبيب الصفدى (ت ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م) « مستترا بالخلاعة ، والنفخ فى المواصيل والضرب على الدف حينما كان فى الأسواق والمحافل » .

وقيل ان القان غياث الدين أحمد بن الشيخ أويس صاحب بغداد « يحب اللهو والطرب ، ويحسن تأدى الموسيقى الى الغابة ، وله فيه أيضا التصانيف اللطيفة » .

ومن الوعاظ شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن المسادح المعروف بالقرداح أو ابن القرداح (ت ٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م) « كان طيب النغمة عارفا بالموسيقى يجيد الأعمال ويقتنها ، ولا ينشده غالبا الا معربا ٠٠٠ وكان يعمل الألحان وينقل كثيرا منها الى ما ينظمه فاذا اشتهر وكثر استعمل غيره » . كما اشتغل بالموسيقى وعرف منها شيئا صالح بن عبد القوى بن على الاسنائى المعروف بالتقى ابن الثقة الاسنائى (ت ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م) .

وفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) مات الاستاذ ابراهيم بسن باباى العواد « وقد انتهت اليه الرياسة فى الضرب بالعود ، وكان أبى النفس من ندماء السلطان » المؤيد شيخ مقربا عنده .

وممن كان يضرب العود أيضا ولكن سرا الطبيب الأديب محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير ناصر الدين (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) .

كما عانى ضرب العود أيضا محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) فنبغ فيه . وكان الأمير ملكتمر الناصرى الحجازى « يحب اللهو ويعزف الموسيقى » . كما اتقن الموسيقى كذلك أحمد بن يحيى شمس الدين السهروردى (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) .

ولعل من أشهر من ضرب العود فى عهد السلطان الناصر بن قلاوون هو على بن عبد الله الماردينى ، وكان من مماليك صاحب ماردين « وكان يضرب العود فبلغ الناصر بن قلاوون خبره فاستهداه من صاحبه فى سنة ٧٢٨ هـ فحظى عنده الى الغاية ، فلما مات الناصر تاب من ضرب العود وكسر آلاته مع أنه كان لا نظير له فيه » .

ويذكر الادفوى فى ترجمة ابراهيم بن محمد الثعلبى الادفوى (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م) انه « كان فى عتقوان شبابه يضرب بالوتر ويغنى بين أصحابه غناء يشجى السامع ويضطرب السامع » (٣٧) .
ونظنه العود لأنه من أكثر الآلات الوترية انتشارا .

وكان بعض السلاطين أنفسهم يحسنون العزف كالسلطان المؤيد شيخ الذى كان يحسن أداء الموسيقى . والسلطان الناصر محمد بن قلاوون والسلطان الغورى الذى كان اذا أراد الاستراحة من عناء الملك ، خرج الى قياس الروضة أو قبة الأمير يشبكه وأحضر خواصه وبعض المغنين والعازفين حتى انه من شغفه بالغناء والموسيقى ألف بعض الموشحات والالحان ، التى كان يغنى بها فى عصره (٣٨) .

وفى سنة (٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) ، توفى أحمد جريبات « وكان استاذا فى فن الموسيقى ، وعنده فكاهاة وحسن محاضرة » ، كما توفى سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٨ م ، الأستاذ على بن غانم « وكان علامه فى ضرب الطنبور ومعرفة الأنغام ، وهو الذى اظهر الخفائف النجدية ولحنها فى التلاحين المغربية حتى أبطل بها فن الموسيقى » كما سبقنا الإشارة الى ذلك .

واتضح من خلال المصادر أن العود كان هو الآلة السائدة في ذلك العصر وربما كان ذلك لأنها هي الآلة التي يمكن أن يضرب عليها كل من الموسيقى والغنى والمغنية ، وذلك مما لا يتوافر لآلة أخرى حيث لا يستطيع المغنون والمغنيات استخدامها ، بل تحتاج إلى موسيقى يعزف عليها .

والشائع فيما أوردته المصادر عن الموسيقى ، أنها لا تحدد نوع الآلة التي برع فيها الموسيقى في الغالب إلا فيما ورد في بعض الآلات كالعود والطنبورة على سبيل المثال (٣٩) .

وانشئت هذه الأبيات على ابن دقيق العيد فاستحسنها .

ويستبين مما سبق أن العود كان له شأن كبير في موسيقى ذلك العصر ، حتى خصصت له بعض المؤلفات فصولا كاملة في ذكر العود وتسوية أوتاره ، واستخراج الأدوار منه ، وقيل أن العود الذي يكون خشبه خفيفا ، وطربه رقيقا ، وأوتاره قليلة ، ويستوى دوره ومداره يكون هو العود الكامل .

وقد اعتبر الأقدمون أن أصلح الأخشاب لصناعة العود أربعة هي : الزان والدردار والشريين والجوز . هذا وقد أورد ابن الطحان طريقة صنع العود .

ومما لوحظ أن الموسيقى استخدمت في أغراض متعددة في عصر المماليك بالإضافة إلى الجانب الترفيهي بمصاحبة الفناء أو منفردة في بعض الأحيان بالإضافة إلى اتخاذها وسيلة للترفيه عن المرضى في المارستانات ، كما حدث في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، حيث كانت هناك فرقة موسيقية للترفيه عن المرضى .

والسلطان المنصور قلاوون بعد أن أتم عمارة « البيمارستان للنصوري » « أشرط في وقفه أنه في كل ليلة يحضر من أرباب

الآلات أربعة ، يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء ، وأجرى عليهم الجوامك فى كل شهر » .

ويبدو أن بعض الآلات كانت تستخدم فى حلقات الذكر بالزوايا مما دفع السلطان الظاهر جقمق بأن يأمر بعدم استخدامها فى الزوايا كالمزمار والطار والشعبية ، وهى عبارة عن قصبة قديمة العهد مكونة من أضلاع مضمومة وملتصقة ، وتمتاز برقة الطرب وسرعة المأخذ وحلاوة الصوت (٤٠) . فأصدر السلطان مرسوماً بذلك سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)

وكان المماليك يشجعون الموسيقى العسكرية ، فكانت تدق فى أنحاء القصر بنظام خاص ، وهو ما عرف بنوبة خاتون ، وهم جماعة يدقون الموسيقى ويرأسهم أمير فى يده عصا .

هذا وقد أجزل العطاء لهؤلاء الموسيقيين فكانوا يحصلون على رواتب مرتفعة ، حتى انه قيل ان قارع الطبول كان يصل دخله الى حوالى ستة عشر الف جنيه فى العام . وان كان فى ذلك مبالغة واضحة فان له دلالة على ارتفاع مستوى هؤلاء ومنزلتهم عند السلاطين والامراء .

وكانت الموسيقى تصحب الجيوش وقت القتال ، فتوزع الفرق الموسيقية فى أنحاء المعسكرات ، لما فى ذلك من تحميس للجند وبيت روح الشجاعة فيهم .

وفى أيام السلم تحفظ الطبول فى الطبلخاناة ويشرف أمير علم على شئون الموسيقى فى السفر ، ولها مهتار يعرف باسم مهتار الطبلخاناة ، تحفظ فى عهده جميع الآلات الموسيقية .

وقيل ان اتخاذا الموسيقى فى الجند قديم والأصل فيه « اشارة حاسيات الجند فى اوقات الحرب أو شغل أذهانهم عن الافتكار بالأخطار التى يتوقعونها » .

وكانت الطبول والبوقات تضرب عند استقبال العظماء من ارباب الدولة أو من خارجها . كما كانت الموسيقى تصاحب السلاطين والأمراء أثناء لعب الكرة .

هذا ولم يكن العصر المملوكى عصرا قد شهد الآلات الموسيقية فى تطويرها الحديث ، ولكنه كان على ايه حال عصرا تكاملت فيه آلات موسيقية لا تزال الى اليوم عماد الموسيقى منها العود والطنبور والرباب والبربط(٤١) والكمنجة والكنسارة (السمسمية) والقانون أو السنطير وتلك جميعا من آلات الطرب الوترية التى استخدمت فى العصر المملوكى .

هذا الى جانب استخدام آلات أخرى كالطبل والمزمار والرقى والساجات والنقارات والشبابية أو القصبة ، والشعبية السابق الاشارة اليها .

وهكذا كانت هذه الآلات كلها وغيرها مما هو قريب منها مستخدمة فى العصر المملوكى لم يبتدعها هو وانما ورثها عن عصور سالفة ولكن هذا لا يعنى انها كانت هى بحجمها وهيئتها ، فلا شك ان العصر المملوكى ذا الترف والجاه والبذخ قد اضافة اليها جديدا . وهذا هو ما لم تسعفنا به المصادر المعاصرة ولا تكاد ترى فيها غير اسماء الآلات الموسيقية التى كانت مستعملة فى ذلك العصر المملوكى ، ولا نرى اسما غريبا لآلة من بينها لم تكن من قبل . وينبىء باحتمال الاضافة على ما تمتع به العصر من جاه وميل شديد للطرب وآلاته واربابه .

ويستبين من ذلك ان مصر قد اكتسبت شهرة واسعة في مجال الطرب في عصر المماليك ، بدليل ما ذكر من المطربين وأرباب الآلات الذين وفدوا اليها فقد قدم اليها « كل استاذ صاحب آلة من المطربين وامثالهم من المغاني والملاهي » وثمة دليل آخر ، وهو ما كان ينعم به السلطان على قصاده من الملوك واصطحاب هؤلاء لبعض أرباب الملاهي من مصر الى بلادهم .

وهكذا كانت الموسيقى هي احدى فروع الطرب بعد الغناء فقد أدت دورها الى جانب الغناء في اطراب الناس واستمتاعهم في عصر سلاطين المماليك الى جانب فرع آخر من فروع الطرب وهو الرقص وهذا ما نتناوله فيما يلي .

الرقص :

اما الرقص فكان من وسائل الترفيه التي ارتبطت بمجالس الشراب والطرب في كثير من الأحيان ، فما من شك في أن الرقص كانت لا تخلو منه في الأكثر مجالس الغناء ، غير انا لم نعلم القليل عن غنين ورقصن ، ولكن الرقص كان شيئاً مقصوريا على فئات بعينها تخصصت فيه ، ذلك ما يدل عليه شعر الشعراء في بعض الرقصات ، فهذا صفي الدين الحلبي وهو من شعراء ذلك العصر يصف راقصة تعودت أن ترقص والشراب في يدها .

وما يدل على شيوع الرقص في عصر المماليك أن ابن تيمية قد أشار الى تحريمه (٤٢) وأورد ذلك الشبغ بدر الدين أبو عبد الله بن علي الحنبلي المتوفى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٦ م .

ورغم انه كان هناك راقصات يرقصن في مجالس الطرب ، وحظين بمدح الشعراء ، لكن المصادر لم تبح باسم واحدة منهن ،

وانشغل الشعراء بمدح الراقصات ووصفهن دون الاشارة
لاسمائهن .

وكان هناك الى جانب الراقصات ، راقصون من الرجال
تمتلىء بهم مجالس الطرب ، فكان كثير من الناس يرقصون ، حتى
لو لم تكن حرفتهم الرقص ، وانما يرقصون جلبا للمبهجة والطرب
ومع ذلك يبدو انه كان هناك من الراقصين من الرجال من اتخذه
حرفة له ، يرقص عند الحكام ويتعشون من ذلك فلدينا حكاية
طريفة تشير الى ذلك (٤٣) .

ولعل ذلك يشير الى احترام بعض الرجال للرقص ، في
مجالس الحكام كما يشير الى النظرة الى الرقص واعتباره حراما
حتى لو كان من الرجال .

وقال على بن مقاتل بن عبد الخالق الحموي المتاجر الزجاج
(٧٦١ هـ / ١٣٦٥ م) نظما في راقص مطرب يجمع بين الرقص
والغناء في المجالس (٤٤) .

وقيل ان طاجار المارديني الناصري الذي تمكن في عهد
المنصور ابي بكر « كان مغرما بالرقص ، حتى قيل انه كان ينزل
من الخدمة فيعمل سماعا ويرقص الى ان يجيء وقت الخدمة ،
فيطلع الى القلعة » وقيل انه كان يركب للبريد فاذا نزل ليستريح
قام يرقص الى ان يركب .

وذكر ان ولي الدين الديباجي المعروف بالمنفلوطي وايضا بابن
خطيب ملوي الفقيه المتصوف (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) كان يحضر
السماعات ويرقص احيانا . وكذا الصوفي ضياء الدين المعدي
(ت ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م) كان يرقص في السماع .

وكان قنبر بن عبد الله العجمي الشـرواني (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) وقد تصدر بالجامع الأزهر يحب السماع والرقص وقيل : كان « يميل الى سماع المغاني واللهو والرقص » .

على انه يمكن القول بأن رقص الصوفية ومريديهم انما كان رقصا يدور فى حلقات الذكر وهو ما عرف بالسماع ، فى شكل مجالس ذكر ، وهم قيام يتمايلون فيها بأجسامهم مرددين كلمات الذكر وفى وسطهم كبيرهم ينشد المدائح ، ولعل هذا أشبه بما يحدث فى عصرنا فى موالد بعض الأولياء من اتباع الطـرق الصوفية حتى اليوم .

ويقال ان الشيخ مبارك بن عبد الله الحبشى الدمشقى القابونى (ت ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م) هو الذى احدث ما عرف « باللهجة » فى الذكر ، وحقيقتها انهم يذكرون الى أن يقتصر من لفظ اللجالة على الهمزة والهاء ، لكنهم يبدلون الهاء حاء مهملة فيقولون أح أح ، وما زلنا نرى مثل ذلك فيما يقام من حضرات « مجالس الذكر » فى ريفنا حتى اليوم .

ويظهر انه كان للماليك رقص فولكلورى - اى اقليمى - فنسمع بأن الخاصكية ، وهى حاشية السلطان ، قامت بالرقص فى احدى حفلات السلطان .

كما كان للامة رقصاتهم التلقائية التى يتندرون فيها على بعض الاوضاع أو ارتفاع الاسعار ، أو تسخيرهم فى الاعمال ، كما حدث فى عهد السلطان قايتباى فى سنة (٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م) عندما اشتد غلاء الدقيق والقمح وبيع خبز الذرة ، ولم يكن يباع من قبل فصنف العوام رقصة يرقصونها وهم يتندرون(٤٥) .

ومثل ذلك حدث أيام السلطان الغورى عندما أكثر المماليك من تخزين الدريس - وهو علف المواشى الجاف - وكانوا يمسكون

الناس غصبا لنقل الدريس ، وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك (٤٦) .

وتلك بلا شك صورة تبعث على الأسى والضحك ، خاصة اذا ماتصورنا ظروف العصر ، وما كان يجرى فيه من تلك الأمور ، التى تدل على العسف من جانب الحكومة والسخرية والتهكم من جانب الشعب وتلك من أهم خصائص الشعب المصرى منذ التدم فهو شعب مرح يواجه مشاكله - وان عظمت - بشكل يدعو الى التفاؤل والأمل فى الخلاص .

كما صنف العوام رقصة أخرى وهم يتفرجون على دوران المحمل والسلطان الغورى جالس فى الخرجاه المطلة على الرملة ، وخرج الناس للفرجة على الرماحة وهم يرقصون (٤٧) .

وتلك اغان راقصة لم يعلم لها مؤلف سوى الشعب ، خرجت تلقائية حسب الموقف فى ذلك الوقت ، وذلك يكون ادعى لانتشار مثل هذه الاغنيات لأنها تكون نابعة من الشعب ببساطة شديدة فهو واضعها وملحنها ومغنيها .

وكان السلطان الغورى الى جانب حبه للغناء والموسيقى فانه يحب الرقص أيضا وينعم على من يقوم بذلك بين يديه ، فى موكب العيد من سنة ٩١٥ هـ / ١٥١٩ م عندما خرج السلطان الى قبسة الأمير يشبك الدوادار بالمطرية ، انشرح هناك ومد اسمطة حافلة وحضر عنده جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، ورسوم لبعض الأمراء بأن يرقص فقام ورقص بين يدي السلطان فرسم له بمائة دينار .

وكما سبقت الإشارة الى ان السلطان الغورى كان قد نزل الى المقياس وجلس فى القصر الذى انشأه هناك واستدعى المغانى وأرباب الآلات وانشراح للفياية وفى هذا المجلس رقص بعض

الحاضرين بين يدي السلطان وكان منهم بعض كبار الدولة
والسلطان يضحك على ذلك (٤٨) .

ويمكن ان نتصور ذلك المجلس وما فيه من رقص وحسب
اشترك فيه ارباب الدولة وعلى رأسهم السلطان يشاركونهم
ويستمتع بما يعرض أمامه من رقصات ، وما يصحب ذلك من
مواقف نادرة تدعو للإبتهاج والانشراح .

حتى الفقهاء والشعراء نظموا الشعر في استحسان هذه
المجالس فهذا هو زكريا بن يحيى الدشناوى (ت ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م)
وكان فقيها أديبا يقول في راقص شعرا يدل على إعجابه به وبما
يقدمه من رقص وغناء (٤٩) .

وهكذا استمتع المماليك بالرقص ، وجلبوا الراقصات من
اليهوديات والأرمن ، وضموهن الى الحاشية ، فتسمع عن راقصة
خاصة لزوج طومان باي كما عرف المماليك الرقص الجماعي ، ربما
في الحفلات الرسمية . وبذلك اكتملت أسباب الطرب في عصر
المماليك وهم بلا شك قد اقبلوا على الاستمتاع بمباهج الحياة ثقافة
وأدبا وطربا ولها .

وعلى كل حال فقد شارك الشعب حكامه في كثير من متعهم
في مجالس الطرب غناء وموسيقى ورقصا ، فقد كان معظم هذه
المجالس مفتوحة تقام في مواضع المتنزهات والفرجة ، مما أتاح
لكثير من أفراد الشعب ان يشاهدوا ما يجري من مباهج في تلك
الاجتماعات ، كما انه لا يستبعد ان يكون لأفراد الشعب مجالسهم،
واجتماعاتهم بعيدا عن ذلك الجو الرسمي في حضور السلاطين
والأمراء ، مما جعل الكل في ذلك العصر ينال قسطا لا بأس به من
الترفيه مهما اختلفت الوسيلة .

هوامش الفصل الثالث

(١) يقول في ذلك :

وشرب اراقوا بينهم دم كرمسة
ويائت اباريق المدام لديهم
وقد جعلوا قول العراقي حجة
وغنى بها ساق اغن فزادهم
يلعب فيهم بالكلام تلعبسا
(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٠) .

(٢) يقول :

باكر كؤوس المدام واشرب
ولا تخف للهموم داء
من يد ساق له رضاب
(انظر ، ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، ١٢٨٥ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٠٠)

(٣)

يشرى لاهل الهوى عاشوا به سعدا
شعارهم رقة الشكوى ومذهبهم
عيونهم فى ظلام الليل ساهرة
تجرعوا كأس خمر الحب مترعة

(٤) من شعره :

ومدام وسبب من لام فيها
فى نديم وقينة وحبيب

قائل هذين البيتين هو ، النور أبو بكر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز
الشاعر (ت ٦٥٦ هـ) ، (انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص
٢١٢) .

(٥) ومما قاله ابن المنير :
ليس لا بليس عندنا أرب
حرمته الخمر والحشيش منا
ويقول أبو الحسن الجزار :
قد عطل الكوب من حبابه
وأصبح الشيخ وهو يكي
(انظر ، المقرئ ، السلوك ، ص ٥٥٣) .

(٦) ابن العماد ، شذرات ، ج ٥ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٥ .
يقول ابن الصحاب (ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) في الحشيشة :
يا أهل العقول والاقهسام
وحرمان تحريم غير الحرام
ويقول شمس الدين محمد بن الشيخ التلمساني (ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) :
ما في الحشيشة فضل عند أكلها
حمراء في عينيه خضراء في يده
ويقول عز الدين بن السويدي (ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) يسجل اعتراضه
على تحريم الخمر :

ومسدام حرمتهما نصيام
واقاموا الحدود فيها بلا ح

(٧) ومما قيل في ذلك :
حسا الله الحشيش وأكلها
كما تصبى كذا تصنى وتلقى
وأصدر دائها والداء جسم
(انظر ابن العماد ، شذرات ، ج ٦ ، ص ٢) .

(٨) كان عند النصارى تابوت فيه اصبع يزعمون انه أصبح بعض
شهادتهم وأن النيل لايزيد مالم يرم فيه هذا التابوت ، فتجتمع نصارى مصر

من سائر الجهات الى ناحية شبرا ويخرج أهل الناضرة ومصر وتحتضر
الغاني ويقصف الناس في الفرجة في ذلك اليوم .

(انظر المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٤١) .

(٩) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .
يقول :

لله ساق رشيق القد أهيفه
يسقى معتقه تحكى شمالكه
حبايها نغره والطعم ريعته
كأنما صيغ من در ومن ذهب
أنوارها تزدري بالسبعة الشهب
ولونها لون ذلك الخد شى الذهب

وقال أديب من الاسكندرية يدعو الى شرب الخمر فى الروضة فيتول .
قم نقترع بكر الدامة بكورة
فالأراح سيف قاطع لهمومنا
فى روضة حسنت وراقت منذلما
(انظر ، ابن حجر ، الدرر ، ج ٤ ، ص ٤٤٧ ، ٤٤٩) .

(١٠) فيقول مستخدما التورية .

غنى يا ساقى الراح يها
وأمل لى حتى ترانى ميتا
راحت الخضراء تحكى فعلتها
ليس يفنى فاقتى الا غناها
ان موت السكر للنفس حياها
قتلوا بعد تقطيع قفاها

(١١) ويلاحظ ان بعض المؤرخين قد نسبوا ذلك الملهو والانهماك فى
اللذات الى الملك المنصور عبد العزيز نفسه والصحيح حسب قول ابن تغرى
بردى أن المقصود هو الاتابك بيبرس متولى أمور السلطنة (انظر ، ابن
تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٣ ، ص ٤٤ ، ٤٥ ، نبيل محمد عبد العزيز ،
الطرب وآلاته ، ص ٣٥) .

يقول :

خلى الملوك تسطو بالملك والسلاح
انى قنعت منهم بالراح والسلاح
(انظر ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٣ ، ص ٤٥) .
(١٢) يقول :

كان السراح لما راح يسمى
سفا المريخ فى كف الثريا
ومنه يقول :

مليح قام يجذب غصن بان
وميل الغصن نحو اخيه طيح
فمال الغصن منعطفاً عليه
وشبهه الشىء منجذب اليه

(١٣) حيث يقول

ماقى المدام دع المدام فكل ما
هل المسدوم ولونهم رذالتهما
فى المناس من وندف المدامة فيكما
أسى «قلتيك ووجنيتك وفيك. ما

(١٤) حدث ذلك فى عصر السلطان المؤيد شيخ على يد القاضى جمال
لدين محمد ابن عمر الفوارى (ت ٨١٦ هـ) .

(١٥) قال :

الله ما كنت رفيقا لهم
انما بالشعر نادمتهم
ولا دعنتى للهوى داعية
لاجل ذا ضممتى القافية

(١٦) الموتار . لقب يطلق على كبير كل طائفة من علماء أو خدم البيوت
لسلطانية وهو يترتب من كلمتين .

أولهما : مه ومعناها بالفارسية « الكبرى » وتار بمعنى أفعل
التفعيل ، فيكون المهتار « الأكبر » (انظر التلقشندى . صبح
الاعش ، ج ٥ ، ص ٤٧٠) .

(١٧) فيحكى ان زهير الادهوى - وكان فاضلا عارفا بالعلوم - اجتمع
مع بعض أصحابه يادفون ، وقبالتهم مغنية تغنى فى عرس ، وعندما أبدى
عض الجماعة رغبتهم فى سماعها ، فاعتزل عنهم لحظة ، واذا بالمغنية قد
حضرت عندهم وهم يشاهدونها ، وببدها الدف وهى تغنى .

(انظر الادهوى ، الطالع السعيد ، ص ٢٥١)

(١٨) هو عبد القوى بن محمد بن جعفر الاسنائى (ت ٦٩٨ هـ)
ويعرف بابن معين وناب فى الحكم ودرس بالمدرسة الافرمية بمدينة قوص .

(١٩) يقول العوام :

سلطانا ركسين
يجينا الماء
هاتوا لنا الاعرج
وناييو دقسين
من اين
يجى الماء يدحرج

والمقصود بركين هو السلطان حيث هو لقب بيبرس الجاشنكير وهو
كن الدين أما دقين فيقصد بها ، الامير سلار الذى سماه العوام برذا الاسم
أما الاعرج فيعونون به الملك الناصر محمد فقد كان به بعض عرج فسماه
العامة الاعرج .

(٢٠) وقال فى ذلك :

ادخلى تدخلى علينا سرورا
لا تميلى الى الخروج سريعا
انت والله نزهة العشاق
تخرجى عن مكارم الاخلاق

(٢١) وفى ليلة من ليالى طرب هذا المغنى يقول علاء الدين الوداعى :
وليلة ما لها نظير
كم نوبة للفصيح فيها
فى الطيب لو ساعفت بطول
أطرب من نوبة الخليل

(٢٢) يقول فى جارية مغنية :

وجارية مغنية بلطف
فغنت ثم رقت لى بوصل
على الايقاع بالكعبين دقت
فقطت قطعتها من حيث رقت

واقبل بن يعقوب فيمن يعزف بالشبابية .

فشيب شيب فى صناعته
كان انفاسه لآلته
ريحانة الوقت منشىء الطرب
روح تثير الحياة فى القصب

انظر ، بن حجر ، الدرر ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢٣) الكوسات : لفظة فارسية معربة ، وهى الطبول الصغار ، وهى صنوجات من نحاس تشبه المترس الصغير يدق باحدها على الآخر بايقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسى ، وكانت من رسوم الملك وآلاته فى العصور الوسطى وكانت امرة الطبلخاناه من الرتب العسكرية لضرب الآلات .

(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٢٩٨ ، حاشية ٢) ولعل ذلك يشبه فى عصرنا اليوم فرق الموسيقى العسكرية التى تعزف موسيقاها الخاصة فى المناسبات ، مستخدمة الآلات النحاسية المختلفة .

(٢٤) وقيل :

كل الملوك تسطو
وانا قنعت منه
بالمسك والسلاح
بالراح والمسلاح

وقيل أيضا فى المعنى :

قالوا رأيناك كل وقت
فقلت انى امرؤ قنوع
تهيم بالشرب والغناء
اعيش بالماء والهواء

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩٤) .

(٢٥) وزفتنا : كتبت هكذا بالالف عند ياقوت الحموي ، أما ابن دقماق
في كتابه (الانتصار ، ج ٥ ، ص ١٠٩) فقد كتبها زفتى (انظر المقرئى ،
سلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٦١٧ حاشية ١) .

(٢٦) ومن الطريف ان حادثة ابن الجمال واخيه وقعت حين كان يغنى
ببيت الجمال هذه الابيات .

ولا فادنى منه فن	تغنيت في حبكم
وجزت يوادى محسن	وخضت بحار الهوى
ومثلى بكم من يجن	وقالوا به جننة
ومثلى بكم مقتن	فؤادى بكم هاييم
فؤاد كثير الشجن	اغنى ولى فيكم
ويرقص حتى السكن	سيطرب من فى الحمى

فلما وصل فى غنائه الى قوله : « ويرقص حتى السكن » سقط البيت على
من فيه .

(٢٧) وله نظم منه :
قتلتنا سسوالف وهدود
اسرتنا المظايا وهن شعاف
وعيون نواعس وقسدود
فخضعنا لهن ونحن أسود

(٢٨) ذكر المقرئى فى خطته : أن منشأة المهرانى تقع بأول بر الخليج
لعربى وذكر ابن دقماق فى الانتصار ، عند كلامه عن جامع الفخر انه يقع
آخر الروضة عند المنيل تجاه طرف منشية المهرانى ، اما على مبارك فى
الخطط فقال انها كانت تقع عند قنطرة السد وكان موضعها يعرف بالكوم الاحمر
(انظر ، المقرئى السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣٠٣ ، حاشية ٥) .

(٢٩) وقال فيها بعض الشعراء :
جارية تخفى الشموس جمالها
يقعد خايلت بالبدر ليلسة تمسه
لها حسن انشاء تزين مقالها
فما زال من عينى وقلبى خيالها

(٣٠) أصل أوتاق بالتركية موقد النار ، وتقال على الدار والمخيم .

(٣١) يقول الشاعر :
مجلس راق من واث يكدره
ما فيه ساع سوى المساقى وليس

ومن رقيب له فى اللوم ايلام
به على الندامى سوى الريحان تمام

(٢٢) رماه ابن اياس بقوله :
توهى نزهة الاسماع طورا
وناهت بهمداء الآذنت حزنا
وابدى الدف والموصول زعفا
واضحى الغاز فى قلاق ونم لا

وصار انعين منا فى ذهاب
وانهت الصراخ مع انتخاب
كمن جاء الماتم فى المصاب
وند ضاق الوجود بلا رحاب

(٢٣) قال فيها المشهاب المصورى :
وقفاة نزهت طر فى قديها
مذ زارت محبها وتغننت

شذفت مسمعى بجوهى فيها
كناذ يرمى بنفسه من أبيها

(٢٤) يقول ابن اياس .

« فامر كاتب السر سكان البركة بان يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة
وشرع يرسل لكل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت وحبلية نيهما اكل فاخر
من طعام ذلك المهم ، فاحتفلوا فى الوقدة وعلقوا فى الطيقان الاحمال
والتنافير والامشاط معمرة بالقناديل حتى كانت البركة تضىء بالنور واحرق
حراقة نطف حافلة لم يسمع بمثلها حتى خرجت البنت من خدرها بسبب
الفرجة على ذلك » .

(٢٥) يقول :

« واجتمع بالبركة نحو اربعمائة مركب مسوقة بالخلائق ، وصار ابن
رحاب المغنى عمال فى كل ليلة ، وسائر مغانى البلد من رجال ونساء
وانطلقت السنة النساء بالزغاريت » .

(٢٦) قيل :

عشى اليك تحية وسلام
وتارجت فى ابكها قمية
ذائن هدانى من زيارة داركم
فانا محبكم السدى ما غيرت

ما نأح قمرى وفأح خزام
وشدا على اذلى الغصون حمام
عاده وحالات بيننا اللوام
عهدى الليالى لا ولا الايام

(٢٧) هذا ومما قيل فى العود شعرا من نظم احمد بن يوسف بن يعقوب
الطيبى شمس الدين كاتب السر (ت ٧١٧ هـ / ١٣١٨ م) .
من اين المعود هذا المصوت تطرينا
اقلن حين نشا فى الودج على
(انظر ، ابن حجر ، ج ١ ، ص ٣٤١ ، ٣٤٣) .

(٣٨) يقول :

بالمالك انعم ربنا الرحمن
قله علينا الشكر حق واجب
وهو الكريم المنعم انسان
يتضيقه قلب مخلص ولسان

(٣٩) قال احد الشعراء فى عوادة (وهى الجارية التى تضرب على
العود) :

غنت فالقت صوتها فى عودها
هيفاء تامر عودها فيطيعها
فكانما الصوتان صوت العود
ابدا ويتبعها اقباع ودود
وتخانما الصوتان حين ثمازجا
نبت النمامة وابنة العنقود

(٤٠) ويقال انها سميت كذلك لكونها قد تكونت من شعب متفرقة من
الغاب فصارت مجموعة ملتصقة بخلاف سائر آلات الطرب . (انظر ،
المشهدى كشف الهموم ، ق ١٤٨ ب ، ١٤٩ ا .

(٤١) البريط ، لفظ فارسى معرب معناه ، صور الاوز لانه يشبهه وهو
فرع من عود الايقاع (انظر ، حسن حسنى عبد الوهاب ، ورقات عن
الحضارة العربية الافريقية التونسية ، تونس ١٩٦٠ ، ص ١٧٦) .

(٤٢) يقول :

والراقصات وقد شدت مآزرها
ترعى الضروب بكفيها وارجلها
على خصور كاوساط الدنانير
مايلحق النحو من حذف وتغيير

(٤٣) وهى أن الشيخ الغبارى (ت ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م) « باع دابة
لرجل فاقامت عنده أياما لاتاكل عنده شيئا فجاء اليه واخبره فقال له الشيخ
ما صنعتك قال رقاص عند الوالى ، فقال ان دابتنا لا تاكل الحرام ثم رد اليه
دراهمه » .

(٤٤) ومنه .

ياموتها يامطربا غنى لنا
فلقد رهيت مقاتل الفرسان
انعم لآخوان الصفا بتلاق
بسيف يديك عند مصارع العشاق

(٤٥) وكانوا يقولون :

زوجى دى المسخرة
يطعمنى خبز النذرة

(٤٦) صنف العوام .

اهرب يا تعيس والا يحملوك الدريس

(٤٧) قائلين :

بيبع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيبع لى لصفى ذى الخمسل حتى أرى شكل الحمل

(٤٨) « ٠٠٠ » وقام شخص يدعى على باى فرقص « ثم سحب الوالى
كرتباى فرقصه ، تم سحب يد آشور ثانى أقبال الطويل فرقصه ، ثم سحب
بركات بن موسى المحتسب فرقصه ، ثم سحب عبد العظيم الصيرفى فرقصه ،
وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، ونثر الورد والزهر والفاكهة ومجامع
الخلوى فتخاطف المالك ذلك » .

(٤٩) قيل .

يامن غدا الحسن اذ غنى وماس لنا
قاسوك بالغصن رطبا والهزار غنا
قد تسجع الورق لكن غير داخله
مقسما بين ابصار واسماع
وما تقاس بمياس وسجاجع
وترقص البان بل فى غير ايقاع

* * *

الالعاب الرياضية

الفصل الأول : الفروسية والرماية

الفصل الثاني : الصيد والقنص

الفصل الثالث : العاب الكرة والسباحة والالعاب الأخرى

الفصل الأول

الفروسية والرماية

ما من شك في أن المماليك كانوا يحبون الرياضة حبا كبيرا ،
تلك التي كانوا يمارسونها في الطباق (أي في المدارس الحربية)
والواقع أن الرياضة أصبحت فنا علي أيديهم ، وأخذت أشكالا
متعددة ، فأصبحت - بسبب تقديرهم لها - تخرج لها مواكب رسمية
وإن عزف عنها بعض السلاطين ، فإنها كانت لا تلبث أن تعود
وذلك دليل على حيوية المماليك .

والفروسية كانت إحدى هذه الرياضات المهمة التي لا يمكن
لملوك مهما كان أن يتجاهلها ، أو لا يمارسها ساعد على ذلك تلك
النشأة العسكرية للمماليك في ذلك الجو الحربي ، فإن كان بعض
السلاطين قد أهملوا بعض الرياضات أو نقضوا مياديتها فإن
الفروسية بالذات ظلت طوال العصر المملوكي الرياضة المتميزة ،
حتى أصبح من لا يجيدها من المماليك محل مؤاخذة من الأمراء
والسلاطين .

فكان المملوك لا يصل إلى مرتبة سيده إلا بعد أن يتربى تربية
عسكرية ويتلقف تثقيفا عاما في مدارس خاصة أعدت لهذا الغرض
ثم بعد ذلك يلحق به جيش سيده ويتدرب على رمي النشاب واللعب
بالرمح وركوب الخيل ، خاصة أن نظام المماليك قام على أساس
الغلبة للقوي فكان يصل إلى السلطنة أعظم الأمراء نفوذا وأكثرهم
اتباعا .

وقيل عن الرمي بالنشاب « كانت هذه الصناعة من أهم الأمور وأشرفها وأعزها وأكرمها ، وهى عدة لدفع كل شدة يوم التلاق » .

والفروسية فى عهد سلاطين المماليك كانت من ألزم الأمور التى يجب أن يتحلى بها السلاطين - ان لم يكن كل المماليك كما سبقت الإشارة - فيقول العيني فى ذلك : « اعلم أن الفروسية أمر عظيم فى الشجعان والأبطال ، ولا سيما فى الملوك والسلاطين ، فالسلطان اذا كان فارسا عالما بآداب (١) الحرب بصيرا بحيلها ، لا يزال أمره غالبا وصيته بعيدا فى البلاد ، ويكون أميراً لجنده وعسكره ، فارقا بين فارسه وغير فارسه ، فيقدم من يستحق التقديم من الفرسان ويؤخر من يستحق التأخير من غيرهم ، وبه ينتظم حال عسكره ، ويستقيم أمر جنده ولاسيما عند الحروب وتسوية الصف » .

ويضيف العيني موضحا أهمية الفروسية فى عصره قائلا :

« واذا كان السلطان غير فارس ، فلا يعرف الفارس من غيره فيختل به نظام عسكره ، ويكون فساده أكثر من صلاحه » .

وأكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيل وآداب اللعب بالرمح كثيرة ومن جملتها تدب يشتمل على اثنتى عشرة منزلة ، وهى : أول المنازل والترتيب والفتح والكشف ، والمقص ، والكلاب البرانى ، والكلاب الجوانى ، والكلاب الميمنة والكلاب الميسرة ، والسلسلة ، والسبيرة الطويلة ، وحفظ الفارس (٢) .

ولما كان عماد الفروسية ، الفارس والفرس ، فقد شغف سلاطين المماليك بالخيل ، وكان أشهر السلاطين شغفا بها هو الناصر محمد ، فقد عنى بشراء الخيل العربية الأصيلة ، وبذل فى ذلك

الأموال الضخمة ، حتى كان ثمن الواحد منها أحيانا ثلاثين ألف درهم ، وكان يخلع بعضها على الأمراء الذين يأنس فيهم الولاء ، وعلى أفراد حاشيته المقربين له وصارت من عاداته فقد « جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين في كل سنة : الأولى عند خروجه الى مرابط خيوله على القرط في أواخر ربيعها فينعم على أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم . والمرة الثانية عند لعبة الكرة بالميدان وكذلك يرسل الى نواب الممالك الشامية كل أحد بحسبه .»

وقد اعتمد المماليك على الخيل في حروبهم ، وصارت الفروسية في عهدهم فنا عظيم الشأن ، وأفردوا لدراسته الكتب والرسائل الكثيرة - كما سبقت الإشارة - وكان للاصطبلات السلطانية ادارة خاصة عرفت باسم « الركابخانا » وهي من أهم البيوتات السلطانية ، فقد كان عدد الاصطبلات التابعة لها وفيرا .

وبلغ من عناية المماليك بالخيول واختصاصهم بها ، انه في سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م ، نودى بالقاهرة ومصر « أن أحدا من المتعممين لا يركب فرسا سوى الوزير وكاتب السر وناظر الخاص ، والبقية يركبون بغالا ، وإن الطحانيين لا يخلون عندهم فرسا صديحا سالما ، ولا يركب الخيل أيضا فقيه ولا جندار ولا أحد من العوام » .
وفمن عنده فرس أخذ منه .

كما أن المماليك أيضا اهتموا باللوان الخيل التي يركبونها واعتبروها ضرورية بالنسبة للفرسان ، وقادة الوحدات العسكرية، وأحيانا كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم ، حتى جرى العرف أن يكون ركوب الأدهم أي الأسود يوم السبت ، ويوم الأحد للابيض الذي كان يعرف بالبخين .

البوز ، ويوم الاثنين كان للاخضر ، والثلاثاء للكميت وهو الأحمر ،
والأربعاء للابلق ، وهو ما كان يياضه بين بين ، ويوم الخميس
للاشقر ، ويوم الجمعة للمحجل ، وكان لهذه الألوان علاقة
بالتفائل :

هكذا ترى أن أيام الممالك كانت كلها ركوبا ، وبلغت العناية
بالخيل في عهدهم ، مبلغا كبيرا الى حد المبالغة أحيانا حتى انهم
كانوا أحيانا يعلقون حرزا يشتمل على بعض آيات القرآن على الخيل
بغرض حراسته مما جعل الشيخ عز الدين عبد السلام يفتى بأن
ذلك بدعة وتعريض للكتاب العزيز .

أما التعليم الحرى للمملوك فى الطباق فلم تفرد المصانيد
التاريخية وصفا تفصيلىا قائما بذاته له ، سوى ما أورده المقرئى
فى الخطوط من حيث انتقال المملوك من التعليم الدينى الى هذا النوع
الثانى من التعليم عند سن البلوغ حين يأخذ فى المران على أنواع
القتال من رمى السهام ولعب الرمح .

غير أن المؤلفين فى الفروسية ، ومعظمهم أساتذة فى فنونها
المختلفة ، وكذلك مؤلفو كتب التراجم والتاريخ وعلى الأخص فى
العصر المملوكى الأول ألقوا ضوءا جديدا على هذا النوع من التعليم
عند الممالك ، وأول ذلك أن الفروسية شملت المهارة فى ركوب الخيل
واللعب بالرمح والحدق فى الرمى والضرب بالسيف وسباق
البرجاس والمحمل ، ولعب الصولجان ، واستعمال الدبوس والمران
على المصارعة وسباق الخيل . وأن المملوك لم يتعلم جميع فنونها
وفروعها فى الطباق ، بل اقتصر تعليمه على استعمال الرمح
والقوس والسيف وركوب الخيل فقط على أيدي معلمين
متخصصين .

وكان السلطان يشاهد المماليك فى الطبايق أو فى الميادين ،
وهم يتمرنون على أنواع الفروسية ، مثل ركوب الخيل بدون سرج ،
أو اللعب بالرمح عن طريق الطعان ، أو الرمي بالنشاب وهى
السهم ، أو القتال بالدبابيس ، وهى أعمدة لها رؤوس مخرسة ،
أو اللعب بالسيف أو المصارعة حيث كانوا يتعلمون كل هذا فى
الطبايق - كما سبقت الإشارة - فكان السلطان يمنع من يتفوق منهم
الخلع ويشجع الرهان على الفائزين .

كما كان بعض الامراء يقومون بعرض أجناد الحلقة فى غيبة
السلطان ، وفى سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م « جلس الأمير مقبل
الدوادار ، والقاضى علم الدين داود ناظر الجيش ، بقلعة الجبل ،
لعرض بقية أجناد الحلقة ، من غير أن يحضر السلطان .

وكان المملوك يتم تعليمه بقية فنون الفروسية بعد عتقه وتخرجه
من الطبايق جنديا ، هذا وقد وردت فى كتب التراجم اشارات مبعثرة
عن المعلمين الذين تولوا القيام بمهمة تعليم المماليك سواء فى الطبايق
أو غيرها ان اقترن لفظ الفروسية بالفاظ معلم وأستاذ ورأس واليه
المنتهى فى ذلك .

ومثال ذلك سيف الدين سودون بن عبد الله الظاهرى ، الأمير
أخو الكبير المعروف بسودون طاز (ت ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م) الذى
كان (رأسا فى لعب الرمح ، يضرب بقوة طعنه ، وشدة ثباته على
فرسه المثل ، وأما سرعة حركته وحسن تسريحه لفرسه فى ميادين
اللعب بالرمح فاليه المنتهى فى ذلك) .

وكذا قرقماس المسمى الظاهرى المعروف بالمعلم ، وكان أخذ
امراء العشرات « وكان عارفا بقنون الرمح علامة فى ذلك » .

وكان السلطان الظاهر بيبرس حاذقا فى رمى السهام ، حتى أنه فى المحرم من سنة ٦٦٦ هـ عندما احتفل برمى النشاب ولعب الرمح صار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة ، فلا يركب منها الا العشاء ، وهو يرمى ويحرض الناس على الرمى والنضال ، فما بقى أمير ولا مملوك الا هذا شغله ، وأقبل الناس على الرمح ورمى النشاب .

وبلغ من عناية بيبرس بالرماية أنه أقام لها ميدانا خارج باب النصر كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق وهو ما سوف نشير اليه عند تناول لعبة القبق فيما بعد ، فكان هذا السلطان مشهورا بالفروسية .

وكان السلطان الظاهر بيبرس يصنع فى رنكة سبعا ، اشارة لفروسيته وشدة بأسه ، وهو أول من أحدث اللعب بالرمح فى موكب المحمل وكسوة الكعبة .

وبعد أن عقد السلطان الظاهر بيبرس الهدنة مع الفرنجة وهو فى الشام ، خرج أهل عكا لمشاهدة العسكر « فركب السلطان ولعب هو وجميع العسكر بالرمح » .

وهنا يبدو الجانب الترفيهى بالنسبة للجند ، وتظهر أهميته ومدى اهتمام السلطان بجنوده ، حتى يشاركونهم اللعب بالرمح ، لما فى ذلك من أثر فى نفوسهم ورفع معنوياتهم .

وبلغ من شغف السلطان بيبرس بالفروسية والرماية أنه كثر اشتغاله بعمل النشاب بيده ، فاقترنتى به الأمراء والخوادم ، « وكتب الى ابنه الملك السعيد ، وسائر النواب بذلك فلم يبق أحد الا وهو متوافر على العمل ، فيجمل السلطان جملة نشاب بيده ، نجتها وریشها؛

وفصلها « وكان ذلك فى شوال سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧٢م ، ابان حرب
التتار فى عهد أبغا بن هولاكو » .

وأمر السلطان بلبس العساكر فلبسوا عدد الحرب ولعبوا فى
الميدان خارج دمشق وكان رسل الروم يشاهدون ذلك .

وكان ذلك يجرى ايضا أثناء شهر رمضان ، فقد رسم للعسكر
بالتأهب للعب القبق ورمى النشاب ، فركب من كل عشرة فارسان
فى أحسن زى وقت الحرب ، وركب السلطان فى مماليكه ودخلوا
فى الطعن بالرماح ، « ثم أخذ السلطان الحلقة ورمى النشاب وجعل
لمن أصاب من الأمراء فرسا من خيله الخاص » . واستمر ذلك أياما
تارة يكون اللعب نبيها بالرمح وتارة بالنشاب وتارة أخرى
بالدبابيس .

وحدث أن ساق السلطان يوما على عادته فى اللعب ، وسل
سيفه فسلبت مماليكه سيوفها ، وحمل هو ومماليكه الخواص حملة
رجل واحد واصطدموا « فكان منظرا مهولا » .

أما الملك المنصور حسام لاجين فكان موصوفا بالفروسية
« مقدا على أقرانه فى الفروسية وأعمالها » .

وكان ممن برع فى الفروسية من أولاد السلاطين ، أنص بن
العادل كتبغا ، الذى لقب بالمجاهد ، فقد مهر فى الفروسية ورمى
النشاب « حتى صار أوجد عصره فيه » ويقال أنه رمى على قوس
زنة مائة وثمانين رطلا . وقيل ان سلاله التتري المنصوري من خواص
السلطان الأشرف خليل كان لا يتحرك على ظهر فرسه اذا ركبه .
الأمير عنبر السحرتى الناصرى الذى أمر طبلخاناه ، كان يعانى
الفروسية ويكثر من لعب النشاب .

ويبدو أن رمى النشاب وركوب الخيل كانا لايتوقفان عنيب
سن معينة فقد رمى النشاب وركب الخيول بعض الممالك المعمرين
مثل طقضبيا الظاهري (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٥ م) الذي
دخل في الهرم وجاوز المائة وهو يرمى النشاب ويركب الخيل ، وكذا
قراطاي الأشرفي الجوكندار (ت ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م) الذي امر
بدمشق سنة ٧٢٦ هـ / ثم أعيد لنيسابطة طرابلس ، وكان مشهورا
بالفروسية .

وفي عهد السلطان الأشرف شعبان صار التناقص في ألعاب
الفروسية بين الممالك السلطانية والممالك اليلبغاوية ، وأصبح ليس
هناك للناس شغل سوى التفرج على المقاتلين من الفريقين على
شاطيء النيل ، وأغلقت أسواق القاهرة لذلك ، وصار الأمير قجماس
الحلازى يمر في قارب لطيف ومعه طائفة ، حتى يقرب من البر ويرمى
بالنشاب فيرموه أيضا ويتسابقوا ، وسبح العامة في النيل حتى
وصلوا الي السلطان وهم يهتفون « السلطان منصور » فأخذ يضعف
أمر يلبغا .

أما السلطان الظاهر برقوق فقد مهر في الفروسية خصوصا
في رمى الرمح ، ففي ربيع الأول سنة ٧٨٠ هـ ابتداء في اللعب بالرمح
والزم الممالك بذلك . وفي ربيع الآخر من نفس السنة لعب الملك
الظاهر برقوق بالرمح مع بعض مماليكه الجلبان « فأشيع أن السلطان
قال لمملوك اطعن السلطان في جفن عينه الأعلى . »

ويدل ذلك على تمتع الملوك والسلاطين بالروح الرياضية
العالية وهي تقبل الهزيمة بصدر رحب ، كما يدل على شخصية
السلطان القوية وتبسطه مع مماليكه ، وعلى جدية القصد من هذا
اللعب بإزالة الخوف من روح الشخص المنازل للملك .

ورغم شغف السلطان برقوق بالرماية والفروسية ، فقد أبطل الرماية في ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩م عندما بلغه أن الأمير يلبغا الناصري قد أبطل المكوس التي بالشام .

ففي عهد الناصر فرج توفى الأمير سيف الدين قرقماس الاينالى الرماح سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م ، من جملة الطبلخانات ، وكان رأسا في لعب النرمج ، وكذا الأمير سيف الدين فارس بن عبد الله القطلجاوى نسبة للمتاجر الذى جلبه من بلاده ، وكان من الشجعان الفرسان المغدودين الذين يضرب برميهم المثل (ت ٨٠٢ هـ / ١٤٩٩م) .

ولما كثر خروج السلاطين فى المواكب التى تضم الفرسان وآلات الجرب والرمى أصبحت تميز مواكب الحرب عن مواكب السلم ، فكانت تستخدم راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تعرف بالجاليش فى حالة الخروج للحرب أما مواكب السلم فكانت تخلو من هذه الراية .

وفى جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩م جلس السلطان الظاهر برقوق وأنفق على ممالك الأمراء الطبلخانات والعشرات لكل واحد منهم أربعمئة درهم وكذا أرباب الوظائف وغيرهم ، فرق بينهم القسى والنشاب لمن يحسن الرمي ، كما كان قد سبق أن أنفق على جماعة من الأجناد البطالة وأعطاهم القسى والنشاب ، وأمرهم بأن يكونوا على شرايف القلعة ، كما أمر باحضار رماة قوس الرجل من الاسكندرية .

ولما حضر رماة قسى الرجل فى جمادى الآخرة من نفس السنة نزل السلطان والخليفة من الطلعة ، وكان عددهم نحو الثلثمائة رام ومعهم قصبيهم محملة على الجمال ، ففرق فيهم مائة درهم لكل واحد .

والمقصود بقسى الرجل : الرماة الذين يستخدمون أقدامهم فى الرمى بالقوس .

أما السلطان المؤيد شيخ الحمودى فيقول عنه العيني :

« ان ذكرت الرماة فهو أحسنهم ، وان ذكرت الرماحين فهو أحملهم ، وان ذكرت السيفيين فهو أقواهم وأعدلهم » .

وقد استحدث المؤيد شيخ بالقلعة مكانا لرمى النشاب وعرف بمرمى النشاب كان يرمى فيه بالنشاب ، وكان يخرج الى شاطئ النيل ويشاهد المماليك السلطانية وهم يلعبون الرمح بناحية بولاق ، مع أنه كان فى ذلك الوقت لا ينهض أن يقوم ، بل يحمل على الأعناق ، وشاهد الناس فى بولاق أياما وليالى لم يسمع بمثلها كما كان يتوجه الى الميدان لعرض الرماحة أمامه ، ويقول عنه المؤرخون انه تعلم الفروسية من اللعب بالرمح ورمى النشاب والضرب بالسيف ومهر فى جميع ذلك عندما كان عند برقوق بعد أن قدمه تاجره محمود اليه فى أول حياته .

وفى عهد المؤيد شيخ توفى عز الدين بن جماعة (ت ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م) وهو من أشهر علماء العصر الى جانب معرفته بالفروسية والرمح والنشاب والدبوس .

وفى عهد الأشرف برسباى كان زين الدين فارس الطواشى الخازندار (ت ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م) وكان يرمى النشاب « الى غاية ما يكون فى الحسن » الى جانب اشتغاله بالعلم .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م توجه السلطان الأشرف برسباى للرماية على عادته فى ذلك ، فاعترضه العوام وشكوا اليه عدم الخبز فى حوانيت الخبازين ، ولكن السلطان « لم يعبا بهم ، بل ولا التفت اليهم » .

ولعل ذلك يوضح أن بعض السلاطين لم يكن لهم اهتمام
بمشاكل الرعية بل كان جل اهتمامهم بمتعاتهم الخاصة وممارستهم
الألعاب ووسائل الترفيه .

وكان السلطان جقمق « عارفا بأنواع الفروسية » وفى سنة
٨٥٢هـ توفى شهاب الدين أبو الفضل ابن حجر « وكان له مشاركة
جيدة فى الفقه والتاريخ والأدب محسنا لفنون الفروسية » .

أما الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا فقد حذق فى بعض الصنائع
« بحيث صار يعمل المقسى الفائقة بيده ويعمل السهام عملا فائقا ،
ويرمى بها أحسن رمية مع الفروسية انتامة » . وقيل : كانت تنسب
إليه أشياء كثيرة من آلة الحرب ورمى الشباب ، ولعب الرمح .

وكان الأشرف قايتباى يحرص على تعليم الفروسية فى عهده
لفئات كثيرة من الشعب وليس المماليك وحدهم حتى انه فى صفر سنة
٨٧٣هـ / ١٤٦٩م أوقف صرف جوامك أولاد الناس وجماعة من الفقهاء
والمتعممين ، « وأحضر اليهم بقوس ثقيل ومع نشابة طومار » وامتحن
هؤلاء فكان يدفع الى كل منهم ذلك القوس الثقيل والنشابة « فكل من
لا يقدر يسحب ذلك القوس يقطع جامكيته » وعجز بعضهم عن ذلك
فوبخهم السلطان وقطع أرزاق جماعة كثيرة منهم .

وقيل انه فعل مثل ذلك مرة أخرى فى ربيع الآخر من نفس
السنة وفى ذلك يقول المؤرخ ابن تغرى بردى « وألزمى بحضورها ،
فحضرتها - يقصد ذلك الامتحان - فلم أر مايسوؤنى ، ولم أر أحسن
من هذه الناس ، فانه شرع يعطى كل أحد حقه وينزله منزلته » ،
وقد تعلم ابن تغرى بردى الفروسية على أيدي جماعة من اكابر
مماليك والده .

وفي عهد هذا السلطان توفى الأمير تانى بك المعلم المحمدي الأشرفي (ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م) وكان عارفا بفنون لعب الرمح وكذا فى نفس السنة توفى سنقر قرق شيق الأشرفي ، وهو مقدم الف بدمشق « وكان علامة فى لعب الرمح » .

ويبدو أن السلطان الأشرفي قايتباي قد اعتاد أن يمتحن بعض المماليك فى فنون الفروسية من آن لآخر - كما سبقت الإشارة - ففي صفر من سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣ م ، عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا الرمح بين يديه حتى يمتحنهم فى ذلك « ويعرف من يلعب بالرمح ممن لا يعرف ، فحصل لهم غاية المشقة لأجل ذلك ووبخ منهم جماعة بالكلام ، وربما قصد الاضرار بهم (أى الغزو بهم) » .

وجاءت الأخبار فى شوال سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣ م بوفاة برقوق الناصري الظاهري نائب الشام ، وكان « شجاعا بطلا مقداما فى الحرب عارفا بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرماية بالنشاب » ، كما كان الأمير يشيك الفقيه ، الذى كان دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر خشقدم سنة (٨٧٨ هـ / ١٤٧٤ م) وكان مشهورا بالفروسية (٣) .

وفى سنة ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م كان قانصوه وفرق الابراهيمى من أعيان الخاصكية مقربا للسلطان قايتباي، وكان عارفا بالفروسية .

وفى سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م كان الأمير خاير بك من حديد أحد المقدمين فى مصر ونفاه السلطان الى الشام ثم الى مكة « وكان عارفا بأنواع الفروسية » الى جانب اشتغاله بالعلم وفصاحته فى العربية .

وفى سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م كان يحلب حسنطباي العلاي الظاهري أحد أمراء العشرات ، وأصله من ممالك الظاهر جقمق

« وكان رأسا فى الرمي بالنشاب » وتوفى أيضا قانى باى الفلاح الأشرفى أحد العشرات ، وأصله من ممالك الأشراف برسباى « وكان بارعا فى فنون الرمح » .

وتكرر ركوب السلطان قايتباى للرماية والعود فى موكب حافل وحدث أن ركب مرة على فرس حرون وسير فى الحوش ثم ساق ولكن انقلب الفرس فوقه فكسرت رجل السلطان . وقد نظم الشاعر الشهاب المنصورى يعتذر عن هذه الواقعة (٣) .

وفى عهد السلطان قانصوه الغورى أصبح لاعبا الفروسية بأنواعها شأن كبير ، فقد تكرر عرض الرماحة أمام السلطان فى مواضع متعددة وبحضور قصاد السلطان ، فكأنه كان يستعرض قوة فرسانه ويظهر عظمة ملكه ، وأدى ذلك الى تفنن الفرسان فى ألعابهم وكان السلطان ينعم عليهم بالمال والخلع .

وقد أفاض ابن اياس فى وصف ذلك فيقول : فى جمادى الآخرة من سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٤ م « خرجت الرماحة المعينون للعب الرمح ، فلعبوا عند زاوية الشيخ أبى العباسى الحرار » وجلس السلطان فى المقعد الذى انشأه فى الميدان ورسم للرماحة بأن يسوقوا أمامه فى الميدان « فساقوا وهو جالس وحوله الأمراء ، فلما ساقوا عيبت عليهم الممالك القرانصة وخطأوهم فى طريقة لعب الرمح عما كان يفعله الأقدمون من البنود التى كانت تقع فى لعب الرمح على العادة القديمة » .

ولعل ذلك يوضح أن ثمة تغييرا قد حدث على طرق اللعب بالرمح عما كان عليه من قبل وان كانت المصادر لم تفصح عن طبيعة ذلك التغيير .

« وكما ذكر فإن السلطان كان حريصاً على أن يضيف قصاده
فى مكان تجرى فيه ألعاب الفروسية على اختلافها فكثيراً ما نزل
الى الميدان ومعه قاصد الصوفى وأحضر قدامه مماليكه يرمون
بالنشاب على الخيل وهم بألة السلاح ، « فأظهروا فى فنون
النشاب أشياء غريبة » .

وتكرر نزول السلطان الى الميدان لمشاهدة عروض الفروسية
على الأغلب مع كل قاصد يأتى اليه كما حدث مع قاصد صاحب
بغداد فى شوال سنة ٩١٤ هـ / وأدهش القاصد لما رأى من أنواع
غريبة فى فن النشاب .

وكان يجتمع الناس هناك من أجل الفرجة على تلك الألعاب
الفروسية فبرغم أنها كانت رياضة الأمراء والفرسان والسلاطين ،
فإن الشعب كان يستمتع بها مشاهدة أو ممارسة فى بعض
الأحيان .

كما دعا السلطان قرقد بك بن عثمان ورسم للرماحة الذين
يسوقون فى أيام المحمل بأن يسوقوا فى الميدان ليتفرج ابن عثمان
عليهم وهم لابسون ألة السلاح ، وتكرر ذلك مع هذا الزائر فى أيام
متوالية وكان يشاهد فى كل مرة خصمانية فى لعب الرمح .

وحدث بعد أن حلف السلطان المماليك الجلبان وأغواتهم بالألا
يثيروا فتنة أن يفرق عليهم الرماح ورسم بأن يلعبوا الرمح فى الميدان
وأمر لكل مملوك بثلاثة أشرفيات وانفض المجلس على ذلك ومرة
أخرى أنفق على جماعة مخصوصة من الخاصكية الأعيان ممن
كانوا يرمون النشاب على الخيل فى الميدان ويلعبون الرمح ، لكل
وأحد منهم عشرة آلاف درهم وأعطى لجماعة منهم ستة آلاف
درهم .

ومع أن الجامكية كانت تصرف للعسكر فان السلطان الغورى قد استجد جامكية تصرف للمماليك الذين استجدهم ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف ، فجعل لهم جامكية خامسة تصرف لهم على انفراد دون جوامك العسكر ، وأطلق على هؤلاء المماليك « المماليك الأراذل » وكان منهم من لايعرف كيف يجذب القوس أو يمسك الرمح ، واعتبر ذلك أمرا عجيبا فيمن يستحق الجامكية وأعطائها لمن لا يستحقها(٤) .

والمعروف أن هؤلاء الرماحة اثناء عروضهم كانوا يلبسون الأحمر وآلة السلاح كاملة ، كما يفعلون فى أيام دوارن المحمل ، كما جرت عاداتهم بعد عرض العابهم أن ينزلوا خيولهم ويقبلوا الأرض للسلطان على جارى العادة(٥) فيخلع السلطان على معلمهم وعلى الأمراء المقدمين ، ومن أشهر هؤلاء المعلمين فى عهد السلطان الغورى هو المعلم تمر الحسنى وهو أحد المقدمين المعروف بالزرد كاش .

كما جرت العادة بعد عرض ألعاب الفروسية ، أن تمد أسمطة جافلة فى كل مرة يحضرها القصاد والأمراء وينشرح فيها السلطان للغاية .

وكان يتم نوع من التنافس بين من يجيدون اللعب على الخيول كما حدث بين أبى الحسن بن ميمون (ت ٩١٧ هـ / ١٥١١ م) وابن عراق حينما كانا يسيران فى الطريق لزيارة الامام الاوزاعى ، فلعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان ، فعاب عليه ابن ميمون ثم تنافسا على ذلك فنزل ابن عراق عن فرسه وتقدم اليها ابن ميمون « فحل الحزام وشده كما يعرف وركب ولعب على الجواد فعرفوا مقداره فى ذلك » .

وكان الشيخ علاى الدين الأخميمي الشهير بالنقيب (علامة
فى الرمى بالنشاب ، عارفاً به ، وكان له اليد الطولى فى ذلك) وكان
خطيباً حوى كل فن وعلوماً شتى .

ومن الملاحظ أنه مع مداومة الممالك والأمراء على ممارسة
ألعاب الفروسية بشتى فنونها بصفة مستمرة ومن آن لآخر ، فإنه
كانت هناك مواسم تخرج فيها مواكب السلاطين ويلعب فيها شتى
ألعاب الفروسية مثل ختام لعب الكرة وخروج الحج وعودته ،
والاحتفاء بقصاد السلطان من خارج البلاد .

والواقع ان من أهم مناسبات ألعاب الفروسية المختلفة كان
هو دوران المحمل ، وهو عبارة عن خروج المحمل بالكسوة الشريفة
والبرقع وكسوة مقام ابراهيم عليه السلام لتحيته والحفاوة به
ولاعلان المناس باقترب موسم الحج ولشهر فخامته ولقضاء يوم
فى التسلى برويته .

وقد جرت العادة أن يدور المحمل فى السنة مرتين فى شهر
رجب وشوال ، ولندع ابن بطوطة يصف لنا موكب المحمل الذى رآه
عند زيارته لمصر اذ يقول « وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود
وكيفية ترتيبهم فيه : أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت
المال ، والمحتسب ويركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ،
وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر ،
فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز
فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاعون على جمالهم ، ويجتمع
لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل بمدينتى
القاهرة ومصر ، والحدادة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب ،
فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث » .

هذا وقد يصحب الموكب مهرجون وهم من عرفوا بعفاريت
المحمل الذين يضحكون الناس على العادة ، حيث يغيرون من صفاتهم
بهيئة عجيبة مزعجة ، وعندما يصل الموكب ساحة القلعة يطل عليهم
السلطان وحوله عدد من موظفيه وأمرائه ورجسالم دولته وحينئذ
يقوم « الرماحة » وهم طائفة خاصة تحمل الرماح معدة لمثل هذه
المناسبة من فرسان السلطان بملابسهم الحمراء فيلعبون ألعابا تنم
عن فروسيتهم ومهارتهم حتى أن بعضهم يلعب بالرماح وهو واقف
على ظهر فرسه .

ويستمع الناس بمشاهدتهم ، ثم يدور المحمل أثناء ذلك أمام
السلطان دورة استعراض .

والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس هو أول من أحدث اللعب
بالرماح وألعاب الفروسية فى المحمل وكسوة الكعبة فى سنة
٦٧٥هـ / ١٢٧٧م بل قيل أنه هو الذى ابتداء موكب دوران المحمل
فى تلك السنة ، وإن كان بعض السلاطين قد ابدلوا اللعب بالرماح
فى هذا الموكب ، كما حدث فى عهد السلطان الأشرف برسباى فى
سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م .

ويبدو أن محاولة السلطان تبسيط هذا الموكب بالغاء ركوب
الرماحة كان باعثه ما حدث فى هذا الموكب من قبل عهده ، فقد جرت
فيه أمور قبيحة ، ذلك أن المالك السلطانية « نهبوا المطاعم وتعرضوا
للنساء والشباب فى ليالى الزينة بشناعات عظيمة » .

وإن كان ذلك ما لبث أن عاد مرة أخرى كما كان أول الأمر
فى عهد السلطان اينال فى رجب سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م نودى فى
القاهرة بالزينة ، وعرض المحمل كالعادة ولعب الرماحة لعبهم

برئاسة جاني بك الطريف وأبدع الرماحة في ذلك وشهده السلطان
اينال وضيغه ان ذاك رسول ملك بنى عثمان .

هذا ويذكر ابن اياس في حوادث جمادى الآخرة سنة ٩٠٩هـ /
١٥٠٤م أن دورة المحمل الرجبية قد أبطلت منذ أيام السلطان خشقدم
سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م ، فأراد السلطان الغوري أن يجدد هذا
الأمر « حتى يصير له التذكار بين الملوك » فدار المحمل في تلك
السنة وعين السلطان معلم الرماحة والباشات الأربعة ومن
الخاصكية أربعين مملوكا « على جارى العادة القديمة » مع أن ابن
اياس نفسه هو الذى يذكر عن السلطان خشقدم « وكان يدور المحمل
فى كل سنة فى رجب وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين
يوما » وذكر أيضا أن خشقدم كان يجلس فى وسط الرميطة ليشاهد
المحمل .

ولعل الصحيح أن السلطان الظاهر جقمق كان هو الذى أبطله
نحو عشر سنين من قبل ، وفى سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، رشح
المؤرخ ابن تغرى بردى ليكون أميرا للمحمل أو معلما له ، ولكن
السلطان عين جاني بك الأشرفى الخازندار بعد أن طلب الأخير ذلك
فأجيب مجارة من السلطان .

وبعض الأحيان كانت تخرج أمام المحمل مجموعة من الأقيال
الكبار وهى « مزينة باللبوس وعلى ظهورها الصناجق وقدامها
الطبول والزمور » . وحدث ذلك فى شوال سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م ،
فى عهد السلطان قنصوه الغورى .

والمعروف انه قبل خروج المحمل بمدة طويلة كان الرماحة
يتدربون على ألعاب الفروسية المختلفة يعرضونها ساعة دوران
المحمل كما كانوا يعدون الحيوانات ويروضونها لهذا الغرض ، فنذكر

ان السلطان الغورى قد اعتاد فى الغالب بعد أن يحضر ممالكك يرمون بالنشاب على الخيل ، أن يحضر الحيوانات كالافيسال للمصارعة أمامه وكذا السبع والهزير .

ويصف بعض المؤرخين كذلك ما كان يحدث فى موكب المحمل فيقول « فى تلك الأيام يلعب أعيان الجند بالرماح فى الفضاء الواسع عند قبر سيدى أبى العباس الجزار بالمقرافة ، ويلعبون هناك فنونا عجيبة وأندابا غريبة ، ويركبون الممالك الصغار خيولا قد نصب عليها السيوف والرماح بالقباقيب وفى أيديهم رماح صغار يلعبون بها وهم على ذلك » .

لعبة القبق

ومن الألعاب الرياضية المرتبطة بالفروسية ، التى أقبل عليها الممالك ، لعبة القبق أو القباق ، وهى لفظ تركى معناه القرعة العسلية وأطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية المعروف باسم القبق أيام الممالك .

ويشترط فى رمى الفارس أن يعرف التنقىل والسوق ، والتنقىل هو سوق الفرس قليلا ، والسوق هو الجرى الشديد ، والرمى أثناء الجريان والجولان ولاسيما عند اشتداد جرى الفرس الى آخر الشوط بالميدان .

والأصل فى رمى القبق هو اتقان علم ركوب الخيل وحبس رؤوسها باللجم ، والتدريب عليها فى الكر والفر حتى يتعودها الفارس ويصير له ذلك عادة .

وتشير المصادر الى أن تفصيل هذه اللعبة هو أن يجعل فى ميدان الرمي حبل معترض مرتفع على خشبتين ، ويجعل القبق فى

وضع متوسط بين الخشبتين ، ويكون سوق الرماة عند الرمي من تحت الحبل وفي بعض الأحيان كان يستعاض عن الحبل برسم دائرة اتساعها عشر باعات يكون القبق في مركزها ، ثم يرمى اللاعبون الى السماء لاصابته .

ويجوز أن ينصب الرامي حلقة معدنية على شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة ويكون فيها طير حمام ، على خشبة عالية أيضا في ميدان اللعب ثم يأتي اللاعبون للمباراة في رمى الهدف بالمشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل .

فمن أصاب القرعة أو طار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة .

وقد زاد المقريزي على ذلك فوصف لعبة القبق بقوله : « انه عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب في براح من الأرض ويعمسل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمي بالسهام جوف الدائرة ، كي تمر من داخلها الى غرض هناك تمرينا لهم على احكام الرمي .

وهذا الوصف يختلف قليلا عن الوصف السابق ، ويفهم من ذلك أن الرماة كان يمكن أن يرموا وهم على الأرض أو على ظهور الخيل .

وفي وصف لكيفية الرمي على الهدف في لعبة القبق ، تشير بعض المصادر الى انه اذا استوى الفارس على فرسه ، ومكن رجليه في الركاب ، ولزمت ركبتاه وما يليهما من الساقين جانبي الفرس ، قبض بكل كفه على مقبض القوس ، وأمسك العنان بالوسطى والبنصر حتى يفوق السهم ، ثم ينهض الفارس قائما على ميل يسير على القربوص الأمامي ، ويحني وسطه قليلا ، ثم يقبض على السهم

بجميع الكف ، ويجعل فوق السهم الى خلفه ونصله أمام الرامى ، وبعد قبض السهم يفوق بثلاث أصابع ، فإذا ما فوَّقه جعل نصائبه على رأس الفرس فيما بين اذنيه من غير أن يمسهما ، وينبغى أن تتم العملية كلها فى وقت واحد ، حيث يجرى سوق الفرس وتفويق السهم وجر القوس بالسهم وافلات العنان من أصابع اليد اليسرى جملة واحدة .

وذكرت كتب الفروسية أن على لاعب القبق أن يتخذ فرسا مدريا وأن يعود الرامى على دخول القبق قبل الرمى ، فيروضه على الجرى والدخول نحو الخشبة والعلامة مرات ، حتى يرى الفرس ذلك ويعرفه ، قبل البدء فى الرمى .

كما حذرت اللاعب فى دخول القبق أن يصطدم بركبتيه بالمغنداق الذى عليه العلامة ونظنه خشبة القبق ، وقيل أن طوله عشرين ذراع .

وقيل أن أحسن ما يكون الرمى فى القبق ، حين يلتفت الفارس من أعلى كفل الفرس الى فوق ويرمى بعد أن يتجاوز الخشبة قدر باع وأن يتبع الرامى السهم بنظره الى أن يتعدى السهم العلامة .

ويستخدم الفارس عند رمى القبق السهم العريض النصل المعروف بالمطمار أما أرض ميدان الرمى فينبغى أن تكون مستوية ، صالحة لأن يثبت عليها حافر الفرس ، وأطول الميادين للقبق مائة وثلاثون ذراعا ، وأن يراعى الرماة اتجاه الرياح بحيث تكون بظهر الرامى عند السوق ، ويتجه الى الجانب الآخر من الميدان عرضا .

ومن الأمور المرغية عند الرمى على القبق أنه إذا اجتمع الرماة بدأ أحدهم بالسوق والدخول فى الرمى ، ولا يدخل الثانى

خلف الأول الا اذا ابتعد عنه بمسافة كافية ، حتى انه لو سقط الأول
تمكن الآخر من عطف فرسه عنه حتى لايقع فوقه .

ويبدو أن لعبة القبق من اختراع المماليك ، خاصة أنه لم تحدثنا
عنها سوى المصادر المملوكية ، التي أوردت تفاصيل عن هذه اللعبة ،
ففى أوائل العصر المملوكى سنة (٦٦١هـ / ١٢٦٣م) عرف المماليك
لعبة القبق ، حيث أمر السلطان الظاهر بيبرس حاشيته أن يستعدوا
لتنظيم لعبة القبق ، وكان ذلك كما ذكر المقرئى فى شهر شعبان
سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م .

واهتم الناس فى ذلك العصر باللعب فالبسوا خيولهم
التشاهير وهى الأشرطة التى توجد حول صدر الحصان ، والبراسم
البحرية أى السروج الحربية والمروات والأهلة الذهب والفضة
والأطلس الخطائى .

هذا وتشير بعض المصادر الى بعض ميادين اللعب بالرمح
التي كان يسمى بعضها ميدان المروات .

وقد بلغ من اهتمام سلاطين المماليك بلعبة القبق ان أقام لها
السلطان الظاهر بيبرس ميدانا خارج باب النصر من شرقى القاهرة
عرف ميدان القبق ، وميدان العيد ، وبالميدان الأسود أو بالميدان
الأخضر ، وعرف كذلك بميدان السباق . وكثيرا ما ساق السلطان
بيبرس الى هذا الميدان « وقدامه جنائبه ، وشرط لكل أمير يصيب
القبق فرسا من الجنائب بما عليه من التشاهير ، وخلعة لكل
مفردى أو مملوك أو جندى ، ودخل الناس بالرمح بكرة النهار .

ولعل ذلك يدل على أنه قد سمح لبعض أفراد الشعب بممارسة
هذه اللعبة ومشاركة المماليك ذلك . وان كان هذا ليس فى كل

• قيشير بعض المؤرخين في هذا الصدد • انه بينما كان يعيشون عيشة الترف ، كان المصريون على العكس من ذلك
م الا الزراعة في الأرض و دفع الضرائب •

ب المحرم من سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م أمر السلطان بيبرس
مصطبة في نهاية باب النصر ، عندما احتفل برمي النشاب
حرب ، وصار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة وقت الظهيرة
لعبة القبق ، ولا يغادر الا العشاء الآخرة خاصة في الأعياد
الرمزية الشغل الشاغل له ولرجال حاشيته •

ا وقد انتقلت لعبة القبق الى سوريا في عهد السلطان
حديث هو الذي أدخل هذه اللعبة اليها سنة ٦٧٢هـ /
وكانت تقام في قلعة دمشق في ذلك الوقت ، ولكن توقفت
في سوريا لكثرة الأمطار التي كانت تسقط فيها ، وكانت
—رة تلعب فيها القبق هناك في شهر جمادى الاولى سنة
١٢٧٦م •

دو أنه بعد موت السلطان الظاهر بيبرس قد قل شأن لعبة
لم توجد دلالة على أن هذه اللعبة كانت تمارس بعده على
ح ، ويعتقد أن خلفاء الظاهر بيبرس لم يهتموا الا بالالعاب
والتدريبات العسكرية •

تتمر ميدان القبق فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ،
ذيان الى أن تولى السلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ،
ول اليه وبنى مصطبة برسم طعام طيور الصيد بالقرب من
ش ، وصار ينزل هناك • ثم ترك تلك المصطبة في سنة
• ١٣٢٢م وعاد الى ميدان القبق ، وصار يركب اليه للرعى
على عادة من تقدمه من الملوك الى أن « بنيت فيه القبور

شيئاً بعد شيء حتى انسدت طريقه واتصلت المباني من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج باب البرقية ، وبطل السباق منه ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وقد كان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى ، والملك الأشرف خليل بن قلاوون « يركبون فى الموكب لهذا الميدان وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تتسابق بالخيل فيه قدامهم وتترك المسكر فيه لرمى القبق .

ويبدو أنه كان هناك مواضع أخرى لمعب القبق أيام السلطان الظاهر بيبرس ، فقليل أنه عمر الجامع الكبير الذى بزقاق الكحل « وكان مكان هذا الجامع ساحة برسوم القبق يلعب هناك المماليك » .

على أنه كانت تقام للرياضة بأنواعها الميادين ، وهى مساحات فسيحة فى أماكن عديدة ، بعضها فى القلعة وفى القاهرة أو فى خارجها فمن أهمها : الميدان بالقلعة ، وهو الميدان الذى كانت تقام فيه صلاة العيدين ، ويعرف بالميدان الكبير ، بالإضافة الى ميدان القبق السابق ذكره ، والميدان الناصرى وهو على النيل بين مصر والقاهرة ، وميدان سرياقوس ، وهى بلدة فى نواحي القاهرة ، وكانت أرض هذه الميادين ممهدة ترش بالمياه بانتظام ، كما كانت تحدد فيها أماكن لجلوس المشاهدين ، فتقام فيها المصنطاب لهذا الغرض ، كما كانت تقام فى بعضها - وقت المباريات - خيمة كبيرة للسلطان « دهليز » وخيام أخرى للاستراحة ، أو حتى قصور وأماكن خاصة ، مثل تلك التى تحيط بميدان سرياقوس .

ولعل ذلك يدل على أن السلاطين كانوا يحضرون لمشاهدة تلك الرياضات ان لم يشاركوا أمراءهم فيها ، كما يشير ذلك الى الاهتمام البالغ بهذه الرياضات فى عصر سلاطين المماليك .

ولم تكن ممارسة المماليك للعبة القبق تقتصر على الأيام العادية فقط ، بل اقبلوا على ممارستها في شتى المناسبات اظهارا لشعورهم كما حدث في سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م عندما أمر السلطان الأشرف خليل يلعب القبق ، بسبب ظهور أخيه الناصر محمد بن قلاوون ، وكذا ظهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح علاء الدين علي بن قلاوون حيث تنصب القبق تحت القلعة مما يلي باب النصر ، وفرقت الأموال والخلع على من أحساب رميه .

هذا وقد برع بعض الأمراء في هذه اللعبة الى حد كبير ، حتى ان أحدهم وهو الأمير بدر الدين بيسرى قد رماه كما لم يرمه غيره قبله ، اذ اقترح له سرجا وطىء الرادفة جدا ، ثم سار نحو صاري القبق ، والعادة جارية أن الرامي لا يرميه الا اذا صار بجانب الصاري ، الا أن الأمير ساق الى أن تعدى الصاري ، فاعتقد الناس أنه قد فاته الرمي ، ولكنه استقر على ظهر فرسه حتى صار رأسه على كفل الفرس ورماه وهو كذلك بعد أن تعداه فأصاب القرعة وكسرها ، فصرخ الناس لذلك واستعظموه وظهرت للسلطان فائدة السرج ، فأنعم عليه بخمسة وثلاثين ألف درهم ، وعظم في صدر الناس « وعلموا عجزهم بما أتى به وفعل ما فعل » .

وفي مجال اظهار براعة الرماة ، كان الرامي يستلقى على ظهره ، ويرمي بمئة ويسرة ، ويكون الرمي من قبل الأمراء عادة ، وذلك على قدر منازلهم واحدا واحدا ، أو حتى من قبل العساكر والمماليك ، حيث يشرف على ذلك الحجاب فمن أصاب القرعة أو أصاب طير الحمام ، منحه السلطان خلعة أو فرسا أو غير ذلك .

وقد اشتملت بعض مخطوطات الفروسية التي تنسب الى هذا العصر على بعض التصاوير التي توضح طريقة الرمي على القبق

وكيفية المدخول فيه ، ومن بينها مخطوط « مجموع فى الفروسية » ، وتشتمل على رسائل ومنتخبات مختلفة فى الرمى والفروسية وأدوات القتال والمصارعة واستعمال النفط وغير ذلك من الفنون الحربية » .

وفىها تصويرة تمثل فارسين يتقدم أحدهما على الآخر فى اتجاه هدف القبق وهو يقحم فرسه على خشبه القبق يحاول كل منهما إصابة الهدف قبل صاحبه .

كما توجد تصويرة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس تنسب الى عصر السلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧١م ، تمثل فارسين متواجهين يعدوان بجواديهما فى وضعية ثلاثية الارباع ، حيث يحاول كل منهما إصابة هدف على هيئة قرعة ، مرفوع فوق صارى طويل عن طريق اطلاق أسهم من قوس فى يده .

وكثيرا ما انتهى أمر لعبة القبق الى الطعان بالرمح أو الدبابيس أو بالسيف ، فينقسم اللاعبون الى فريقين عقب لعب القبق ، ويأخذون فى المباراة والطعان « فلا يرى الناس الا سيوفا تبرق » وكان الظاهر بيدرس يستغل تلك الفرصة ليستعرض أمام الناس مهارته فى استخدام الرمح وهو لا يسأم الكر والفر .

وخالصة القول ان الممالك وسلطينهم قد مارسوا رياضة الفروسية بأنواعها المختلفة ، وبرعوا فى ذلك الى حد كبير ، وماكان ذلك يحدث الا فى ظل تشجيع السلاطين والحكام لهذه الرياضة التى تتفق وطبيعة الممالك وظروف عصرهم ونشاطهم العسكرية .

بيد أنهم اتخذوا من هذه الرياضات مجالا للتدريب على فنون القتال والرماية ، حتى ان طبيعة تلك الألعاب فى غالبها تقسم

بالخشونة والجدية رغم أنها كانت تنفق في غالب الأحيان كوسيلة
من وسائل الترفية في ذلك العصر .

وبرغم أن رياضات الفروسية لم تكن ألعابا شعبية فسان كثيرا
من طبقات الشعب قد استمتعت بهذه الرياضات مشاهدة في الغالب
ومشاركة أحيانا ، وليس معنى ذلك أن الشعب المصرى في ذلك
العصر قد صفت له الحال تماما ، فكتبرا ما عانى الناس من الازهاق
في مجارة الممالك وسلطينهم في سبيل تحقيق متعاتهم الترفيهية ،
نتيجة لما كان يفرض عليهم من أعباء في مثل هذه المناسبات .

هواهش الفصل الأول

(١) الانداب ، جمع ندب ، وندب المنشاب نوع من اللعب به ، يقال لعب اندابا فى الميدان ، واطهر اندابا غريبة فى الحرب ، والمقصود فنون الحرب (انظر ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٠٢) .

(٢) العينى ، السيف المهند ، ص ٢٣٠ . وأصل اللعب بالرمح من العرب ، وقيل أول من اخرج الرمح وأمسكه اسماعيل عليه السلام ، وقيل انما تعلم من جرهم حين تزوج منهم امرأة ، ثم تداولته الناس ، ولكن اندابه حدثت فى زمن الترك - يعنى المماليك - لاسيما فى دولة الملك الناصر حسن الى دولة الظاهر برقوق . (انظر ، العينى ، السيف المهند ، ص ٢٣٠) .

(٣) حيث يقول الشاعر :

وقد زعموا ان الجواد كبا بهه وحاشداه من عيب يضاف اليه
ولكن رأى سلطان عز وهديته فقبل وجه الارض بين يديه

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٢٧) .

(٤)

انى أشبح بدرهم متصدقا وأجود فسى قدح بما ملكت يدي
(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٠٦)

(٥) وقيل ان الذى أحدث ذلك أول سره هو الاشرف قايتباى لما كان يسوق فى دوران الحمل ، فكان ينزل عن فرسه ويبوس الارض للسلطان خشقدهم فى وسط الرميلى (ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٩١) .



الفصل الثاني

الصيد والقنص

٢٠٩

(م ١٤ - وسائل الترميه)

مع اتساع خبرات الانسان ومجالاته وامكانياته تطورت فنون الصيد ، أصبح - مع كونه ضرورة ملحة في بعض الأصباق - يعتبر هواية رائعة ، ورياضة ممتعة حتى اجترفها البعض تجساراً تدر عليه الريح الوفير ، كما اغرت الكثيرين على اتخاذها مجالاً للشهرة وميداناً للتفاخر .

وقد تميزت عصور مصر القديمة بممارسة أهلها الصيد واستخدموا في ذلك أدوات بدائية مختلفة ، كما عرفوا الرمح الذي كان يستخدم في صيد الحيوانات البحرية والبرية .

واهتم العرب أيضاً بالصيد سواء في الجاهلية أو في الاسلام واستخدموا جوارح الطير كالبياز والشاهين والعقاب والصقر وسائر للصيد يعلمونها ويدربونها على ذلك . وقيل ان بعض الصحابة كانوا يصيدون بالصقور والبزاة والكلاب الضواري ، التي أطلقوا عليها بعض الأسماء الغريبة ، كما استخدموا الفهود في صيد الحيوانات البرية ، كما عرف العباسيون الصيد ومارسوه حتى قيل ان الخليفة المهدي ربما مات أثناء حادثة صيد .

وفي عصر الدولة الطولونية كان خماروبه مولعاً بالصيد ولعاً شديداً فكان يخرج لذلك الى جهة الاهرام واذ فرغ من صيده صار الناس يجتمعون لمشاهدة ما صاده الأمير .

أما في العصر الفاطمي فقد انتشر الصيد خاصة بين الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة فقد أجمع المؤرخون على ولع الخليفة

العزیز بالله الفاطمی بالصید حتی انه کان یلقب « بالخلیفة
الصیاد » .

وفی الدولة الایوبیة کان صلاح الدین یبرز للصید فی مصر
ویصید آیاماً وفعل ذلك الملوك من بعده .

وهكذا کان الصید والقنص من أهم وسائل الترفیه والمتعة لدى
الملوك والحکام بشكل عام ، حتی انه فی العصر المملوکى « کان
خروج السلطان للصید من مظاهر الملك والأبهة ومن رسوم السلطنة
وهذا مانعرض له فیما یأتى .

لقد کان الصید رياضة الممالیک المفضلة ، وتسلیتهم المحببة
حیث كانوا یدربون منذ حداثة سنهم على فنون الحرب وأسالیب
الصید وغيرها ، كما كانوا ینظرون الى الصید على أنه رياضة
سامیة تسمو بالنفس ، وتهذب الخلق ، ویزوّن أنه العمل الذی یلیق
بهم فی السلم اذا توقف عملهم فی میدان القتال ، لذا فاننا نراهم
یُخرصون على تعلم أسالیب الصید وكل ما یتصل به من مهارات
عن طریق التدريب والممارسة بالادعاء لمن أجادوا هذا الفن واصبحوا
أساتذة فیه ، فقد قیل ان الملك الظاهر بیبرس توجه فی المحرم من
سنة ٦٦٣م « من قلعة الجبل للصید فأقام بوسیم ثم سار منها الى
العباسة ورمى هناك بالبندق وادعی له جماعة ، کان منهم الأمير
فخر الدین عثمان بن الملك المغیث صاحب الكرك » .

والمعنى المقصود بالادعاء له - أى للسلطان بیبرس - أن
الأمیر فخر الدین عثمان المذكور انتسب الیه واعتبره أساتذه فی
فی الصید ذلك أن العادة فی دوائر الصید كانت فی ذلك العصر ،
ان المبتدئ لا یصیر فی زمرة هواة هذا الفن الا بعد الانتساب لأحد

رماة الصيد القدماء ، فاذا تم له ذلك قيل انه ادعى لفلان اى انتسب اليه ، كما كانت وسيلة الادعاء أن ينجح المبتدئ فى اصابة رميته من طير أو غيره ، وعند ذلك يختار الانتساب الى من يشاء من رجال الصيد سلطانا كان أو أميرا أو فقيها أو عاميا .

ولعل فى هذا ما يوضح ما كان للصيد زمن سلاطين المماليك من آداب مرعية وأخلاقيات يتحلى بها من يمارسون هذه الرياضة ، حتى يتساوى السلطان أو الامير مع الشخص من العوام فى استاذية كل منهم فى مجال الصيد ، وان كان لا شك فى أن الانتساب الى كل منهم يكون على قدر مكانته .

ومن المعروف أن للصيد مناطق معهودة ومواقع مخصصة من صعيد مصر وصحاريها وبراريها ، حيث يوجد الطير أو الحيوان ، كما كانت له أيضا مواسمه الموقوتة وأيامه المعروفة ، فقد كان الخروج للصيد عادة فى فصل الربيع حيث يتعدد سبع مرات .

وقد تعددت مواضع الصيد فكان منها ما هو قرب القاهرة ومنها ما هو بعيد عنها . فمن الأماكن التى ارتادها المماليك بغرض الصيد ، بر الجزيرة حيث كان من عادة السلاطين والأمراء أن يعدوا الى بر الجزيرة للصيد هناك ، وكذا جهة الأهرام حيث توجد الغزلان والكراكي .

وجدير بالذكر أن السلطان المظفر قطز بعد أن هزم التتار فى عين جالوت من أرض كنعان سنة ٦٥٨هـ ، وأثناء عودته الى الديار المصرية ، انحرف عن درب الصيد عند القرين فرأى أرنابا فساق خلفه وساق معه خواصه من الأمراء ، الذين كانوا قد اتفقوا على قتله ، ثم تولى قتله الأمير بيبرس البندقدارى السلطنة بعد ذلك .

ومن الطريف أن السلطان قطز - الذي قتل أثناء الصيد -
قد وصل إلى كرسي السلطنة بعد أن تخلص من المنصور على وهو
ابن استاذة مستغلا غيبة أكثر الأمراء من ممالك أبيه في الصيد
أيضا .

وكان الظاهر بيبرس من أكثر سلاطين المماليك اهتماما بالصيد
لذا اهتم بطيور الصيد وكلابه على اختلاف أنواعها ، فأنشأ لها
المطاعم ، وعين لها البازدارية(١) للإشراف عليها والعناية بها .

كما كان حريصا على أن يشمل أمراءه بعطفه أثناء سرديات
الصيد ، ففي ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ ، سار من قلعة الجبل إلى بلاد
الشام ، واستمر في الصيد إلى أن دخل غزة ، وفي العريش ضرب
حلقة بثلاثة آلاف فارس فوق فيها صيد كثير جدا وحدث أثناء
الصيد أن تقنطر الأمير شمس الدين سنقر الرومي عن فرسه ، فسار
السلطان إليه وترجل عن فرسه ، وجعل رأسه على ركبته وسقاه
وأسعه وأخذه إلى خيمته ، وهكذا أيضا فعل مع الأمير سيف الدين
قلاوون الذي سقط هو الآخر أثناء الصيد .

ولعلنا نلمس هنا أخلاقيات الصيد وأدابه ، وكذا عناية
السلطان بأمرائه ورعايته لهم أثناءه ، فلا غرو في ذلك فالصيد
رياضة تسقط الفوارق وترفع الكلفة بين ممارسيها .

وقد ارتاد السلطان بيبرس أماكن كثيرة للصيد في مصر
والشام ، فقد خرج يوما إلى الطرانة(٢) وسار إلى وادي هليب(٣)
ونزل الأديرة التي هناك ثم توجه إلى تروجة(٤) ومنها سار إلى
الحمامات ، ثم إلى العقبة وهناك ضرب الحلقة برسم الصيد وقضى
هناك عيد الاضحى من سنة ٦٦٢ هـ ثم عاد إلى الاسكندرية وفرق
المال والقماش على الأمراء والخوادم .

ومما يدل على شغف السلطان الظاهر ببيرس بالصيد ، أنه كان يحرص حتى في وقت التجهيز لحرب التتار على الخروج في سرحات للصيد ، ففي ربيع الآخر سنة ٦٦٣ هـ ، ركب من العوجاء بعد ركوب الأطلاب ، للتصيد في غابة أرسوف ورسم للأمرء بأن من أراد منهم الصيد فليحضر « فان الغابة كثيرة السباع » .

وفي المحرم من سنة ٦٦٥ هـ ، خرج السلطان من دمشق بعساكره قاصدا الديار المصرية ، وسار الى الكرك ونزل ببركة زيزاء ، وركب ليتصيد ، فسقط عن فرسه مما جعله يتأخر هناك أياما حتى صلح مزاجه .

وكثيرا ما كان السلطان يقطع رحلة الصيد عندما يصله نبأ العدوان على إحدى المدن ، فيروى المقرئ أنه في صفر سنة ٦٦٦ هـ اجتاز السلطان ببيرس على السدير (٥) قرب العباسية (٦) وبينما هو في الصيد هناك ، إذ بلغه حركة التتار على حلب فعاد الى القلعة وأمر بخروج الخيام .

وفي ذي القعدة من نفس السنة استقبل السلطان وهو في الصيد ليفون بن ملك سيس ، وبالمخ في الاحسان اليه ، ورحل السلطان من انطاكية الى سيزر وسار فيها على البرية الى حمص وهو يتصيد ، كما كانت تصله أحيانا أخبار النصر وهو في الصيد فيجزل العطاء للمبشرين .

وكان السلطان ببيرس يشجع الأمرء والمقدمين ، على الصيد فكثيرا ما كان يصطحبهم الى حلقات الصيد ، ويكافئهم كلاً منهم على قدر ما يحضره من صيد سواء كان حيوانا أو طيرا ، ففي شهر صفر من سنة ٦٦٨ هـ خرج السلطان من قلعة الجبل ومعه الأمرء

والمقدمون ، فركب في الحراريق الى الطرانة ودخل السلطان البرية وهناك ضرب حلقة ، فأحضر الى الدهليز ثلاثمائة غزال وخمس عشرة نعامة فقدم عن كل غزال بغلطاق (٧) بسنجاب ، وعن كل نعامة فرسا ثميناً يسرجه ولجامه . ويتضح من هذا أن السلطان كان يسرف في الانعام على من يشاركونه الصيد ، حتى انه خرج يتصيد في ذي الحجة سنة ٦٧٠ هـ ، فخلع خمسمائة تشريف على من أحضر اليه الصيد .

كذلك كان أبناء السلطان بيبيرس مغرمين بالصيد ، فقد خرج الملك السعيد بركة خان في رمضان سنة ٦٧٢ هـ ، في عدة من الأمراء الى الشام ، وفي ليلة عيد الفطر خلع على أمراء الشام والمقدمين والأكابر ، وخرج يتصيد بالمرج ، ووصل صفد . وذكرت المصادر أن السلطان المنصور قلاوون قد « شرح في الخروج الى جهة المرج والاقامة به والصيد وبذل الخلع والانعام ، فعمت هباته ومعروفه جميع الناس ، ومابقى من (لم يصله) انعام أو بر ، وأقام كذلك مدة مقامه في الشام وخروجه الى مقصدياته في عدة جهات » .

وحدث أن رمى ابنه الملك الصالح علاء الدين على بجعا بجهة العباسية بالبندق وأهداه الى الملك المنصور محمد صاحب حماة ، فقبله وبالف في اظهار السرور والفرح بذلك وأرسل اليه تقديماً جليلاً .

وكان السلطان الأشرف صلاح الدين خليل مولعاً بالصيد ، إذ خرج في جمادى الآخرة سنة ٦٩١ هـ من مصر الى الشام ووصل الى حماة فاهتم الملك المظفر صاحب حماة بأمر ضيافته والاقامة والتقدمة ، وضرب السلطان دهليزه في شمالها عند ساقية سلمية

ومد له سماط عظيم بالميدان ، ونصبت خيم تليق بنزول السلطان ثم توجه من حماة وفي خدمته صاحبها وعمه الملك الأفضل الى المشهد ثم الى الحمام والزرقاء بالبرية ، شصاد شبيئا كثيرا من الغزلان وحمير الوحش . وكان السلطان يمارس الصيد بالفهود ، ولايصطحب معه الا بعض من يختار من الخاصكية والملك الأفضل نور الدين والد المؤرخ « أبو الفدا » الذي كان السلطان يعجب به بحديثه وخبرته الكبيرة بأمر الفهود والصيد ، حتى ان السلطان قد دعاه للحضور الى مصر ، خاصة في أيام الصيد ليصحبه في صيوده استئناسا به .

ولما كان الصيد رياضة وتسلية ومتعة بالنسبة لسلطين المماليك ، فانه أيضا كان سببا مباشرا في افساح الفرصة لأعدائهم ومناقسيهم من الأمراء ، للقضاء عليهم فما أكثر حوادث الصيد التي تعرض لها السلطين ، ومنها ما دفع بعضهم حياتهم ثمنا لها كما سبق أن أشرنا بالنسبة للسلطان قطز ، كما أن السلطان الأشرف خليل قد قتل أيضا أثناء الصيد عندما سرح الى البحيرة يتصيد وصحبه الأمراء ، والمقدمون وغيرهم ، فبلغ الركب الطرانة فجاء اليه الخبر أن بتروجة طيرا كثيرا ، فقال : هيا بنا وانفرد في نفر يسير ، ولم يكن معه سوى الأمير شهاب الدين بن الأشرف أمير شكار ، فلقى في تروجة طيرا عظيما ، فرمى بالبندق وصرع منها شيئا كثيرا وكان ذلك وقت العصر في يوم من المحرم سنة ٦٩٣ هـ ، وبينما السلطان على هذا الحال بأرض تروجة إذ بجماعة من الأمراء على رأسهم الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة فأدركوا السلطان وقتلوه .

كذلك كان السلطان الناصر محمد من أشد سلطين المماليك نعلقا بالصيد حتى أنه عندما أبلغ بإقامته سلطانا للمرة الثانية في جمادى الاولى سنة ٦٩٨ هـ كان يتصيد بالفور بالشام .

وقد اهتم السلاطين بطيور الصيد وكلابها على اختلاف أنواعها ، حتى أنشأوا لها المطاعم ، وعينوا لها من يقوم على خدمتها من البازدارية والخولة والكلابزية وأجزلوا لهم العطاء حتى وصل اقطاع بعضهم فى عصر السلطان الناصر محمد قرابة الألف دينار ، خاصة انه كان يحرص على جلب الجوارح من الصقور والشواهين والسناقر والبزاة حتى أصبح كل أمير عنده منها عشرة سناقر ثقل أو تكثر . ويقال انه ترك بعد وفاته مائة وعشرين سناقرا خاصة به ، وأن ذلك لم يعهد من قبله فى مصر ، كما ترك أيضا ثمانين جوقة من كلاب الصيد بكلابزيتها (٨) ، وهى التى أصبحت خمسين جوقة فى عهد الناصر حسن سنة ٧٤٨ هـ فقطعت وأبقى منها على جوقتين فقط .

وجدير بالذكر أن هدايا السلاطين كانت غالبا ماتضم عددا من الحيوانات النادرة وحيوانات الصيد ، فقد أرسل السلطان الى صاحب ماردين هدية ، عبارة عن قيل وزرافة وأربعة فهود ، توجه بها شهاب الدين أحمد الدنيسرى السواق وهو من مقدمى الحلقة المنصورية .

وقد اعتاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الخروج للصيد فى مواضع متعددة حتى أنه لم يدع أرضا تعرف بصيد الجوارح الا أقام بها صيادين يقيمون فى البرية أو أن الصيد ، ويبدو أنه كان يفضل الخروج للصيد فى صعيد مصر بصحبة قاصديه من الخارج ، كما كان كثير من الأمراء أيضا يخرجون الى هناك بفرض الصيد من دون السلطان .

وفى المحرم سنة ٧٠٢ هـ رسم لجميع الأمراء والمقدمين بالخروج الى الصيد نحو الغباسة فخرجوا وخرج السلطان مبرزا الى البركة واجتمع هناك بالقضاة الأربعة ثم تقسّم الدهليز الى

الصالحية ودخل السلطان والأمراء الى البرية للصيد حتى وصل
الركب الى الصالحية . وكان في كثير من الأحيان يخرج السلطان
للصيد وفي صحبته الخليفة العباسي ، فقد خرج معه الخليفة
أبو الربيع الملقب بالمستكفي بالله وقد ربطت الصداقة بينهما حتى صارا
كأخوين .

وكان الوزير يشرف بنفسه على ترتيب اقامة السلطان اثناء
سرحات الصيد خاصة أن مدة غيبته قد تمتد أكثر من الشهر في
كثير من الأحيان ، وان كانت أحيانا تقتصر على يوم واحد بغض
النظر عن بعد أو قرب موضع الصيد عن القاهرة ، فقد أقام
السلطان والأمراء جهة الأهرام مدة سبعة وعشرين يوما ، في حين
تجده يتوجه ليطصيد في البحيرة والحمامات ، ثم يطلع الى القلعة
في يومين أو ثلاثة ، ، هذا وقد بلغت مدة سرحته في الرجة القبلي
اثنين وخمسين يوما ، كما كان الركاب يتوجه الى ثغر الاسكندرية
والى الجهات الغربية من أجل الصيد والتفرج في تلك الجهات .

وأیضا حرص السلطان الناصر محمد على ممارسة الصيد ،
حتى وهو في طريقه الى الحج أو لزيارة القدس الشريف ، فيروي
صاحب المختصر في أخبار البشر أنه في ثاني ذي القعدة سنة
٨١٧ هـ « خرج السلطان من قلعة الجبل وتصيد في طريقته الكراكي ،
وكنت بين يديه ، فتفرج على الصيد ، وصاد عدة من الكراكي ومن
السناقر وغيرها ونزل بالدهليز المنصوب وأقام به يتصيد في كل
نهار ببلاد الجوف ورحل من المنزلة المذكورة بكرة الشميس صباح
ذي الحجة ٠٠ حتى وصلنا رابع ٠٠ التي أحرم منها » .

وكان السلطان في طريقه في الرواح والعود يتصيد الغزلان
بالصقور وكان في صحبته أربعون جملا تحمل محابر الخضراوات

المزروعة ، وكان يحصل منها ما يقدم بين يديه ، ويفرق على جميع من في صحبته من الأمراء والأجناد المال بحيث بلغ أقل نصيب فرق في الأجناد ثلاثمائة درهم وما فوق ذلك الى خمسمائة درهم .

وسبق أن خرج السلطان متوجها لزيارة القدس الشريف ، فواصل مسيرته الى الكرك وتوجه الى بركة الأمير سيف الدين تنكز الناصري نائب السلطنة بدمشق المحروسة وهناك تصيد في تلك النواحي ثم عاد الى الديار المصرية .

وتصيد السلطان كذلك في القليوبية بالقرب من قليوب ، وكذا بالخرقانية وحدث أن تعرض لحادث أثناء الصيد فتقنطر وانصدعت يده اليسرى ، فطلع الى القلعة ، وباشره المجرورون والأطباء وعندما عوفى أقيمت له الزينة في كل المدينة واستمرت التهانى عدة أيام .

كما صاحب السلطان الأمير تنكز نائب الشام للصيد بالجيزة وغيرها أكثر من مرة ، على الرغم مما كان يكره له من ضيق في صدره .

كما برز بعض الأمراء أيضا في مجال الصيد منهم الحسين ابن أبى بكر بن جندريك شرف الدين الرومى الذى أصبح من خواص الناصر محمد ، وكان محظوظا في الصيد مما قربه أكثر للناصر فأعطاه تقديما ألف واستمروا الى أن أعطاه تقديما وأصبح أمير شكار .

ويذكر أن الأمير أنص ابن السلطان العادل كتبغا كان يتصيد برغم كونه أعمى - حيث كان قد أصيب فى إحدى عينيه وخفت ضوء الثانية - وكان لا يظن أحد أنه أعمى لامكانه إرسال الجارح وسوق الفرس تحته . وكان السلطان العادل كتبغا راغبا فى الصيد كذلك ، فقد سار من دمشق الى حمص على البرية متصيذا .

أما السلطان المنصور لاجين ، فكان كثير الحركة بحيث يغيب في الصيد الشهر والشهرين مصطحبا معه أرباب الملاهي .

وفي سنة ٧٥٣ هـ وجد فيما ضبط من موجود الصاحب علم الدين بن زنبور الدميرى « وجد في دواره من الغزلان ، والكراكي والغرائيق والنعام ، وحمير الوحش والبط الصيوني والخرفان البشموريات ، وأشياء كثيرة لاتنحصر لكثرتها . . وهذا يشير الى اقتناء حيوانات الصيد وطيوره في المنازل وأنها كانت مظهرا من مظاهر الترف والأبهة في ذلك العصر كما قبل السلطان حسن هدية فيها طيور جوارح .

وفي عهد السلطان الأشرف شعبان ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م ؛ ٧٧٨ هـ / ١٣٧٧ م كان الصيد كذلك يمثل وسيلة مهمة من وسائل الترفيه في ذلك العصر ، ورياضة مهمة لدى المماليك ، فكان البسلطان والأمراء يخرجون في سرحات الصيد الى جهات كثيرة من مصر ، فقد كان السلطان يسرح على عادته الى سرياقوس ، وكذا ير الجيزة كما سار في ربيع الأول سنة ٧٧٠ هـ الى ناحية طنان (٩) للصيد ، ومنها مضى الى الاسكندرية التي زينت له زينة عظيمة ، وخرج أيضا للصيد في البحيرة وكان هذا من عادته وقيل انه خلع ما استجده عند قدومه كل سنة من سرحة البحيرة من الخلع على الأمراء الألوفا .

واهتم الأمراء كذلك بالصيد في عهده ، فخرج كثير منهم للصيد ، فقد توجه الأمير يابغا الأتابك ، وكذا الأمير طيغا الطويل ، أمير سلاح ، الى العباسية للصيد ، كما تصيد بعضهم في جزيرة القط (١٠) .

كما عني بعض الأمراء بتربية الأسماك في برك خاصة ، مثل مافعل الأمير شهاب الدين بن أحمد بن قايماز استادار حينما أراد

عمل بركة شرقى الخليج ليتجمع فيها السمك ، وفتح لها مجرى من جانب الخليج ، مما أدى الى اغراق جهات كثيرة بسبب ذلك .

أما السلطان الظاهر برقوق فكان أيضا مولعا بالصيد بدرجة كبيرة ، حتى انه كان يركب للصيد عدة مرات فى الشهر الواحد . فقد خرج للصيد سبع مرات فى شهر صفر من عام ٧٩٦ هـ .

وكان الظاهر برقوق يتصيد فى مواضع متعددة مصطحبا معه خواصه من الأمراء فى المحرم سنة ٧٨٥ هـ ركب السلطان ومعه الأمير يلبغا الناصرى حتى عدى النيل من بولاق الى الجيزة من أجل صيد الكراكى ، حتى انه كان يستدعى هذا الأمير من دمياط أثناء سيرحته للصيد فى سرياقوس وينعم عليه انعاما كبيرا بلغ مائة فرس ومائة جمل وسلاح ومال وثياب ، قيمة ذلك خمسمائة ألف درهم فضة .

وذكر المقرئى أن السلطان قد خرج للصيد فى اماكن كثيرة من البلاد كما سبقت الاشارة منها جهة الأهرام وسرقوس والبحيرة خاصة فى ناحية دانجة (١١) .

وكان كثيرا ما يخرج للصيد فى بركة الحاج ، لكثرة وجود الكراكى بها ، حتى أنه خرج للصيد فيها فى شهر واحد ست مرات كما تصيد فى المطرية وطنان وغيرها .

وكان من عادة السلطان عندما يخرج الى سرحة سرياقوس أن ينزل بالقصور التى هناك ، ويكون بصحبته الأمراء وأهل الدولة . والمعروف أن آخر سرحة له الى سرياقوس هى تلك التى عاد منها فى الخامس والعشرين من المحرم سنة ٨٠٠ هـ ، ولم يخرج اليها أحد من السلاطين من بعده ، حتى خربت قصورها بعد أن كانت أجمل عوائد ملوك مصر .

وقد اعتاد السلطان أن ينزل بين حين وآخر الى مطعم الطيور خارج الريدانية تحت الجبل الأحمر ، خارج القاهرة ويقعد بمصطبة المطعم هناك (١٢) ، كما كان يستقبل هناك بعض قصاده ، مثلما فعل مع الأمير تنم نائب الشام ، حين قدم اليه فى صفر سنة ٧٩٩ هـ ، كما استقبل هناك عددا من مماليكه المشقرين الذين كانوا يحلب وكان عددهم نحو الأربعين .

ومما يدل على ما للصيد فى حياة سلاطين المماليك من أهمية ، أن التقدّمات والهدايا التى كانت تقدم اليهم كثيرا ما كانت تشتمل على كلاب للصيد وطيور جوارح أو فهود وغيرها ، مثال ذلك تلك التقدمة التى جاء بها الأمير بيدمر نائب الشام الى السلطان الظاهر برقوق واشتملت ضمن ما اشتملت عليه ثلاثة عشر كلبا سلوقيا . كما تلقى السلطان أيضا هدية من الخان طقتمش بن أزيك صاحب بلاد الدشت (١٣) وكانت عبارة عن سبعة سناقر من الطيور الجوارح .

وجدير بالذكر أن حب المماليك للصيد ، كاد أن يجرحهم لحروب ومصائدات مع غيرهم ، ففي صفر سنة ٧٩٥ هـ « قدم الخبير من الحجاز بأن جنتمر التركمانى أمير ركب الشام ، هجم على اشراف بالمدينة النبوية ليأخذ منهم صقرا يصطاد به وفهدا فدافعوه وقتل منهم شريفين ، وكادت الحرب تقع لولا أن ركب الأمير ثابت بن نعيم أمير المدينة ، وكف عن القتال ، وأن الشريف على بن عجلان قبض على سبعين من بنى حسن بمكة » .

ولعل هذا يبرز لنا مدى الحرص على ممارسة الصيد من جانب الأمراء ، حتى لو افتقدوا أدواته ، مما دفع هذا الأمير الى محاولة الحصول على الصقر والفهد ليصيد بهما ، وقد يكون قد دفعه الى ذلك أنه صادف منطقة تصلح للصيد .

ولم يكن السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق أقل من أبيه خبا للصيد حيث مارس الصيد هو وأمرأؤه فى جهات متعددة من البلاد فكثيرا ما عدى النيل الى بر الجيزة ونزل بناحية أوسيم عند مرابط الخيول على البرسيم ليصيد ويتنزه . وقد وقع منه ذلك فى الشهر غير مرة ، ويبدو أن السلطان أثناء تلك السبوحات كان يتناول مشروبا مسكرا ، حتى انه كان يطلع الى القلعة بعدها ، « وهو لا يكاد يملك نفسه على الفرس من شدة السكر » .

وقد تكرر منه ذلك حتى لقد بلغ به الشطط مبلغه حين أمر والى القاهرة أن يقتل عشرة من المماليك الظاهرية - أى ممالك أبيه - لتخلفهم عن الركوب معه ، حينما ركب هو الى الصيد بناحية بهتیب من ضواحي القاهرة . كما كان يعود من الصيد ويشقى القاهرة ، وعليه ثياب جلوسه وهو مالم يحدث من ملك قبله .

ومع انهماك الناصر فرج فى أمور الترفيه هذه صيدا وشرابا فان ذلك لم يسلبه اليقظة ، ولم يلهه عما يحاك ضده من مؤامرات - شأن المماليك فى ذلك العصر - وكما حدث للبعض ممن سبقوه من السلاطين ، مثال قطز ولاجين وغيرهما . فبينما كان يتصيد بناحية سرياقوس ان « بلغه أن طائفة من الأمراء والمماليك اتفقوا عليه ، فعاد الى قلعة الجبل مسرعا وتتبع ما قيل له حتى ظنر بمملوكين عندهما الخبر ، فعوقبا » بعد أن كشفوا له الأمر ، وكان ذلك من تدبير أحد الأمراء هو الأمير جانم .

ومن السلاطين الذين عرفوا بحبهم للصيد أيضا ، السلطان المؤيد شيخ الحمودى (١٥) ، فقد تصيد كثيرا على عادة من سبقوه فى بر الجيزة لصيد الكراكي وكذا غيرها من الجهات مثل الطرانة وسرياقوس ، وتروجة وبركة الحاج (١٦) وبلبيس وأوسيم ، كما ن يحرص على الذهاب الى مطعم الطيور .

ولم نعلم سلطانا ركب للصيد فى بركة الحاج ليلا الا السلطان المؤيد شيخ الذى كان يرمى الطيور بها .

وكذا السلطان الأشرف برسباى كما سيأتى فيما بعد .

ورغم الألم الذى كان يعاوده فى رجله ، ويلزمه الفراش أحيانا ، فإنه ركب المحفة وهو مريض فى ذى القعدة سنة ٨٢١ هـ وسرح ثم عاد ولم يقعه المرض عن ممارسة رياضته فى الصيد .

وكان السلطان الأشرف برسباى يخرج قاصدا الصيد فى البرية ، وخاصة بالليل ، كما كان يرمى الجوارح ويعود من الغد ، وقد تكرر الركوب منه لذلك مرارا ، كما سرح السلطان الى ناحية اطفيح برسم الصيد والقنص ، وبات خارجه المدينة ، كما كان يتوجه الى جهة شيبين والى بركة الحاج فى سرحات متوالية .

ويبدو أنه كان مغرما بالصيد ليلا كما أشرنا ، حتى انه « ركب من القلعة ودخل من باب زويلة وخرج من باب القنطرة للصيد . . . وبات ليلته فى طلب الصيد وفى غده عاد . . . » كما توجه الى الاعمال القليوبية لصيد الكراكى وان عاد منها أحيانا ولم يصطد شيئا .

وقد حمل رسل بن عثمان الى السلطان فى رجب سنة ٨٣١ هـ مقدمة من المماليك عدتهم خمسون مملوكا من جنس الروم وطواشى أبيض ، وخمسة عشر من الطيور الجوارح المختلفة .

أما السلطان اينال فقد كانت عادته أن ينزل بين الحين والآخر الى مطعم الطيور ، مثلما كان يفعل السلطان الظاهر برقوق كما أشرنا من قبل . وكان البازدارية (١٨) يطلقون طيورا أعدوها لهذا الغرض ، ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها

والسلطان يتسلى برؤية هذا المنظر . وحدث مثل ذلك أيضا مع السلطان الأشرف قنصوه الغورى ، حيث نزل من القلعة فى التاسع من شعبان سنة ٩١٧ هـ « وصحبته ولده ، فتوجه الى نحو المطعم السلطاني وجلس على المصطبة التى هناك ، فأرموا قدامه رماية بالطيور والكلاب والصقور والفهود ، وانشرح فى ذلك اليوم » .

وقد كان السلطان الأشرف قايتباى يركب كذلك للصيد بصحبة الأمراء ويشق القاهرة فى موكب حافل ، على عادة السلاطين وأحيانا كان لا يشق منها بل يطلع « من بين القرب » .

وقد تكرر نزوله للصيد فى شهر واحد ثلاث مرات ، وكان يهوى صيد الكراكى والبليشون .

وحدث أن كان السلطان متوجها فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ الى ثغر دمياط من البحر - يقصد نهر النيل - فى عدد كبير من المراكب حوالى المائة مركب وبصحبه الأمراء والأمرء المقدمون والعشرات ، وكذا جماعة من المباشرين والخاصكية والماليك ، وبينما هم فى رحلتهم النيلية اذا بالسلطان يرمى عدة كراخى على احدى الجزر ، فيقوم بنفسه ويرمى عليها بسهم نشاب ، فصرع منها كركيا تحامل بسهمه ووقع فى البحر ، فأسرع اليه أحد السلحدارية ونزل ليحضره فقوى عليه التيار ففرق ، فحزن السلطان عليه كثيرا .

ويبدو أن هذا السلطان كان محبا للتفرج على صيد السمك فقد توجه وهو فى دمياط الى مكان يصاد به السمك البورى ، ونزل فى مركب صغير وشاهد كيف يصاد هذا النوع من السمك ، وانشرح فى هذه السفرة للغاية ، ثم عاد الى القاهرة ، وكانت غيبته نحو من خمسة عشر يوما .

وقد كان من عادة السلاطين أن تشتمل هداياهم على بعض حيوانات الصيد وكذا أنواع من الطيور التي تستخدم فى الزينة ، فقد أهدى السلطان الأشرف قايتباى الى ابن عثمان هدية حافلة كان من جملتها سبع وزرافة وبيغاء حمراء اللون وغير ذلك أشياء كثيرة .

ولعل هذا يوضح أن المالك لم يكونوا يكتفون بمجرد التمتع بصيد الحيوانات أو الطيور ، بل كانوا حريصين على اقتنائها للزينة ، ويدل على أهميتها عندهم أنها كانت تمثل أعلى ما يهدى منهم أو اليهم كما سبقت الإشارة الى ذلك .

ذلك ولم يشذ السلطان قنصوه الغورى عن سبقه من السلاطين فى ممارسته للصيد كرياضة ترفيهية ، فقد توجه الى الفيوم وأخذ يتصيد فى ربوعه كما صاد أيضا فى بر الجيزة ، حيث نزل بالمنية عند امبابة لهذا الغرض .

كما تلقى الغورى هدايا اشتملت على حيوانات للصيد ، عندما حضر اليه أحد القصاد وصحبته مقدمة كانت « نحو من أربعين حمالا ، عليها من الفهود سبعة وقيل كانوا تسعة فمات منهم اثنان » .

كما حضر اليه أيضا قاصد من عند ملك الهند وصحبته فيلان عظيما الخلقة فرجت لهما القاهرة وعرضا على السلطان فى الميدان وقدامهما الطبول والزمر .

الرمى بالبندق (١٨)

والحديث عن الصيد كاحدى وسائل الترفيه يحتم علينا أيضا ان نشير الى الرمى بالبندق الذى كان يستخدم فى الرمى على الطيور وصيدها ، والبندق عبارة عن كرات صغيرة تصنع من

الحجارة أو الطين ، وأحيانا من الرصاص أو الفضة بل أيضا من الذهب .

وكان البندق يطلق بالمزاريق ، وهى أنابيب ترسلها بضغط الهواء أو بالنشاب ، أو بالأقواس أو بما يسمى بقوس البندق أو الجلاهق - جمع الجلاهقات - وقيل بالزبطانة ، ولعلها البندقية .

والبندق وسيلة للصيد كانت شائعة فى عصر سلاطين المماليك ، حتى ان معظم السلاطين قد استخدموه فى رمى الطيور مثل السلطان الظاهر بيبرس الذى « سار الى العباسية ورمى البندق » .

ويبدو أن البندق كان يستخدم غالبا فى صيد الطيور المائية كذلك مثل البجع كما فعل الملك الصالح علاء الدين على بن السلطان المنصور قلاوون الذى رمى بالبندق على البجع بالعباسية وصاد منه كثيرا .

وكان البندق يحمل فى كيس يعرف بجراوة البندق ، خلف السلطان أو الأمير عند الخروج للصيد ، وقد يقوم بهذا العمل شخصان فى بعض الأحيان .

وقد أهدى الى أحد الأمراء عندما صرع بالبندق طائرا من طيور الواجب هدية اشتملت على حلة برسم الصيد وجراوات مزركشة برسم بندق الرمى بلغت الأربعين وكذا من قسى البندق مائتى قوس ومن بندق الرمى ستين بندقة من الذهب الصامت ، ومائة بندقة من الفضة الخالصة .

ويوضح ذلك مدى اهتمام المماليك بالصيد بصفة عامة ، والرمى بالبندق بصفة خاصة ، ومدى تقدير المتميزين فى هذا المجال .

ولم يكن البندق هو الوسيلة الوحيدة لصيد الطيور ، الى جانب كلاب الصيد وفهوده ، وجوارح الطير ، بل أيضا استخدمت الشباك حيث كان الصيادون المهرة يستخدمونها وعرفوا بالمهارة فى ذلك حتى « انهم كانوا يجذبون فى الضربة الواحدة ثمانمائة بطة وبلغ طول الشباك أحيانا مائة وعشرين ذراعا ، ولم يكن جذبها بالأمر اليسير ، حتى لقد كان يقوم بهذا الأمر عدد لا يقل عن ستة عشر شخصا » .

وفى العادة كان الصيد يبدأ بإطلاق الطير فى الهواء ثم يرمى لها الحب لتهبط اليه ، وفى نفس الوقت يضرب الأمراء حولها حلقة وهى لاهية فى التقاط الحب فتدق المطبول لافزاعها والأمراء يتربصون لصيدها .

ويستمر السلطان فى صيد الطيور حتى يأخذ حظه منه وبعدها يتحول الى اقتناص الوحوش ، فتعد الخيول لذلك وتضرب العساكر حلقة كبيرة واسعة يطلق داخلها النعام والظباء ويقر الوحوش وغيرها من الحيوانات ، ويأخذ السلطان فى مطاردتها ومعه الجوارح الصائدة ، فتضطرب الوحوش ويستولى عليها الذعر فى منظر رائع مثير ، وبعد أن يستمتع السلطان ويصيد كفايته ، يترك لأمرائه حرية الصيد .

وكان الرمى بالبندق وخاصة ذلك المصنوع من الرصاص يمارس كنوع من التدريب العسكرى عند المماليك ، خاصة قبل انضمامهم الى التجريدة(١٩) ، حيث كانوا لا ينضمون اليها الا بعد اجتيازهم اختبارا فى الرمى بالبندق أمام السلطان ، ففى ربيع الأول سنة ٨٩٥هـ عرض السلطان قايتباى « أولاد الناس أصحاب الجوامك من ألف درهم فدونه ، وكان أمرهم أن يتعلموا رمى البندق

الرصاص قبل ذلك ، فلما عرضهم وأرموا قدامه كتبهم الى التجريدة وأنفق عليهم كل واحد ثلاثين دينارا ، وكل اثنين أشركهما فى جمل إعطاه لهم وخرجوا صحبة التجريدة .

وهذا يدل على أهمية الرياضة بوجه عام لدى المماليك والصيد والرمى بالبندق بوجه خاص ، حيث كانوا يتخذون منها وسيلة للتدريب على الرمى بهدف اجادة فنونه وذلك بطبيعة الحال يتفق مع ميولهم الحربية التى كانت تعتبر من أهم سمات عصرهم ، حتى ان السلطان يحض على هذا التدريب ، ويتأكد بنفسه من جدية التدريبات التى كان يأمر بها ممالكيه ، خاصة أن بعض السلاطين كانوا أساتذة فى فنون الصيد حتى ادعى لهم الامراء أى انتسبوا اليهم فى الصيد كالسلطان الظاهر بيبرس الذى ادعى له جماعة منهم كما سبقت الاشارة الى ذلك .

ومن اللافت للنظر أن الرمى بالبندق كان يستخدم أحيانا كوسيلة للعقاب ، فقد ذكر أن الأمير تنكر نائب الشام قد غضب على حمزة التركمانى - الذى كان قريبا من قلبه حتى أصبح سفيرا بينه وبين السلطان الظاهر - فأمر بأن يرمى بالبندق ، ورمى حتى تورم جسده ولم يمنعه أحد من ذلك .

أما عن الوظائف التى كانت متعلقة بالصيد سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، فقد حرص سلاطين المماليك - على عادة من سبقهم - على تعيين موظفين تتصل وظائفهم بالصيد اتصالا مباشرا ، وكانت أولى هذه الوظائف ، وظيفة « أمير شكار » (٢٠) أو أمير الصيد ، فكان اذا خرج السلطان للصيد تصحبه جماعة خاصة على رأسها هذا الأمير ، وعمله الاشراف على الجوارح السلطانية ، والعناية بأمرها ، فضلا عن مباشرة أمور الصيد ، وكان

صاحب هذه الوظيفة يعين من أمراء المئتين ثم صار يختار من أمراء الطبلخاناة .

وكان من الأعمال التي يكلف بها أمير شكار أيضا الاشراف على طائفة البازدارية أو البزادرة ، وهم الذين يحملون الجوارح المعدة للصيد ، وكان يرأسهم البازدار (٢١) أو البازيار ، حيث كانوا يتصدرون الموكب ، حاملين بأيديهم صقورا تنقض كالصواعق على كل صيد ثمين تراه أمامها بمخالبها الحادة وتنسب هذه الطائفة الى الباز ، وهو أهم الطيور الضارية التي كان العرب يستخدمونها في صيدهم .

وكانت هناك طائفة أخرى من الموظفين ، يشرف عليهم كذلك أمير شكار ، هم طائفة الحون دارية أو الحواندارية التي مفردها الحون دار ، وهو الذي يكلف بخدمة طيور الصيد وحملها الى المكان الذي تدرب فيه وأصلها « حيوان دار » .

ويعتقد أنه كان لكل أمير يخرج في صحبه السلطان بازدارية وحواندارية أيضا ، يهتمون بطيوره .

وإذا خرج السلطان للصيد بالكلاب ، فكان يصحبه طائفة من الكلابزبة وهؤلاء كانوا كثرة في مصر حتى أصبحوا طوائف متعددة بلغوا خمسين جوقة واتخذت لها موضعا بالجبل ، وقد أمر أحد السلاطين بالغائها فيما عدا جوقتين ، كما سبقت الإشارة الى ذلك .

كما كان هناك حراس خصوصيون ، يختصون بالفهود المدربة التي كان يجري الصيد بها أحيانا ، ففي جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ شوهد في الموكب الرسمي للسلطان الفورى أربعة أنسخاص يتقدمون الموكب وهم راكبون الخيول وخلف كل منهم فهد .

وكان المكان الذى يجتمع فيه السلطان مع هواة الصيد يعرف
باسم « الشكار خاناه » ويكون به عدد وافر من جوارح الطير .

ومن الوظائف المتعلقة بالصيد كذلك ، وظيفة حارس المطير
أو كاشف الطير الذى كان يشرف على أماكن نزول الطيور المزمع
صيدها ، وعليه مراقبة الطيور التى يقوم السلطان بصيدها حتى
تستقر فى مكان تألفه ، وبحظر على الناس القرب منها أو التعرض
لها ، وكان صاحب هذه الوظيفة يختار من بين أمراء العشرات .

وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد ، وخاصة الرمى
بالبندق ، يتولاها موظف خاص يسمى البندقدار (٢٢) . كان يصحب
السلطان فى سرحاته ، ومهمته أن يحمل جراوة البندق خلف
السلطان ، وسبقت الإشارة الى أن العمل قد يقوم به شخصان فى
بعض الأحيان .

هذا الى جانب وظائف أخرى عامة ، كان لها اتصال بالصيد
أو الاعداد له بشكل عام ، لعل أهمها وظيفة الاستادار (٢٣) ، وهو
الذى كان يشرف على تموين سرحة السلطان وتوفير متطلباتها .

وكان موكب الصيد يضم فى السرحات الطويلة الاطباء
وغيرهم مثل الكحالين والجرايحية ، كما كان هناك أيضا من
يكلفون بمعدات الصيد ، مثل الخيام التى كانت تعرف بخيام الصيد
وهؤلاء هم الفراشون ، الذين ينصبونها فى أماكن الصيد ،
ويشرفون على خيام السلطان ومماليكه ، وكذا على خيام الحریم
من الزوجات والجوارى اللاتى قد يصحبن السلطان فى سرحاته .

وكانت أماكن الصيد عبارة عن أحواش عديدة تنتشر فى
أنحاء البلاد ، ويشتمل كل منها على شباك وصيادين مهرة يقومون
بالصيد فى حضرة السلطان .

وقد كان للحرس السلطاني اثناء السرحة أهمية خاصة في حراسة خيمة السلطان اثناء الليل ، وكانت الطبول والكوسات تُلَف حول الخيام ولاسيما خيمة السلطان .

والحق أن اهتمام السلاطين والأمراء وكذا كبار رجال الدولة برياضة الصيد وشغفهم به قد تجلى بوضوح من خلال التحف الاسلامية التي خلفها ذلك العصر فقد حرص الفنانون بشكل عام على تسجيل بعض الصور لهذه الرياضة على منتجاتهم الفنية .

ومن هذه الأعمال ، تلك التحفة المعدنية التي تزينها رسوم صيد بالفهد ، وهي عبارة عن طشت من النحاس المكفت بالفضة محفوظ بمتحف اللوفر بباريس ، يعرف بمعدانة سانت لويس ، لأنه استعمل في تعميد لويس الثالث عشر ثم نسب الى لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي قيل انه أحضره اليها عند عودته من الحروب الصليبية ، وهذا الطشت من صناعة مصر في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وقوام زخرفته مجموعة مناظر مختلفة من البلاط المملوكى للصيد والقتال والحياة اليومية ، من بينهما رسوم لمجموعة من الصيادين يحمل ثلاثة منهم الباز ، على حين يمسك الرابع بمقود فهد فى يده اليمنى وكما سبقت الاشارة فانه يفهم من المصادر المملوكية أن سلاطين المماليك اقتنوا الفهود من أجل الصيد بها ، كما عينوا لها الفهادة لحراستها والاشراف عليها ، وأقام هؤلاء بالقاهرة فى حى خاص بهم ، فيما بين الجوانية والمناخ عرف بخط الفهادين نسبة اليهم .

ويتجلى اهتمام المماليك بالصيد كذلك من خلال تلك النصوص الأدبية التي عرفت برسائل الصيد ، وكذا مكاتبات السلطان الى الملوك الأجانب تتضمن وصفا لركب السلطان وهو فى الصيد وقد أورد من هذه الرسائل تختص برمى البندق عرفت الرسالة الواحدة

منها باسم مقدمة أى قدمات البندق ، وهى تصف الرمي بالبندق ،
وأحوال الرماة واصطلاحاتهم فى هذا المجال ، وأسماء الطيور ،
وكذلك وصف حركة الطير والمطاردة التى تقع بين الصيادين ،
ووصف الطبيعة واللهو الذى يصاحبهم فى تلك الأوقات السعيدة
التي يقضونها فى الصيد .

كما توجد مؤلفات فى الرمي بالبندق مثل كتاب « هداية
الرامي الى طريق المرامي » (فى علم الرمي بالبندق) ، أوضح فيه
مؤلفه ما عليه أهل هذا الفن وقواعده ، وحلاله وحرامه ، مما يدل
على أهمية الرمي بالبندق فى ذلك العصر وقد قسمه صاحبه الى
عشرة أبواب يدور معظمها حول الرمي بالبندق وما يتعلق به .

أما عن رسائل الصيد ، فلدينا رسالة أوردها القلقشندي أيضا
وهى تصف إحدى رحلات الصيد للسلطان قلاوون ، كتبها تاج
الدين البارنبارى .

والحق أن رسالة البارنبارى قد أعطتنا صورة واضحة لرحلات
الصيد وآلاته وأساليبه . وهى صورة تمثل بوضوح هذا الجانب
من حياة المماليك ، فهى توحى بما كان عليه الأمر فى سائر رحلات
الصيد فى ذلك العصر ، حيث أنها تشير الى أوقات الصيد والى
موكب السلطان وخروج الدهليز السلطانى ، وكذا خيام الأمراء ،
كما تصور أيضا أنواع الصيد أى طرقه وعدة كل نوع وآلاته ،
فأشارت الى صيد الطيور وما يلزمه من الصقور والبزاة والشواهين
وكذا صيد الوحوش وما يلزمه من الخيل والفهود ، وكلاب الصيد
التي عرفت بالحوامى ، كما أفاضت تلك الرسالة فى وصف أدوات
الصيد من طيور وخيل وفهود وحوام ، كما تنقل صورة حية لمعارك
الصيد وجولاته ، حتى إنك إن يراها بعينه ويسمع ضجيجها
وصهيل خيولها .

على أنه كانت هناك رحلات أخرى للصيد كان يستخدم فيها
البندق كأداة للصيد ، يخرج فيها السلطان وبعض الأمراء . وقد
لايطول بهم المقيم الا يوما أو بعض يوم ، وكل ما لديهم من أدوات
الصيد هي القسي والبندق .

ولدينا رسالة عبارة عن احدى قدمات البندق تصف رحلات
الصيد هذه تشير الى شرف رياضة الصيد ونبلها ، ثم وصفا
للأمراء الذين خرجوا للصيد ومعهم قسيهم وبندقهم .

وما دمنا فى مجال الحديث عما كتب حول الصيد فى العصر
المملوكى فان من المفيد أن نرى الصيد أيضا فى شعر ذلك العصر .
ونلاحظ أن رسائل الكتاب فى الصيد قد امتزجت بأشعارهم فيه ،
كما فعل الشهاب محمود ، كما نجد أن بعض الشعراء يقدمون فى
رسالة نثرية لوصف البندق ويجعلون منها تمهيدا لأشعارهم التى
تفيد - لاشك - فى معرفة أنواع الطير التى كان يصيدها
الأمراء (٢٤) .

ورغم هذا ، فان نصيب الشعر المملوكى فى التعبير عن هذا
الجانب يعتبر قليلا ، فالصيد - كما ذكرنا - رياضة الممالك ، وهم
الطبقة الارستقراطية المنعزلة عن الشعب ، بينما كان الشعراء فى
ذلك العصر أكثر ارتباطا بطبقات الشعب ، ومع ذلك فقد أسسهم
الشعراء الذين شاركوا فى بعض رحلات الصيد بنصيب فى وصفها
ولدينا بعض الأبيات لسراج الدين الوراق فى وصف رحلة صيد
للملك الصالح علاء الدين (٢٥) .

وهكذا كان الصيد رياضة محببة عند الممالك ووسيلة ترفيهية
مفيدة مارسها السلاطين والأمراء بل شاركت طوائف أخرى من
الشعب فى هذه الرياضة التماسا للترويح ، والترفيه بتلك الوسيلة
المشروعة .

هوامش الفصل الثانی

- (١) البازدارية أو البزادرة ، وعفدها البازدار ، وهى كلمة فارسية يقصد بها من يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد ، وخص بإضافته الى الباز الذى هو أحد أنواع الجوارح دون غيره لانه هو المتعارف عليه .
(انظر ، ابن تغرى بردى . المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٦١٨ ، حاشية ٥) .
- (٢) الرطانة ، بلدة وامعة على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ، بينها وبين القاهرة نحو أربعين ميلا .
- (٣) هليب ، هو وادى الفطرون .
- (٤) تروجة ، وصفها ابن بطوطة فى كتابه الرحلة بانها قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولاهلها مكارم أخلاق ومروءة ، وهى على مسيرة نصف يوم من الاسكندرية (ابن بطوطة ، رحلة ، ص ٢٧) .
- (٥) السدير ، هو الوادى الذى يعرف بوادى الطميلات نسبة الى جماعة من العرب يعرفون بالطميلات ، ومكانه على حدود مصر الشرقية .
(ياقوت ٢ معجم البلدان ، المقرئى ، الخطط ج ١ ، ص ٢٣٢) .
- (٦) العباسية ، هى قرية من الجهة الشرقية لمصر وفى أول حدود الصحراء الفاصلة بين مصر والشام ، بنيت سنة ٢٨٢هـ ، وسميت كذلك نسبة الى العباسية بنت احمد بن طولون وكانت فى ذلك الوقت أول قرية يلقاها القادم من الشام الى مصر بوادى السدير . (ياقوت معجم البلدان المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٢) .
- (٧) البغلطاق ، و البغلوطاق - لفظ فارسى ، وهو قباء بلا أكمام او باكمام قصيرة جدا ، يلبس تحت الفرجية ، وكان يصنع من القطن

البعلبكى الابيض ، أو من السنجاب أو الحرير اللامع ، وكثيرا ما يزين بجواهر ثمينة (المقريزى ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٨٤ ، حاشية ١) .

(٨) الكلابيرية ، جمع كلابيرى وهو الشخص الذى يركب بكلاب الصيد عند السلطان أو الامير (انظر السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، حاشية ١) .

(٩) وطنان . من اعيان قرى مصر ، قريبة من الفسطاط ، ذات بساتين (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ وذكرها ابن دقماق ضمن اعمال القليوبية (الانتصار ، ج ٥ ، ص ٤٩) .

(١٠) جزيرة القط ، ذكرها محمد رمزى انها هى التى تعرف اليوم باسم جزيرة البدرشين بمركز الجيزة ، محافظة الجيزة (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الاول ، ص ٢١١) .

(١١) دلنجة ، ذكر ابن الجيعان (التحفة السنية ، ص ١٢٦) ان دلنجة من اعمال البحيرة وكذا ابن دقماق فى (الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ص ١٠٦) وان كانا قد اختلفا فى مساحتها فقال الاول انها تبلغ ٩٧٣ فدانا فى حين ذكر الثانى انها ١٠٨٨ فدانا ، كما ذكر محمد رمزى ان قرية دلنجة القديمة هذه اندثرت وقامت على مقربة منها قرية (مركز) الدلنجات المعروفة بالبحيرة (القاموس الجغرافى ج ٢ ق ٢ ، ص ٢٦٠ ، القسم الاول ، البلاد المقدسة ص ٢٤٩) .

(١٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٩ ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، المقريزى السلوك ، ج ٣ ق ٢ ، ص ٧٢٦ ، ٧٨٧ . والمقصود مطعم طيور الصيد وكان يقع الشمال الشرقى لخانقاه السلطان برقوق فى صحراء الريدانية (ابن اياس بدافع الزهور ، ج ٢ ، ص ٩٧٦ ، ابو المحاسن ، حوادث الدهور ، ص ٣٨٠) .

(١٣) ذكر ياقوت ان الدشت بليدة وسط الجبال بين اربيل وتبريز ، وان اهلها من الاكراد (معجم البلدان) وقبل انها صحارى فى جهة الشمال وتضاف الى القبجاق وتنطبق حدودها على التركستان الروسية والقوقاز وقازان الحالية الى نهر الفلجا غربا الى بسارابيا على حدود رومانيا (أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢١٧ ، ماجد اطلس التاريخ الاسلامى ، ص ٢٢ ، عقد الجمان تحقيق ونشر ، عبد الرازق القرموط ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٦٢ حاشية ٤) .

(١٤) أوسيم او وسيم . سن المدن العديمة من اعمال مركز امبابة غرب النيل دون الجيزة (محمد رحزى ، القادوس الجغرافى . ج ٣ ق ٢ ، ص ٥٧) .
(١٥) المحمودى . نسبة الى محمود شاه اليزدى الذى اشتراه وباعه بالقاهرة .

(عقد الجمان ، تحقيق ونشر عبد الرازق القرموط ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٦٠ حاشية ٢) .

(١٦) بركة الحاج ، كانت تقع فى الجهة البحرية من القاهرة ، وكانت تسمى أولا بجب عميرة ثم سميت يارض الجب ، وهى فى طريق الحجاج ينزلون بها وكانت تنسب الى عميرة بن تميم النجيبى صاحب الجب بها ، وقد صارت هذه البركة متنزها وللصيد يقصدها السلاطين والامراء (المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٨٣) .

(١٧) يقصد بهم حملة البزاة اناء الصيد ، (انظر ، القلقشندى ، صبح الاعشى ج ٥ ، ص ٤٦٩) .

(١٨) البندق كلمة فارسية ، تعنى الرصاص او الطين او الحجر (انظر ، ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ١٣٥) كما أطلق على البندق المصنوع من المعدن لفظ الخردة ، وتعنى كرات المعدن التى تستخدم فى الصيد (المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ق ١ ص ٦٥ حاشية ٤) .

(١٩) التجريدة ، غرقة من العسكر تشترك الخيالة فيها - وقيل الجريدة هى الخيالة لا منساة فيها (المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، حاشية ٨) .

(٢٠) شكار ، لفظ فارسى بمعنى الصيد ، فيكون المراد : امير الصيد ، وقيل ان رتبة صاحبها امير عشرة (القلقشندى ، صبح ، ج ٥ ، ص ٤٦١) .

(٢١) البازدار ، هذا الاسم يتركب من كلمتين ، اولاهما : الباز وهو احد أنواع الطيور الجوارح ، والثانية . دار بمعنى ممسك فيكون البازدار هو حامل الطير الجارح .

(٢٢) البندقدار ، تتركب من كلمتين احدهما بندق ومفردهما بندقية والثانية دار بمعنى ممسك ، فيكون البندقدار هو حامل البندق (القلقشندى ، صبح ، ج ٥ ، ص ٤٥٨) .

(٢٣) الاستادار ، هو المتحدث فى أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ
والشراب خاناه والحاشية والفلمان (انظر ، القلقشندى ، صبح ، ج ٤ ،
ص ٢٠) .

(٢٤)

فتارة كنت أصيد القسيرا ويعسده العقاب يحكى الجمرا
والكى والكركى صدت جهرا وصدت غرنوشا وعنزا فهرا
وكنت بالاوز فى انشراح

وتارة تما كيدر التيم تتبعه أنيسة كالنجم
ولغغ أسود صل الهم وجرح عن الرماة محمى
والضوع مع سبيطر سياح

وكم وكم قد صدت يوما مرزما انزلته بالقوس من جوالسما
جناحه يحكى طرازا معلما على بياض شبيه شبيه الدما
كأنه ليل على صباح

حيث الصبا تشفع بالقبول وشملنا يجمع بالشمول
فى مجلس ليس به فضولى وجاءنا التوقيع فى الوصول
فسادكم يغفر بالصلاح

(انظر ، فوزى محمد أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى
ص ، ٣٢٣ ، ٣٢٤) .

والملاحظ فى الخمسة الاخيرة ، يورى الشاعر فى كلمة « الوصول »
فهو يقصد ايصالات الهبات ، وكذلك فى كلمة الصلاح اذ يقصد صلاح الدين
المحيوى صاحب رحلة الصيد .

وقال الشهاب المنصورى فى الطواشى شاهين غزالى الظاهرى الرومى
« وكان بارعا فى الجمال ، حسن الشكل وافر العقل والادب » .

قد صاغك الله من لطف ومن كرم وزاد حسنك بالاحسان تزبنا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيور دما من جراء اخلاصنا ان كنت شاهينا
(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٦) .

وكانت الاجادة والتفوق فى الصيد يشدان اننباه الشعراء ويثيران قرائحهم الشعرية حتى اننا نجد الشاعر : بهاء الدين ابو الحسن على بن محمد صاحب ديوان الانشاء بخلب (ت رجب سنة ٧١ هـ) . يقول نظما فيمن رمى فى وقت واحد نعاذة ونسرا وغزالا .

عجبا رأيت وما سمعت بمثلـه
بطلا من الاتراك فوق سهمه
ودنا الى نحو النعامه راجيا
فاتاه تسر طائر من ذوقه
فرماه سهما متكيا فى نحره
واتى الغزال وقد تيقن أنه
وهوى الثلاثة قادرا بسعادة
فى عصرنا هذا ولا فى الاول
مستعجلا من فوق طرف هيكـل
أن سوف يدركها وان لم يعجل
مترقع بسهم الحمام المرسل
ورمى النعامه ثانيا فى القتل
نجاح فاصماه بسهم فيصل
حكمت له بسيادة وتوقـل

(انظر ، الحسن بن عمر ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ج ٢
ص ٥٩ ، ٦٠) .

(٢٥) يقول الشاعر سراج الدين الوراق :

عزيمة صبح فالها بالنجاح
من فهود ومن صقور حداها
ارسلتها سعادة الملك الصالح
ملك ضرج الثرى بدماء
كل يوم من صيده عيد نحر
بين ذى مخلب وذات جناح
يملها فى غدوها والرواح
فاستقبلت وجوه الصالح
حملت رنكها خدود الصالح
فى وهوش وفى عدى كالأضاحى

(انظر ، فوزى أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ص
٣٢٤ ، نقلا عن منتخب الوراق ، ص ٢٧٥) .

* * *

الفصل الثالث

ألعاب الكرة . . والسيّاحة . . والألعاب الأخرى

أولاً : ألعاب الكرة : (البولو)

(شغف السلاطين المماليك بها - مظاهر الاهتمام باللعبة - ألعاب الكرة كمظهر من مظاهر العظمة - أدوات لعب الكرة ووظائفها - موكب السلطان للعب الكرة - طريقة لعب الكرة - حوادثها وأخطارها - أرسناتية لعب الكرة (البولو) - شروط اللعبة - مشاركة الخلفاء العباسيين فيها - اجادة الامراء لها - لعب الكرة عند الشعراء والادباء والفقهاء) .

ثانياً : السباحة :

شغف السلاطين بها - دور نهر النيل فى هذه الرياضة .

ثالثاً : الألعاب الأخرى :

(سباق الخيل - المصراع أو المصارعة - المبارزة والتحطيب أو المطروق - الملاكمة - المعالجة أو رفع الأثقال - اللعب بالطيور وتطير الحمام - المناقرة بالديوك وصياح السمان - المناطحة بالثيران والكباش - اقتناء الحيوانات وترويضها - ألعاب الدبابة والقرادة والحواة والبهلوانات - مواضع المتنزهات والتريض والخروج اليها) .



ألعاب الكرة (البولو)

من الألعاب التى كانت شائعة عند العرب لعبة « الكجة » وكان قوامها كرتين من الخرق يلعب بهما واشتق من اسمها فليل : كج أى

لعب الكعبة كما عبروا عن وسائل اللعب بالكرة بأفعال مثل « قفط الكرة » أى خطفها « وتجاحفوا الكرة » أى تخاطفوها أيضا أو بمعنى دحرجوها بالصوالجة ومفردها (صولجان) (١) ، وهو العصا التى تضرب بها الكرة .

وتشير المصادر الى أن لونا من العاب الكرة كان موجودا فى مصر قبل الاسلام حين دخلها عثمان بن عفان وعمرو بن العاص قبل الاسلام حيث كان القبط يجتمعون فى الملعب بالاسكندرية فى يوم معلوم من السنة ، ويرمون بالكرة ويقال كانت هذه الكرة من الذهب مكللة باللؤلؤ والياقوت ، وكانوا يلقفونها بأكمهم ، فمن سقطت فى كفه لم يمت حتى يملك مصر ، ومرة هوت الكرة فى كم عمرو بن العاص واستقرت به فتعجب القبط من ذلك واستبعدوا ان يحكم هذا الأعرابى مصر .

ومن المعروف أن ذلك قد تحقق لعمرو بن العاص عندما فتح مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وربما كان ذلك محض صدفة ولكن تلك الرواية على أية حال تشير الى وجود نوع من العاب الكرة فى مصر فى ذلك الوقت ، كما توضح اقبال الناس على مشاهدة هذه الالعاب والتلهى بها حتى كانوا يقدرون بالألوف .

كما أنشأ هارون الرشيد لهذه اللعبة ميدانا بجانب قصره ، وقد أولى سائر الخلفاء العباسيين تلك اللعبة عناية كبيرة ، فأعدوا لها الملاعب الضخمة ونظموا المباريات الحافلة وشاركهم فى ذلك الوزراء وسائر عظماء الدولة .

كذلك كان من أشهر من أغرموا بتلك اللعبة أحمد بن طولون الذى شيد لها ميدانا خارج قسطنطينية مصر ، وكان الوزير شاور

يعتبر من أجل وزراء الدولة الفاطمية وأجودهم لعبا بالكرة ، وكذا كان نجم الدين والد صلاح الدين الأيوبي ونور الدين زنكى والملك الكامل الأيوبي مفرمين بلعب الكرة فجدد الأخير ميدان ابن طولون كما أنشأ لها الملك الصالح نجم الدين أيوب ميـدانا على شاطئـة النيل بأرض اللوق كان يسمى بالميدان الصالحى « وصار يركب إليه ويلعب فيه بالكرة » .

ومضمون هذه اللعبة أنها كانت عبارة عن كرة كبيرة من مادة خفيفة كالفلين ونحوه ، تلقى على الأرض ويتسابق الفرسان راكبين فى المتقاطها بالصولجان أو الجوكان فمن سبق منهم الى اصابتها وارسالها فى الهواء كانت له الغلبة .

ويبدو أن تلك اللعبة قد استمرت على نفس الهيئة فى عصر سلاطين المماليك وهو ما سنوضحه فيما يلى .

وقد شغف سلاطين المماليك بلعبة الكرة بدرجة كبيرة ، حتى اننا نجد مظاهر كثيرة من حياتهم تدل على الاهتمام بها ، نعرض لها فى الصفحات التالية حتى ان المعز ايبك (ت ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) - أول السلاطين المماليك - كان له شغف بهذه اللعبة ، ففي ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م « نزل المعز من القلعة ، ولعب بالكرة فى ميدان اللوق ، وصعد آخر النهار الى القلعة ، والأمراء فى خدمته ٠٠ (٢) .

ومن مظاهر اهتمام السلاطين المماليك بهذه اللعبة أيضا حرصهم على انشاء الميادين ، كميدان الظاهرى الذى شيده السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بطرف أراضى اللوق ، ومازال يلعب فيه بالكرة وهو ومن أتى بعده من ملوك مصر حتى سنة ٧١٤هـ / ١٣١٤م حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بهدمه بسبب بعد النيل

عنه ، وجعله بستانا حمل اليه من سائر أصناف الشجر من دمشق وغرسها فيه . ويؤثر عن السلطان الظاهر بيبرس أنه كان خفيف الركاب طوال أيامه راكبا على الهجن ، حتى أنه كان يلعب الكرة في الأسبوع يومين يوما بمصر ويوما بدمشق .

وكان الظاهر بيبرس اذا ركب للعب الكرة يجهز بالجففة وهما اثنان من أوجاقية اصطبلة متقاربان في السن عليهما قباءان أخضران من حرير بطراز زركش ، وعلى رأسهما قبعتان من زركش كذلك ، وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعدة نظير ما يركب به السلطان كأنهما معدان لركوبه ، ويركبان أمامه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة في الميدان الكبير .

كما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) الميدان الناصري في أراضي بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر والقاهرة للعب الكرة وكان يركب دائما أيام السبت حتى في شدة الحر بعد وفاء النيل مدة شهرين من السنة (٢) . كما أنشأ أيضا ميادين أخرى برسم لعبة الكرة منها ميدان القلعة (٣) الذي أجرى له الماء وغرس فيه النخيل والأشجار ولعب فيه بالكرة - حيث كان يجيد لعبها - وقد عمر فوق هذا الميدان القصر الأبلق (٤) .

وجدير بالذكر أن هذا الميدان قد أنشئ فوق بقايا ميدان أحمد بن طولون الذي جده محمد بن العادل الأيوبي سنة ٦١١ هـ / ١٢١٥ م واهتم به الملك المعز أيك حتى بدأ الملك الناصر محمد في عمارته سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ، ولعب فيه الكرة يومى السبت والثلاثاء مع الأمراء والخاصكية وأولاد الملوك ، وأنشئت من أجل هذا الميدان قنطرة الخرق على الخليج الكبير ، ليجتا زها السلطان عند ذهابه الى الميدان ، وقد حرف العامة هذا الاسم

فصار يطلق على ذلك الموضع باب الخاق ، وهو الذى يعرف اليوم
بميدان أحمد ماهر .

وأنشأ الناصر أيضا ميدان المهاري سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م
بالقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى ، ولعب فيه الكرة
مع الخاصكية وكذلك أنشأ ميدان سرياقوس شرقى ناحية سرياقوس
بالقرب من الخانقاه ، وكان يتوجه اليه فى كل سنة ، ويقيم به
أياما ويلعب فيه بالكرة ، واستمر هذا التقليد قائما بعد وفاته الى
ان أبطله الظاهر برقوق فى سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م ، كذلك لعب
السلطان كتبغا الكرة بدمشق ، كما تعود السلطين الركوب للعب
الكرة وهم فى أبهة الملك حيث كان الأمراء والأجناد يمشون بين
أيديهم وكان أول ركوب الظاهر بيبرس لهذا الغرض فى صفر سنة
٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م حيث استمر بعد ذلك يتسابع الركوب واللعب
بالكرة .

وفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م أمر السلطان بعمارة الدور فى
أرض اللوق لينزل فيها طائفة التتر المستأمنين الوافدين من الشام ،
ثم خرج السلطان للقائهم بنفسه ومعه العسكر فلم يبق أحد حتى
خرج لمشاهدتهم وحملت اليهم الخلع والخيول والأموال ، وركب
السلطان الى الميدان وأركبهم معه للعب الكرة وأعطى كبراءهم
امرات .

على أن السلطان الظاهر بيبرس عندما أراد أن يبنى جامعاً
له ، أرسل بعض الأمراء (٥) ، ليكشفوا له مكاناً لذلك بالحسينية
فساروا اليه وأخبروه عن مكان مناخ الجمال السلطانية ، ولكن
السلطان قال : « لا والله لا جعلت (لا أجعل) الجامع مكان الجمال ،
وأولى ما جعلت ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى جامعاً ،

فرتب بناء الجامع في ميدان قراقوش وأوقف بقية الميدان عليه والمعروف أن هذا الميدان كان لقراقوش الأسدي أيام الدولة الأيوبية ثم استعمله الظاهر مدة من الزمن ميدانا للعب الكرة والرمى الى أن بدا له بناء هذا الجامع فبناه فيه ، والمقصود بهذا الجامع ، هو الجامع الظاهري الذي مازال قائما حتى الآن يشهد بعظمة العمارة المملوكية .

ويبدو أن بعض السلاطين كانوا يتخذون من لعب الكرة فرصة لتطبيب خاطر أمرائهم ، وكان اشراكتهم معهم في لعب الكرة دليلا على المنة عليهم والرضا عنهم ، حتى ان السلطان الظاهر بيبرس عندما أطلق الأمير سيف الدين قليج البغدادي المستنصري من الاعتقال « من عليه وأذن له في لعب الكرة معه » .

وحدث أن تغير خاطر السلطان الأشرف قايتباي على الأمير خاير بك الأشرفي وأمره بلزوم داره فلزمها أياما لا يركب فيها ، ثم بعث السلطان خلفه الى ضرب الكرة فطلع الى القلعة وضرب الكرة واتفق أن صولجان السلطان سقط من يده فترجل خاير بك عن فرسه وناوله للسلطان ، فأخلع عليه وأركبه فرسا من خيوله ونزل الى داره مكرما .

وحدث أيضا أن أضاف السلطان قايتباي الملك المنصور عثمان بالبحرة وأخلع عليه وأذن له بأن يلعب معه الكرة ، فلعب مع الأمراء المقدمين وهو « ببند أصفر مثل السلطان » وقد بالغ السلطان في تعظيمه .

كما يبدو أن سلاطين المماليك كانوا يتخذون من لعب الكرة مظهرا للقوة والعظمة ، وأبهة الملك حتى انهم كانوا يشركون قصادهم من البلاد الأخرى ورسل الملوك في اللعب معهم بالكرة امعانا في اظهار حسن الترحيب والضيافة لهم .

بل بلغ الأمر بأحد السلاطين أن لعب الكرة في الميدان ومعه
الأمراء على جرى العادة « وكان السلطان مخصتكا في جسده فلم
يضرب الكرة الا ضربا هينا حتى يقال ان السلطان ضرب الكرة في
هذه السنة (٦) .

وذلك يوضح مدى حرص السلاطين على افتتاح موسم لعب
الكرة بأنفسهم وظهورهم بمظهر القوة والسلامة أمام الرعية ،
لأشياء الا ليقال ان السلطان ضرب الكرة كعادته . ولعل مما يؤيد
هذا الرأي أيضا أن السلطان الأشرف قايتباي لما بدأ يتسوعك في
شوال ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م « وظهرت عليه أشاير الموت ، فضرب
الكرة في هذه السنة ضربا هينا ، بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك
من القوة » .

ولم يقتصر لعب السلاطين للكرة في ميادين القاهرة أو
ضواحيها وإنما كانوا كذلك يلعبونها في ظاهر الاسكندرية ، فقد
دخل السلطان بيبرس الاسكندرية في صفر سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م
وخلع على الأمراء وحمل اليهم التعابى والنفقة ولعب الكرة ظاهر
الاسكندرية وتوجه الى الحمامات ونزل بالليوننة وأتباعها . كما أن
السلطان الأشرف قايتباي لعب الكرة في أرض فضاء في الاسكندرية
على ساحل البحر ولعب معه الملك المؤيد والأمراء وأقاموا في مخيم
نصب هناك ثلاثة أيام .

وفي ذى الحجة من سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ركب السلطان
الغورى وضرب الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين
كانوا بصحبته أثناء سيرته هناك .

وقد عنى سلاطين المماليك بألعاب الكرة عناية كبيرة ، حتى
أنهم أعدوا لها ما يلزمها من خيول وأدوات ، كما خصصوا لها

موظفين من المماليك للاشراف عليها يسمى الواحد منهم الجوكندار ،
أى الذى يحمل الجوكان او المحجن الذى تضرب به الكرة ، وكان
شعار هذا الأمير الخاص به عبارة عن عصوين ، يلعب بهما
السلطان الكرة .

ويوجد بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة صحن من الخزف
الملون تحت رقم ٥٢٧٢ وزخارفه مرسومة بالألوان الأزرق الغامق
والأسود والرمادى والبني على أرضية بيضاء ، وعليه فى الوسط
صورة طائر يحيط به شريط من زخارف نباتية يتخلله رنك به شارة
عصوى البولو ، وهذا الصحن ينسب الى القرن الثامن الهجرى /
الرابع عشر الميلادى .

كذلك كان هناك الأوجاقية المسمون جفتاوات الذين يكونون فى
خدمة خيل السلطان التى كان يخصص لها قسم خاص من الاصطبل
السلطانى يعرف باصطبل الحجورة (٧) ، حيث كان ينتخب منها
الخيل الخاصة بلعب الكرة ، وكان للاصطبلات السلطانية ادارة
خاصة عرفت باسم « الركابخاناه » يحفظ فيها عدد الخيول من
السروج واللجم والكنابيش ، وغير ذلك من نفائس العدد والمراكيب
حتى انها كانت تحتوى مايلزم ثلاثة آلاف فرس ، وتجهيزها بشكل
كامل .

ويعتبر اهتمام المماليك بالخيول واصطبلاتها بصفة عامة ،
والخيول التى تستخدم فى لعب الكرة بصفة خاصة ، دليلا على
ما كانت تمثله مواكب الرياضة من أهمية بالنسبة لهم والتى يتوجه
فيها السلطان للعب الكرة أو الأكرة حتى انهم جعلوا لعبها من رسوم
الدولة - كما سبقت الاشارة الى ذلك - فقد حدث أن السلطان الناصر
محمد كان يفرض لعبها على أمراء المماليك يومى السبت والثلاثاء
من كل أسبوع .

ن عادة السلطان أن يخرج في مركب لعب الكرة على
التي كان يخرج فيها لصلاة العيدين(٨) ، ما عدا
لظلة « ربما دلالة الانطلاق » وتحمل الفاشية أمامه في
آخره ، ويتوجه الى الميدان .

من عادة السلاطين المماليك كذلك تخصيص موسم في
السلطان فيه مع بعض الأمراء في لعب الكرة ، وقد
يسقى والمغاني أثناء اللعب . كما كان من عاداتهم
خروج للعب الكرة ، أن يفرقوا حوائص من ذهب على
المقدمين .

طريقة لعب الكرة في الميدان أن ينقسم أمراء المماليك
بكون السلطان على رأس أحدهما ، وعلى رأس الآخر
، ويكون لعبها من الظهر حتى العصر ، ويقام السمات
في الميدان ذاته حيث تقام خيمة كبيرة وعدة صواوين ،
أن ينعم بالخلع على المشتركين في اللعب وعلى
اتباعه حتى لقد بلغ ماخلعه أحدهم في يوم واحد ،
كرة ، ألفا ومائتي تشريف .

ساهد الرحالة تافور (Tafur) الذي زار مصر
، الجراكسة أحد سلاطين المماليك وأمراءه وهم يلعبون
صف الميدان الفسيح الذي لعبوا فيه بأنه كان مقسما
طوط بيضاء ، وعلى جانبيه عدد كبير من فرسان المماليك
عصا طويلة ، وفي وسط الميدان كرة ويكون اللعب بأن
حريق اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذي ينجح في ذلك
لمبة .

سجلت لنا التحف المملوكية بعض مناظر هذه اللعبة زمن
اليك فبالإضافة الى ما سبق ذكره منها فأننا نشير الى

بعض هذه التحف التي تدل على اهتمام فناني ذلك العصر بتسجيل تلك الرسوم عليها ، ففي متحف الفن الاسلامى بالقاهرة توجد مشكاة باسم الأمير الملك ، ترجع الى حوالى سنة ٥٧١٩/١٣١٩م عليها كتابة باسم هذا الأمير تتخللها ثلاثة رنوك بها شارة عصوى البولو (شارة الجوكندار) .

كما توجد أيضا بنفس المتحف جلود كتب ايرانية ومخطوطات بها صور توضيحية ، واحدى هذه المخطوطات برقم (١٣٧٢٧) لديوان الشاعر حافظ الشيرازى مؤرخ سنة ٥٩٣٩/١٥٣٢م ويحوى احدى الصور التوضيحية وتمثل منظر لعبة البولو ، يظهر فيه الفرسان على ظهور جيادهم وبأيديهم عصى البولو الطويلة يحاولون بها ضرب الكرة .

ولعل فى هذا مايدل على انتشار هذه اللعبة فى العصور الوسطى حتى خارج حدود دولة سلاطين المالك .

هذا وقد جرت العادة أن يقدم المهزوم فى اللعب وليمة حافلة ربما وصلت تكاليفها مائتى الف درهم لكثرة ماينبح فيها ، وفى بعض الاحيان كان السلطان يتحمل نفقات هذه الوليمة وان كان هو الغالب ، وذلك تخفيفا عن المغلوب ، كما حدث من السلطان الظاهر برقوقى فى يوم السبت الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م ، حيث عمل مهما عظيما بالميدان تحت القلعة بسبب لعب الكرة على العادة ، وكان المغلوب هو الأمير ايتمش ، والتزم ايتمش بعمل مهم بمائتى الف درهم لكونه غلب فى اللعب فقام السلطان عنه بذلك ، والزم به الوزير بدر الدين محمد بن الطوخى ، والأمير يابغا الاستادار . ونصبت الخيم بالميدان وعمل المهم على نفقة السلطان .

وجدير بالذكر أن كثيرين من سلاطين المماليك وكذلك الأمراء قد تعرضوا للاخطار اثناء ألعاب الكرة ، فأصيب بعضهم اصابات بالغة ، وفقد بعضهم حياته لهذا السبب ، ففي سنة ٦٧٨هـ / ١٢٨٠م توجه السلطان السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس الى الكرك ولعب بالاكرة فى ميدان القلعة فتقنطر به الفرس فانكسر ضلعه ، ومات من وقته .

كما ذكر أن السلطان لاجين ركب الى الميدان ولعب بالكرة أيضا فتقنطر عن الفرس كذلك « وانكسر أحد جانبي يده اليمنى وتهشم بعض أضلعه وانصدعت رجله وخيف عليه » . هذا وقد كبا الفرس به أيضا ذات مرة وأصيبت يده ، ولما عوفى منها ركب فدعا له الناس وفرحوا به خصوصا الحرافيش فناداه أحدهم قائلا : « يا قضيبي الذهب بالله أرنا يدك فرقع (السلطان) يده وهو ماسك المقرعة وضرب بها رقبة الفرس الذى تحته ويبدو أن تلك الحوادث كانت تجذب أنظار الأديباء والشعراء كغيرهم من الناس ، حتى انه لما كبا الفرس بالسلطان قال الأديب محمد بن البياعة فى ذلك شعرا (٩) .

كما أن حوادث الأمراء فى لعب الكرة كانت متعددة كذلك فان الأمير دولاب باى الفلاح - أحد الأمراء المقدمين - ساق الفرس وهو يلعب الكرة فى ارض محجرة فتقنطر به ومات الأمير فى هذه الحادثة .

وحدث أيضا أن تقنطر الأمير قرقماس ووقع على الأرض ولكنه قام وركب .

وفى المحرم من سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٧ م كبا فرس الأمير طراباى رأس نوبة النوب وهو يضرب الكرة مع السلطان الغورى ،

فأصيبت يده ، ومات فرسه فأنعم السلطان عليه بفرس غيرها ،
وكذلك أغمى على الأمير نوروز أخى يشبك الدوادار أحد المقدمين ،
ونزل الى داره محمولا بسبب سقوطه من على فرسه وهو يلعب
الكرة فى الميدان مع السلطان ، وكان ذلك فى صفر من سنة ٩١٦هـ/
١٥١٠ م .

ومرة أخرى انصدع كتف الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة
النوب الذى كان يلعب الكرة مع السلطان كذلك فى الميدان فى ربيع
الآخر سنة ٩١٨هـ/١٥١٢ .

ويبدو أنه رغم تعدد الحوادث اثناء لعب الكرة فانها كانت
تبدو فى وقتها أمورا عادية ، حتى اننا لم نسمع عن امتناع أحد
السلاطين أو الأمراء عن لعب الكرة حين يحل موسمها الا لظروف
طارئة كالاشتغال بالحروب أو الفتن ، فقد امتنع السلطان المنصور
على ابن السلطان الأشرف شعبان عن الركوب للميدان برسم لعب
الكرة لذلك السبب .

كما امتنع السلطان الصالح حاجى سنة ٧٨٤هـ/١٢٨٢م عن
استكمال موسم لعب الكرة بسبب غرق الميدان بماء النيل ، وقد
يمتنع السلطان عن لعب الكرة أياما بسبب صحى عارض يلم به
كالقوانج أو غيره ، ثم مايلبث أن يعود لممارسة هذه الرياضة بمجرد
شفائه . بل ان أحد السلاطين وهو السلطان الغورى قد أبطل ضرب
الكرة فى ربيع الأول سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م ، بسبب عارض فى
عينه ، وبسبب انتشار وباء الطاعون بين الناس « وكان غالب
الأمراء فى نكد بسبب فقد أولادهم » .

ويبدو أن هذه الرياضة المعروفة باسم (Polo) حاليا ،
كانت وما تزال حتى وقتنا الحاضر لعبة ارستقراطية لا يمارسها

سوى الملوك والامراء وعلية القوم ، فلم نسمع أن أحدا قد لعبها من عامة الشعب فى عصر المماليك حتى الآن ، كما يبدو أيضا أنها لعبة لها خطورتها على لاعبيها ، بحيث تتطلب مهارات معينة (١٠) .

فقد كان من شروط اجادة اللعب فيها ، أن يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة ، ويكون ضربه مترفقا مترسلا ، وأن يكون الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل لبتها فى رفق ، وأن يستعين بسوط لا يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقر قوائم دابته ، كما أن عليه أن يحترس أيضا من ايداء من يجرى معه فى الميدان ، وأن يحسن التحكم فى الدابة بحيث يكفها فى شدة جريانه على أن يتقى الصرعة والصدمة فى تلك الحال ، وأن يبتعد عن الغضب ويتحفظ من لقاء كرة على ظهر بيت ، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لأن عرض الميدان انما جعل ستين نراعا لئلا يجال ولايصال على من جلس على خائطه .

ومما لاشك فيه أن تلك الشروط كانت محل عناية وتنفيذ من جاذب اللاعبين سواء كانوا سلاطين أو أمراء ، وان كنا نلاحظ خروجها عليها فى بعض الأحيان حتى انه فى المحرم من سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م « وقع بين تغرى بردى ططر والاتابكى أزيك ، فحنق منه فزاحمه عدة مرات وهو صابر عليه ثم حنق منه وضربه بالصولجان على ظهره حتى تكسر الصولجان عليه » ، مما جعل تغرى بردى يسب الاتابكى أزيك بفاحش القول ، حتى تدخل بينهما أحد الأمراء وثنى الاتابكى أزيك عنان فرسه ونزل الى داره وهو غاضب ، وبلغ ذلك السلطان الأشرف قايتباى فتنكد بسبب ذلك .

ويذكر ابن اياس واقعة أخرى مما كان يقع بين السلاطين والأمراء بسبب لعب الكرة فيقول : انه فى المحرم من سنة ٩٠٤هـ /

١٤٩٩م ضرب السلطان الناصر محمد بن قايتهباى الكرة بالحونس ، ولم يكن فى اليوم المخصص للموكب وكان معه بعض أمراء طبلخانات وعشرات ، منهم الأمير طومان باى الدوادار الثانى ، وعند اللعب صار طومان باى يقتحم على أخذ الكرة من السلطان مما جعل السلطان يحنق منه ويضربه على ظهره بالصولجان أكثر من مرة ، فكان ذلك مدعاة لحقد طومان باى على السلطان .

وتشير المصادر الى أن بعض السلاطين قد يركبون للعب الكرة فى الميدان الكبير بشاطيء النيل خمس مرات فى أيام السبت المتوالية ، على أن العادة فى ذلك كانت الركوب بعد وفاة النيل فى ثلاثة سبوت متوالية ، وقد فعل ذلك السلطان الأشرف شعبان سنة ١٢٧٢/٥٧٧٣م .

وان كان البهض قد ركب للعب الكرة فى أيام غير محددة مثل السلطان المنصور قلاوون الذى ركب لهذا الغرض يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٢م ، ولم يتقدمه أحد فى ذلك .

، أما عن الخلفاء العباسيين بمصر فكانوا يشاركون السلاطين فى لعب الكرة ، كما فعل الخليفة العباسى الأول بمصر وهو الامام أحمد الحاكم بأمر الله مع السلطان الناصر محمد ، ومثل ذلك حدث مع الخليفة المستكفى الذى كان يلعب السلطان الكرة فى الميدان ، وجدير بالذكر أن المستكفى وأولاده كانوا يجيدون لعب الكرة .

وكان من عادة بعض السلاطين الجلوس للمنظر فى المظالم فى الميدان الذى تحت القلعة أثناء الاحتفال بلعب الكرة ، إذ بنى فى الميدان بيت يرسم المحاكمات كما كان من عادتهم أيضا اصطحاب الأمراء فى لعب الكرة ، حتى كان السلطان يرسم بخروج جميع

الأمراء معه ، ولايسمح لأحد منهم بالتخلف عن ذلك الا لمن يكون خارج البلاد ، ويبدو أن كثرة مران الأمراء على هذه الرياضة واشتراكهم فيها قد أدى الى اجادتهم لها اجادة تامة ولاغرو في ذلك فهم فرسان في الأصل ، مما مكنهم من ذلك تمكينا كبيرا ، فقد ذكر في ترجمة محمد بن بكتمر بن الجوكندار (ت ٧١٠هـ / ١٣١١م) انه « انتهت اليه الرياضة في لعب الكرة ، فلم يكن في زمانه من يجاربه الا علاء الدين قتلجا ، فكانا اذا اجتمعا رأى الناس منهما العجائب وكان التاصر يكرمه ويدعوه أخى » .

كما ذكر عن بعض الأمراء أنهم كانوا يكثرون من لعب الكرة ، وانهم كانوا معروفين بحسن اللعب مقدمين في ذلك « وكانوا في لعب الكرة غاية » .

وتجدر الاشارة الى أن السلاطين كانوا يحرصون على ابتداء ضرب الكرة بأنفسهم فيفتتحون بذلك موسم ضرب الكرة ، فيلعبون مع الأمراء بالميدان وكثيرا مايكون ذلك في حضرة بعض القصاد الأجانب ، وفي جمهور كبير من النظارة حيث كان لهذه الرياضة عشاقها الذين يمارسونها وعشاق آخرون يكتفون منها بالمشاهدة والاستمتاع بذلك دون ممارسة ، الى جانب حرص السلاطين على ختم موسم اللعب كذلك بأنفسهم ، حيث كان يعقب ذلك في العادة أن تمد للأمراء أسمطة حافلة تحوى المأكلة الفاخرة والحلوى والفاكهة وغير ذلك ، ثم يتلو الأسمطة أن يخلع السلطان على الحاضرين من الأمراء والموظفين وغيرهم كل حسب قدره ، كما سبقت الاشارة الى ذلك .

ويبدو أن مظاهر البذخ في هذه الاحتفالات ماكانت لترضى كل المماليك خاصة صغارهم ، حتى أنهم كانوا أحيانا يحنقون على

السلطان وخاصته فيقومون بختف ما فى السماط ونهبه ، بل تحطيم أدواته ، ربما كان ذلك بدافع الاحساس بالحرمان ، واذا كان هذا يحدث ممن هم من جنس المماليك فلنا أن نتصور اذن كيف كان حال غيرهم من عامة الشعب من عامة الشعب من المصريين !

ويثبت ذلك ما حدث مع السلطان الغورى عندما أقام بالميدان وقت اشتداد الحر أربعة أيام بلياليها « وهو فى أرغد عيش ، وأطلق الماء فى البحرة التى بالميدان ، وصار يمد السماط هناك ويأكل هو وأخصاؤه ، فشق ذلك على بقية مماليكه ، فلما نزلوا اليه بالسماط خطفوه وكسروا الصدحون الصينى » .

وكما أسهم فنانو العصر المملوكى فى تسجيل هذه اللعبة على منتجاتهم فان الشعراء أيضا لم يفتهم ذلك ، وان كان نصيب هذه الرياضة من الشعر فى ذلك العصر محدودا للغاية رغم كثرة ما وصلنا من شعرهم بشكل عام فى المصادر الأدبية والتاريخية فلم يقع فى أيدينا سوى بعض الأبيات القليلة عن ضرب الكرة منها (١٨) .

أما نصيب ألعاب الكرة من النثر فلدينا مكاتبة أوردها القلقشندى فى صبح الأعشى ، صادرة عن ديوان الانتشاء ، وهى مرسلة الى نائب الشام بشأن طلب عصى الجواكين والكرابيج والاكرا .

وقد أشار الفقيه ابن تيمية الى هذه اللعبة فقال انها حسنة اذا كان المقصود منها المنفعة للخيل والرجال ، بحيث يستعان بها على الكر والفر والدخول والخروج ونحوه فى الجهاد ، وبغرض الاستعانة على الجهاد الذى أمر به الرسول (صلى الله عليه وسلم) أما اذا كان فى ذلك مضرة بالخيل والرجال فانه ينهى عنها .

كما ذكر السبكي أن « ما يعتاده الأمراء في هذا الزمان من لعب الكرة في الميدان حلال وينبغي أن يقصدوا به تعليم الخييل والاقبال والادبار والكر والفر » .

ولا نظن أن لعب الكرة أو الصولجان زمن سلاطين المماليك قد خرج عن هذه الأهداف كثيرا ، بحكم طبيعة ذلك العصر ، فكانت الكرة رياضة تدريب وترفيه .

السباحة :

أما عن السباحة فكانت من وسائل الترفيه المهمة في العصر المملوكي كما كانت كذلك من قبل ، حيث كان العرب يقبلون عليها خاصة أن الخليفة عمر بن الخطاب قد حث عليها وأوصى الآباء أن يعلموا أولادهم السباحة وتشير المصادر المملوكية الى ممارسة بعض السلاطين لهذه الرياضة ، حتى عرف بعضهم بولعه الشديد بالسباحة لمسافات طويلة ، حتى ان السلطان الظاهر بيبرس قد سبح مرة في النيل وهو يرتدى ملابس الحرب ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة .

وروى المقرئ أيضا أن السلطان المؤيد شيخ سبح في النيل مع خاصته في المسافة ما بين بيت كاتب السر (١٢) ، ومنية السيرج (١٣) ، ثم عاد في الحراقة الذهبية ، ومن العجب انه كان يسبح بقوة على الرغم من الألم الذي كان يلازمه في رجله حتى انه كان يعجز عن القيام ، فيقع في تخت من خشب ، وترضى به من أعلى الدار بحبال الى الماء ، وكان عندما يعود يرفع به في التخت كذلك حتى يجلس على مرتبته ، وتصانف زيادة النيل في تلك السنة فتيا من الناس بعموم السلطان ، وقالوا انه زاد لكونه سبح فيه

فلما علم السلطان ذلك قال : « لو علمت أن ذلك يقع لما سبحت فيه
لئلا يضل العوام بذلك » .

ويبدو أن مقياس اجادة السباحة فى ذلك العصر كان أن يسبح
الشخص بقصد عبور النيل من بر الى بر ، حيث كان النيل أهم
الأماكن التى تجذب الناس للسباحة فيه ، خاصة سكان القاهرة ،
حيث لم يقع فى أيدينا مايشير الى ممارسة السباحة فى البحار ، ففى
سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م فى عهد السلطان الأشرف قايتباى ، يقال ان
مركبا ببولاق غرقت فى وسط البحر (النيل) ليلا بمن فيها من الناس
والدواب ، وانه كان بها شخص علامة فى السباحة يعوم من البر
الى البر مفرق فى حين نجا صبى صغير لا يعرف السباحة .

وذلك يدل على اجادة الكثيرين لرياضة السباحة فى ذلك
العصر كغيره من العصور السابقة ، ولاغرو فى ذلك فقد كان العرب
فى الجاهلية يلقبون الرجل « بالكامل » اذا كان شاعرا شجاعا
سابحا راميا .

الالعاب الأخرى :

سباق الخيل

ويمكن أن نضع سباقات الخيل فى مرتبة الألعاب الرياضية
التي اتخذت كوسيلة من وسائل الترفيه ، وأقبل عليها المسلمون
بصفة عامة ، والماليك بصفة خاصة ، فقد حظيت هذه الرياضة
بعناية الخلفاء واهتمامهم ، لما عرف عن الرسول (صلى الله عليه
وسلم) من حبه للخيل ، حتى قيل انه كان يمسح فرسه بثوبه ، كما
كان يجرى الخيل ويسابق بها .

وفى زمن سلاطين المماليك كان لسباق الخيل شأن عظيم ،
حتى ان السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى - على سبيل المثال -
كان يأمر العسكر بالركوب الى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل ،
وهم فى أحسن زى للتريض على ظهور الخيل حيث يزدحم الناس
بالميدان للفرجة عليهم على مدى خمسة أيام .

وربما يكون هذا التقليد قد استمر حتى أيام السلطان المنصور
قلاوون وابنه الأشرف خليل ، حيث كان الأمراء والمماليك السلطانية
تتسابق بالخيل فى هذا الميدان أمامهم ، وشغف سلاطين المماليك
بالخيل ، وكان أكثرهم شغفا بها هو الناصر محمد بن قلاوون فقد
عنى بشراء الخيول العربية الأصيلة ، وبذل فيها أموالا ضخمة ،
حتى وصل ثمن الواحد منها أحيانا ثلاثين ألف درهم كما اشتهر
بشدة العناية بأمرها حتى صارت له دراية عظيمة بأنواع الخيل ،
حتى بلغت عدة خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس ،
عدا أربعة آلاف وثمانمائة أخرى فى الاصطبلات ، وخمسة آلاف من
الهنج والذوق ، وقد انتشر سباق الخيل فى عهده ، وبلغ من اهتمام
المماليك بالخيل أن كانت تقام لها أسواق خاصة ، تعرف بسوق
الخيل .

وكان لتلك الأسواق أهميتها حتى كان أحدها وأهمها قريبا من
قلعة الجبل ، مركز الحكم ، ورمز السلطة فى مصر وقتئذ ، وكان
اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرا من مظاهر القوة والجاه ، حتى
انه كان يحرم على العوام ركوب خيول أصايل (١٤) ، ففى ذى
القعدة من سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م فى عهد السلطان المنصور حاجى .
نودى بالمقاهرة وظواهرها أن العوام لا يركبون خيولا أصايل ،
والحمارة لا يأخذون أكاديش ولا يحملون عليها شيئا .

وكان أكثر ميل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى الخيول العربية عكس أبيه فانه كان يفضل عليها خيول برقة ، وجلب اليه التجار الخيول من البحرين والحسا والقطيف والحجاز والعراق وغيرها ، خاصة ماكان يجلب اليه من خيول « آل مهنا ، وآل فضل » وهم من العرب المتخصصين فى احضارها له وقد أتوه بأجود الأنواع ، خاصة أن الخيول العربية هى التى كانت مطلوبة للسباق وللحاق وكانت أنفس الخيول وأغلاها قيمة ، وتجلب كما أشرنا من بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة .

وفى سوق الخيل كانت تنتقى الخيول بواسطة ذوى الخبرة من الفاحصين الذين كانوا يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها ، وكان للتفرس قواعد تراعى عند الاختيار ، فلا بد أن ينظر الى الفرس فى جميع حالاته ، خاصة أثناء الجرى ، والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ورقة جحافلته ، وقصر ساقيه وقلة القوائمه ، ولين التفاته ، واذا قيس ما بين آثار قوائمه وقت جربه كانت المسافة ست أذرع ، بكون الفرس سباقا واذا كانت المسافة أربع أذرع الى خمس فيكون الفرس متوسط الجرى ، أما اذا كانت أربع أذرع أو ثلاثا فهو بطيء ، كما يجب أن يكون سهيله صافيا فان ذلك دليل صحة المرئتين ، وكذا علامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية .

ولم ينقطع سباق الخيل فى زمن السلطان الناصر محمد فلما مات بطل الى أن أعاده السلطان برقوق ، وكان له أيضا رغبة فى الخيل ، حتى قيل انه ترك عند موته سبعة آلاف فرس وخمسة عشر ألف جمل وهجين ، كما كان يشتري الفرس بأعلى من قيمته الى عشر مرات ، غير العطايا .

وأثر عن السلطان الظاهر برقوق انه عرض فى سنة ٧٩٢هـ /
١٣٨٩م خيل السباق وفرقها على الأمراء ، « كما كانت العادة يوم
ذاك » . وذكرت المصادر المعاصرة أن السلطان المؤيد شيخ بعد أن
شفى من مرضه ركب فرسا ومعه الأمراء والماليك وكان ذلك فى
شعبان من سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م ووقف بهم تحت قبة النصر ، وقد
بعث أربعين فرسا الى بركة الحاج فأجريت منها وأتته فى النهار ،
وكان ذلك بغرض الفرجة على سباق الخيل « فيحصل له برؤيتها
النشاط » . وهو فى هذه المرة قد جعل ابتداء الشوط من بركة
الحاج وان كانت فى الغالب هى نهاية الشوط فى سباق الخيل من
القاهرة .

والى جانب سباق الخيل فان السلطان المؤيد شيخ كان يهوى
كذلك سباق الهجن ، فقد ركب فى الشهر ذاته الى بركة الحبش ،
وساق بالهجن ، ونظر فى عليق الجمال واستكثره فرسم أن يصرف
نصف عليقة لكل جمل .

وذكر أن السلطان الأشرف برسباى كان شرسا فى جمع
الخيول والجمال وغيرها . كما كان الأمراء أيضا مهتمين بسباق
الخيل ، حتى أنهم كانوا يتسابقون فى الفضاء الممتد فيما بين قبر
الامام الشافعى الى باب القرافة طولاً وعرضاً ، وكان السباق يستمر
أياماً تحدث فيها اجتماعات جليلة للتفرج على السباق .

أما عن ميادين السباق وأشواطه فكان من عادة سلاطين
الماليك أن يخصصوا ساحات متعددة للسباق ، تسمى الواحدة
منها حلبة ، أما موضع المسابقة فيسمى بالمضمار ، والمدى يسمى
غايته ، وتكون الغاية طبقاً لما يتفق عليه ، وكانوا يجعلونها مائة
غلوة ، والغلوة قيمة رمية السهم العربى ، وهى خمسمائة ذراع ،
وقد تجعل من مواضع معلومة الى مواضع أخرى معلومة أيضا

وهذا ما طبقه المماليك وهو ما كان معروفا قبلهم • وكانت تقام في
الميادين أعمدة رخام تعرف بعواميد السباق ، بين كل عمودين مسافة
بعيدة •

وكان المماليك يتراهنون في السباق كما كان يفعل العرب من
قبل •

ويمكن تلخيص أسلوب السباق الذي كان يجري في الساحة ،
حيث تقف الخيل في الميدان ، ثم تصف على المقوس ، أي الحبل
الذي يمد في صدور الخيل لتكون متساوية ، وترص حوافرها كالمشط
المنظوم ، ثم يرفع المقوس في سرعة فتنتطلق عشرة عشرة ، دفعة
واحدة •

أما عن الفارس نفسه فان السباق يحتاج الى فارس عارف
بأحوال الخيل ، خفيف الجسم ، قليل اللحم • وتشير المصادر الى
انه في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أهداه الأمير العربي
مهنا فرسا شهباء للسباق وطلب الا يركبها عند السباق الا « بدوى
قادها » وقادها البدوى في السباق عريا بغير سرج وهو يرتدى
قميصا وطاقية فقط ، وسبقت كل الخيول ، فشق على السلطان أن
تسبق خيله وخيل الأمراء وأبطل التضمير على خيله وصار الأمراء
يضمرون على عاداتهم •

وقد اشتملت بعض مخطوطات الفروسية والبيطرة المنسوبة
الى العصر المملوكي على رسوم تمثل سباقات الخيل ، ومن بينها
واحدة من مختصر كتاب البيطرة لابن الأحنف المحفوظ بدار الكتب
المصرية ، تمثل فارسين يتسابقان •

ولم يكن سباق الخيل والهجن مجرد رياضة تمارس بغرض
الترفيه فحسب بل كانت رياضة تدريبية مهمة ، تؤهل صاحبها ليكون

فارسا عطيماً ، يعتمد عليه فى الحروب التى كانت سمة ذلك العصر كما كانت هذه الرياضة كما وضع لنا ارسنقراطية لا يمارسها الا السلاطين والامراء والاجناد لامتلاكهم الخيول اللازمة لها والتى كانت تؤول اليهم فى العادة على شكل هدايا(١٥) أو هبات. وأعطيات من السلطان أو الامراء بينما اقتصر نصيب عامة الشعب من هذه الرياضة على مجرد المتعة الناتجة عن التفرج عليها .

المصارعة :

ومن الرياضات المهمة التى تسلى بها الناس فى عصر سلاطين المماليك ما عرفه بفن الصراع ، ويقصد به المصارعة ، حتى أن السلطان حاجى « صار يحضر الأوباش بين يديه يلعبون بالصراع وغيرها » ، وقيل أنه كان يمارسها بنفسه مع العسوام ، حيث كان يلبس تيان من جلد ، وهى سروايل قصيرة ويتعرى من جميع ثيابه ويصارعهم .

وكان من الامراء من يجيدون هذا اللون من الرياضة ، فان احد الامراء العشرات يقال له قرقماس المعلاى المصارع أمير اخور رابع ، كان علامة فى الصراع وهذا الأمير كان صهر المؤرخ ابن اياس ، وكما يبدو أنه كان يجيد فن الصراع حتى نسب اليه فأطلق عليه المصارع كما سبق .

كذلك كان من الأعيان من يمارسون المصارعة فقد أشار ابن اياس الى أحدهم وهو سيدى اسماعيل بن الأمير لاجين بأنه كان بارعا فى فن الصراع وتوفى بالطعن فى ذى الحجة سنة ٥٨٨١هـ / ١٤٧٦ م .

كما أشار أيضا الى ممارسة ممالك السلطان لهذه الرياضة وكان منهم من يشغل رأس نوبة ومنهم على سبيل المثال فى عهد

السلطان قايتباى الأمير مغلباى الفهلوان المحمدي الأشرقي اينال
الذي كان عارفا بفن الصراع ، علامة فيه .

وقد تضمنت احدى المخطوطات الخاصة بالفروسية ورمى
الرمح شيئا عن المصارعة فى عصر سلاطين المماليك ، وأشارت الى
أنواع من الصراع التركى والعربى والعجمى ، فأوضحت ما يلبس
أثناء المصارعة ، وكيفية دوران المصارعين كما شرحت كيفية
مدافعة الخصم ، وتوجيه الضربات له وكذا كيفية ابطال حركات
الخصم وشل حركته .

وقد أوردت هذه المخطوطة بعض التصاوير التى توضح
أوضاع المصارعة والتدريب عليها فى ذلك العصر .

ويبدو من خلال المصادر المعاصرة ، أن رياضة المصارعة لم
يمارسها أى من السلاطين سوى السلطان المظفر حاجى ، ربما كان
ذلك لطيشه وصغر سنه ومخالطته بالعوام ، كما يبدو أن معظم
السلاطين قد اكتفوا منها بأن تلعب بين أيديهم ، كما سبقت الإشارة
الى ذلك ، وربما كان ذلك ترفعا من جانب السلاطين عن هذه
الرياضة ، التى تتطلب أوضاعا خاصة لاتليق بمقام السلطان
ومهابته ، كالتشابك بالأيدى والأرجل ، والوقوع على الأرض
ومدافعة الخصم ، وفى الواقع انه لم يكن أحد من الأمراء ليرضى
أن يكون فى وضع المنافسة العنيفة مع السلطان ، حتى لو كان
ذلك لونا من ألوان الرياضة .

وتوجد اشارات الى لون آخر من ألوان الرياضة التى مارسها
المماليك وهى المبارزة ، فكانوا يقضون فى ذلك أياما مشهودة ،
خاصة عندما تكون أحوال البلاد مستقرة لا يهددها خطر خارجى

أو داخلى فيذكر المقريزى أنه فى ربيع الأول سنة ١٣٨٩/٥٧٩١ م « خرج الأمراء والماليك فى يوم السبت رابع عشره الى الريدانية خارج القاهرة بتجمل عظيم واحتفال زائد ، فان الدولة كانت لم تطرق والبلد لم يتغير حاله ، والناس فى عافية بلا محنة وأقاموا فى التبريز(١٦) الى يوم الاثنين سادس عشره ، فكانت أياما مشهودة » .

وقد عرفت هذه اللعبة عند العرب باسم لعبة اللبخة ، كما عرفت باسماء متعددة كالتحطيب - عند عامة مصر - والمطروق والجريد وقد حفزت لنا المتحف الاسلامى صورة لهذه اللعبة ، حيث انها سجلت على انية من الخزف نى البزيق المعدنى من صنع مصر تنسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وقد سبقت الاشارة اليها ، وهى عبارة عن رسم لرجلين يتبارزان بالعصى أحدهما رسم رسما جانبيا ، بينما يبدو الآخر فى وضعية ثلاثية الأرباع .

وتمدنا المصادر المملوكية كذلك ببعض التصاوير ضمن مخطوط فى ألعاب الفروسية ، من بينها رسم محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة أيضا ينسب الى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وهو يمثل مباراة بين رجلين وقد وقف خلفهما رجل ثالث يمسك بعصا أو بعمود فى احدى يديه ويظهر أحد المتبارزين وهو يمسك بعصا زميله ، كما وصلنا رسم آخر مشابه يمثل لعبة التحطيب هذه أو كما يسميها المخطوط بلعبة المطروق ، ويفهم أيضا من تصاوير بعض مخطوطات الفروسية التى تنسب الى العصر المملوكى أن هذه اللعبة لم تمارس على الأرض فحسب ، بل كانت تمارس كذلك من على ظهور الخيل .

هذا وقد ذكر الشعرائى فى طبقاته الكبرى فى ترجمة عثمان
الخطاب (المتوفى سنة نيف وثمانائة) ما نصه : « وكان شجاعا
يلعب اللبخة فيخرج له عشرة من « الشطار » ويهجمون عليه
بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد بضرب الجميع فلا تصيبه
واحدة . هكذا أخبر عن نفسه فى صباه » .

ويدل ذلك على انتشار مثل هذه الرياضات التى تتطلب
مهارات فردية فى عصر سلاطين المماليك .

أما عن رياضة الملاكمة أو اللكام فأغلب الظن أنها لم تذكر
كثيرا فى المصادر المعاصرة سوى ما أورده القلقشندى وهو عبارة
عن نسخة مكاتبة كتب بها المقر الشهابى بن فضل الله عن السلطان
الملك محمد بن قلاوون الى السلطان أبى سعيد بهادر خان (١٧) جاء
فيها « وأما الإشارة العالية الى تقاضى تجهيزه من الملاكمين
والسوقات فقد رسمنا بالانتهاء اليه ، وقد جهز من الملاكمين والطين
المختوم ما أمكن الآن » .

وقد حصلنا أيضا على احدى التصاوير وردت فى احدى
مخطوطات الفروسية توضح كيفية التدريب على هذه الرياضة .

وردت فى المخطوط باسم اللكام ، حيث ورد بها فصل وصف
فيه طريقة التدريب على تلك اللعبة وهى أن يأخذ اللاعب مخللة
ويملؤها ليفا أو تبنا وبها خيط وثيق ويعلقها فى السقف الى عند
صدره « ويحذفها تروح عنه فاذا جاءت اليه لكمها بيده تروح عنه
ويصير كلما جاءت لكمها مثل الأول ثم يتلقاها بصدره وذراعه » .

وعرف المماليك كذلك من ألوان الرياضة ما عرف بالمعالجسة
ويقصد بها رفع الأثقال ، فكانوا يستخدمون الحجارة فى ذلك ، وقد

أورد المقرئى أن السلطان المنصور بن المعز قد زاول هذه الرياضة .
كما أن الأمير علاء الدين على حفيد بيبرس الحاجب كان مشهوراً
بالعلاج ، وأنه كان يعالج بمائة وعشرة أرطال .

كذلك تلهى الناس فى ذلك العصر بمجموعة من الألعاب التى
لها طابع المقامرة ، كاللعب بالطيور مثل تطيير الحمام وكذا المناطحة
بالكباش والثيران والمناقرة بالديوك ، فكان يراهن الشخص على
الطير أو الكباش فإذا فاز كسب الرهان .

وقد انتشر اللعب بالطيور فى ذلك العصر ، حتى أصبحت
تربيتها من الهوايات المحببة لدى كثير من الناس ، تملأ عليهم
فراغهم وتشعرهم بلذة خاصة .

فقد شغف بعض سلاطين المماليك باللعب بالطيور ، خاصة
بالحمام وأثر عن السلطان المنصور على أنه كان يلعب بالحمام مع
أولاد الغلمان . كما عرف عن السلطان الكامل شعبان ولعه بلعب
الحمام أيضاً ، وأنه « قرب من يكون من أرباب هذا الشأن ، بل
أمر بأن ينادى فى القاهرة بالأى يعارض أحد لعاب الحمام أو غيرهم
من أرباب الملاعب » .

بل إن أحد السلاطين قد بعث إلى المؤننين يأمرهم « أنهم إذا
رأوا الحمام لا يرفعون أصواتهم » بالأذان حتى لا يترعج الحمام .

وقد باشر بعضهم اللعب بالحمام إلى حد الإسراف حتى بلغ
ما أنفقه السلطان المظفر حاجى على عمل حظير الحمام سبعين ألف
درهم (١٨) .

وقد عد اللعب بالحمام من مساوىء هذا السلطان ، الذى
صار له اجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف ، وكان ذات مرة يلعب

بالحمام فدخل عليه الأمير جيبغا - رأس نوبة الذوب - فلامه على ذلك فقال :

اذبحها فذبح منها طيرين ، فطار عقله وقال لخواصه : اذا دخل الجيبغا الى قبضعوه بالسيف أى قطعوه • وعن نفس الواقعة يذكر ابن اياس انه لما سمع اكلام الأمير ، غضب وقام من وقته وطلع الى السطح وذبح الحمام الذى عنده عن آخره ، كما خرب مقاصيره التى فى السطح وأرسل الى الأمير يقول له « انى قد ذبحت ما عندى من الحمام جميعها ، وأنا ان شاء الله تعالى أذبح فى هذا القرب خياركم من الأمراء ، كما ذبحت الحمام •

وكان هذا مما أسخط الأمراء عليه ، ويبدو أن هذا السخط قد امتد الى كثير من الناس وآثار سخريتهم حتى ان الشاعر الصلاح الصفدى قال فى شأن هذا السلطان متهمكا (١٩) •

والمؤسف حقا ان اللعب بالطيور قد صرف هذا السلطان عن تدبير أمور الدولة والقيام بأعباء الحكم ، حتى وصف بالمطيش الزائد ، وقد يرجع ذلك الى أنه كان شابا لم يتخط العشرين الا قليلا ، حتى انه « قد اشتغل بلعب الطيور ، عن تدبير الأمور ، والتلهى عن أمر الأحكام بالنظر الى الحمام فجعل السطح داره ، والشمس سراجة ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه وخالف من نهاه ، وخرج فى ذلك عن الحد ، ولا صار يعرف الهزل من الجد » •

كما توضح نفس المصادر المعاصرة ان هذا السلطان كان مولعا بلعب الحمام بدرجة كبيرة ، وأعماله شاهدة على ذلك حيث قيل انه « لما وصل اليه موجود يلبغا اليحياوى ، نائب الشام ، فكان من جملة ذهب عين خمسين ألف دينار ، فصرف السلطان ذلك المال

جميعه على الحمام ، فصنع لهم خلاخل ذهب فى أرجلهم والواح ذهب فى أعناقهم ، وصنع لهم مقاصير خشب ، مطعمة بالعساج والأبنوس ، وأقام لهم غلمانا يكفونهم ، ورتب لهم فى كل شهر جوامك بسبب خدمة الحمام ، فأفنى ذلك المال الذى وصل من الشام بجميعة ، على ما ذكرناه من أمر الحمام » . فلا عجب اذن بعد هذا كله أن يثور عليه بعض الأمراء وينتهى أمره بالقتل .

وقد اعتبر بعض الأمراء - أنفسهم - اللعب بالحمام سبة ونقيصة حتى ان الأمير الكبير أيبك ، عندما أراد أن يجعل فى السلطنة الأمير أحمد بن الأمير يلغا العمري ، فإنه استدعى الخليفة المتوكل على الله الى حضرته ولكن الخليفة اعتذر بأنه ابن أمير وليس من بيت الملك ولم يوافق على ذلك ، فسبه الأمير ييبك قائلا : « ما أنت فاره الا فى اللعب بالحمام والاشتغال بالجوارى المغنيات . . . »

ويبدو أن اللعب بالحمام كوسيلة من وسائل الترفيه لم يكن مقضورا على السلاطين والأمراء فحسب ، بل ان بعض الصبية كانوا يلعبون به فان كمال الدين محمد بن على القاهرى الشافعى الذى أصبح فيما بعد شيخا للإسلام كان يلعب بالحمام وهو صبي فى الريدانية كما سيأتى ذلك عند تناول ألعاب الأطفال .

وعلى أية حال لم يكن اللعب بالحمام من اختراع المماليك ، ولا هو وليد عصرهم ، فقد سبقهم الى ذلك كثير من حكام المسلمين حتى ان العرب فى الجاهلية وفى الاسلام حفظوا أنساب الحمام تماما كما فعلوا مع أنساب الخيول حتى انهم سبقوا كلا من العباسيين والفاطميين فى هذا المجال .

لذا تعد ممارسة اللعب بالحمام فى عصر سلاطين المماليك
استمرارا لما كان قائما قبلهم وان غالوا فى ذلك مغالاة كبيرة كشأنهم
مع كثير من وسائل الترفيه التى كانت شائعة فى عصرهم .

والى جانب الولع باللعب بالحمام كان البعض مولعا كذلك
بتربية أنواع أخرى من الطيور من أجل مهارشتها ومنساقرتها
كالديوك والسمان ، حيث كان الكثيرون يغرمون بالتفرج عليها ،
وارتبط هذا اللون من الترفيه بالاهتمام ايضا بتربية بعض
الحيوانات بغرض المناطحة فيما بينها ، مثل الكباش والثيران وربما
الأفيال والسباع .

وقد شغف بعض السلاطين المماليك شغفا كبيرا بالتفرج على
مناقرة الديوك وتناطح الكباش والثيران ، فكانوا يحرصون على
حضور ذلك فى جمع من الأمراء وكذلك القصاد ، فكثيرا ماكان
السلطان قنصوه الغورى بعد أن يختم ضرب الكرة ، يطلع الى
الحوش ويجلس بالمقعد الذى به ، ويحضرهون قدامه الثيران والكباش
يرسم النطاح ، ويستمر ذلك الى ما بعد العصر ، كما كان تتناطح
وتتقاتل بين يديه الأفيال الكبار والسباع .

وكانت الأسمطة الحافلة تقدم فى ذلك اليوم بحضور السلطان
والأمراء ومن معهم من القصاد ، وكان الأمراء شأنهم فى ذلك شأن
السلاطين، فقد أورد المقرئى انه عثر فى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١ م
لدى ابراهيم بن صابر مقدم دولة المماليك البحرية على مائتى كبش
للنطاح .

وفى غالب الاحيان ، كان التحمس من جانب أصحاب هذه
الطيور المتهارشة أو الكباش المتناطحة ، يؤدى الى معارك فيمسا

بينهم ، وربما كان يفضى أيضا الى العداوات ، فقد ذكر أن الناس قد أكثروا « من اقتنائها والمواظبة على اضرام شحنائها ، وربما نشأ عن ذلك فتنة تنزل الى ضرباب وشق ثياب واحداث شجاج واثارة عجاج ويجر الى احزاب وأفواج » .

وكان طبيعيا أن تعتمد بعض الحكومات أثناء العصر المملوكى الى منع هذه الوسائل ، فقد حدث سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٤م أن رسم الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بإبطال جميع أرباب الملعوب من المناطقين بالكباش والمناقرين بالمديوك وغيرهم ، رغم ماكان يتحصل منها للدولة من مال كثير ولكن لم يكن هذا المنع ليستمر طويلا فسرعان ما تعود الملاعب الى سابق عهدها وربما أشد من ذى قبل .

ويبدو أن هذه المجموعة من وسائل الترفيه المتمثلة فى مناقرة الديوك وصياح السمان ، ونطاح الكباش والثيران كانت منتشرة حتى على مستوى الطبقات الشعبية ، حتى اننا نجد أنها وردت فى أدب الأدباء الذى تمثل بعضه فى بابات خيال الظل ، ذلك الفن المسرحى الشعبى الذى كان يعرض باباته على عامة الشعب ويستوحى موضوعاته من حياة الناس وأحوالهم ، فقد وصلتنا احدى البابات لابن دانيال باسم « المتيم والضائع اليتيم » وهى تصور مناقرة الديوك ومناطحة الكباش ، حيث يعرض ابن دانيال فى هذه البابة صورا من الملاهى التى دارت بين المتيم واليتيم ، وعادة ما تبدأ بمناقرة الديوك حيث يعد كل منهما ديكه للنقار ، وكان يطلق على أحد الديكين « أبو العرف صباح » وعلى الآخر «صياح» فيبدأ المتيم فى الاشادة بديكه (٢٠) .

ويرد عليه اليتيم هو الآخر مشيدا بديكه أيضا ، ويبدو ان هواة هذا اللون من الترفيه ، كانوا يسرقون بالعناية بتلك الديوك ،

فكسونها بالحرير ويزينونها بألوان من الحلوى ، ونرى ذلك فى وصف المتيم لديكه (٢١) .

كما توضح هذه البابة طبيعة هذه المناقرة ، وكيفية الظفر فيها فيقول ابن دانيال على لسان « زيهون » وهو أحد شخوص البابة :
« وأحسن ما تفرج عليه السوقة والملوك ، مناقرة الديوك ، لأنها مناصلة ومناضلة ومقاومة ومنازلة ، وهذان الديكان قد وقفا للاصطدام ، وأصرا على الاقدام ، فمن هرب من المنقار ، والتجأ الى الفرار ، وجب عليه ما تقرر وليس بعار اذا عساد المغلوب وتكور » .

وفى هذا القول ما يوضح طبيعة المناقرة بالديوك ، وأنهما كانت تسلية الملوك والعامّة ، كما تبين كيفية المواجهة بين الديوك وتأهبها للصدام ، وتشير كذلك الى ان المهزوم هو الذى يفر من غريمه هرباً من نقره فيخسر المراهنون عليه الرهان .

وربما كانت مناطق الكباش والثيران تسير على هذا النسق كما فى المناقرة ، فيقول المتيم بعد ان هزم ديكه فى تلك المواجهة :
ولئن هرب ديكى من صياح ، فدونك كبش للنطاح ، وكل لاعب يعرف كبشى كأنه الأسد الوحشى ، يكاد ينطح البروج ، ويهدم بقرنية سد يأجوج ومأجوج « ثم تبدأ المناطقة فيشيد كل منهما بقوة كبشه ، وجمال منظره ، ويشير الى موطنه ومن الطريف ان تأتي أم اليتيم فتطلق البخور على كبش ابنها من الحسد قبل اللقاء ، وربما كان ذلك اشارة الى بعض ما يصحب مثل هذه المناطحات من مراسم وعادات .

وهكذا يتضح ان هذا اللون من وسائل الترفيه كان متعة لكثير من الناس يملأ عليهم فراغهم ويرضى ميولهم فى المقاومة والتحدى

بحيث كان يلقي اقبالا كبيرا من الجميع ، وان كان بعض الفقهاء قد أنكروا « نطاح الكباش ، ونقار الديوك وصياح السمان وأمثالها ومما عرف الناس انه منكر اثاره التحرش بين الحيوانات ، وهى ذوات أكباد رطبة وأخلاق صعبة » .

اقتناء الحيوانات وترويضها :

وقد تلهى سلاطين المماليك أيضا باقتناء بعض الحيوانات المائية وكذا بعض الحيوانات غريبة الخلقة ، التى كانت غالبا ما تهدى اليهم . ويبدو أن الناس كانوا يترقبون أخبار ذلك ، فتذكر بعض المصادر المعاصرة انه « اشيع بين الناس أن شخصا من البرابرة قبض على فرس البحر دن بعض جهات الصعيد وأحضرها بين يدى السلطان « الغورى » فلما أحضرت بين يديه فرح بها ، وقيل انه أطلقها فى البحرة التى فى الميدان » .

كما أهدت زوجة ملك المغرب وهى فى طريقها الى الحجاز سنة ٧٣٦هـ / ١٣٢٦ م الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون هدايا حافلة « ومن جملتها أعجوبة ، وهو ثور أصفر ، فاقع اللون كامل الخلقة ، وفى وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع منه رؤوس أضلاعه وذلك الكتف بمرفق وذراع ، وحافر مفروق مثل حافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة كما يفعل بالسباع ، وعليه جل من حرير أصفر » .

ولعل ذلك يظهر أن سلاطين المماليك وكذا الناس فى عصرهم كانوا يبحثون عن كل المبهجات ووسائلها - على كثرتها - فلم يتركوا شيئا يدخل السرور على أنفسهم الا فعلوه ، حتى قال أحد المؤرخين « لقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لاتدرك

مبثل انهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجس من الماشى والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب بدورها ، وبعجز أهل المغرب عن فهمها » .

ويفهم من هذا النص ان المصريين كان لهم القدرة الفائقة فى ترويض الحيوانات والطيور واستغلال ذلك فى الترفيه عن الناس فيما يشبه الآن عروض السيرك .

وقد بلغ أمر بعض السلاطين الى التفرج حتى على الامور الجادة مثلما فعل السلطان الناصر محمد بن قايتباى فى شعبان سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م حيث أمر بأن تقطع الحيات التى كانت تلزم للبيمارستان ، بحضرته حتى يتفرج عليها ، فأحضرت بين يديه بقاعة البحرة وقطعت بحضرته وهو ينظر اليها وبعدها خلع على شمس الدين القوصوى رئيس الطب وولده وكذا الحاوى الذى أحضر الحيات وغيرهم .

والى جانب ذلك تلهى الناس فى عصر المماليك بمجموعة أخرى من الألعاب التى تتمثل فى ألعاب الدبابة الذين يلعبون بالدببة ، والقراة وهم الذين يلعبون بالقرد وكذا الحواة والبهلوانات « مما لايزال بعضه باقيا فى مجتمعنا الحديث » وكان لهؤلاء مناطق معينة يجتمعون فيها ليعرضوا ألعابهم حيث كان « ينحشر هنالك من الخلائق للفرجة . . . ما لا ينحصر كثرة » .

أما عن الحواة فكانت ألعابهم منتشرة فى العصر المملوكى ويقبل على مشاهدتها العامة والخاصة ، وهم الذين يلعبون بالثعابين وغيرها من الزواحف طبقا لمشيئتهم وسيطرتهم عليها ، وكان لهم فى ذلك فن ومقدرة كبيرة ، حتى ان أحد السلاطين قد خلع على حاو

أحضر اليه الحيات ليتفرج عليها وتقطع أمامه ، كما سبقت الإشارة الى ذلك ، وكان الحواة يجدون في جمع الحيات والأفاعى ليعرضوا بها ألعابهم ، فيشير المقربزي الى حادثة وقعت من أحد الحواة مضمونها ان أحدهم من أهل طرة يقال له ابوكريت أمسى عليه الليل يوما فاضطر الى المبيت بجامع القرافة بمصر ، وكان معه سلة بها حصيلة أسبوع من الأفاعى الغريبة والحيات الخطرة التي لم يقدر على جمعها قط حاو غيره ، وانسابت الأفاعى من السلة وتسربت منها ، مما أزعج من كان موجودا بالجامع لقضاء الليل فهرعوا الى تسليق المنبر والأعمدة وهم يرتعدون من شدة الخوف ، واستمعروا على ذلك الى مطلع الفجر حيث استطاع الحاوى ان يستعيد أغلب الحيات ويعيدها الى سلته من جديد .

ولعل في تلك الرواية ما يدل على انتشار هذه الفئة من الناس وأنهم كانوا يهيمون على وجوههم بغرض جمع الحيات ثم بيعها بعد ذلك ، أو استخدامها في ألعاب للترفيه عن المارة بمقابل بسيط يحصلون عليه خلال العرض أو بعده .

وخلاصة القول ان الحواة في ذلك العصر كانوا يمارسون ألعابهم شأنهم في ذلك شأن غيرهم في عصور سابقة ، حتى عصرنا الحاضر ، فان هذه الطائفة من الناس مازالت موجودة ، تمارس ألعابها أمام جمع من المارة في الميادين العامة والأماكن الشعبية وان منهم من انصرف الى مزاولة أعمال اخرى فاصبحنا نادرا ما نراهم ، وان كانت هذه الندرة لاتدل على انقراضهم تماما ، ومنهم من انصرف الى صيد الأفاعى والثعابين وغيرها بقصد بيعها للهيئات العلمية بغرض الأبحاث في مقابل عائد مادي يتعيشون عليه .

ولا عجب فقد كان يحدث مثل ذلك فى عصر سلاطين المماليك حيث كان الحواة يقدمون الحيات الى البيمارسستانات للاغراض الطبية كما سبقت الاشارة الى ذلك .

(البهلوانات) :

وعن البهلوانات والعايبهم التى كانوا يقدمونها فى العصر المملوكى فان المصادر المعاصرة تحدثنا بانه فى سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م قام شخص من المماليك يسمى يشبك وهو من مسائلة الفرنج ينصب حبلا من اعلى مدرسة السلطان حسن تحت القلعة ، ومدته حتى ربطه باعلى المدرسة الاشرافية من قلعة الجبل ، وتقدر هذه المسافة برمية سهم أو يزيد ، وفى ارتفاع نيف على مائة ذراع ، ثم برز من رأس المنذنة ومشى على هذا الحبل حتى وصل الى المدرسة الاشرافية ، وقد أبدى نى مثليه أنواعا من اللعب ، ورمى بالمكحلة كما رمى قوس الرجل ، كل ذلك وهو فوق الحبل ، وقد جلس السلطان الاشراف برسباى والأمراء لرؤيته ، وحشر الناس من اطراف المدينة ، وأنعم السلطان على البهلوان وأركبه فرسا كامل العدة ، كما خلع عليه بطرازين ، كما أحسن اليه الأمراء أيضا .

وقد آثار ما قام به هذا البهلوان من سير فوق الحبل همم شباب أهل البلد من المصريين ، حتى ان أحدهم عمد الى نصب حبل فى داره وأخذ يدرّب نفسه على السير عليه ، فلما علم من نفسه القدرة على ذلك ، قام بمد حبل من رأس نخلة الى أخرى وأعاد التجربة ثم أظهر نفسه ، ونصب حبلا بين منذنة المدرسة الظاهرية برقوق ومدته الى منذنة المنصورية بين القصرين كما أرخى من وسط هذا الحبل الممتد حبلا آخر الى أسفل وواعد الناس حتى ينظروا مايفعله ، فجاءوا اليه من كل جهة وبدأ المشى قائما على قدميه من

رأس مئذنة المدرسة الظاهرية حتى وصل الى رأس مئذنة المدرسة المنصورية وهو منتصب القامة ، وبلغت مسافة ذلك نحو مائة ذراع وارتفاع أكثر من ذلك .

ومن الحيل التي قام بها أثناء ذلك انه نام على الحبل وتمدد ثم قام ومشى حتى وقف على الحبل الذي أرخاه في وسط الحبل الذي هو قائم عليه ، ثم نزل على الحبل المدلى حتى أخره ، ثم صعد عليه ، وهو يبدى فنونا تذهل العين رؤيتها ، « ولولا ضرورة الحس لما صدقت » كما أنه لم يكتف بذلك فقد قام ب نصب حبل من مئذنة السلطان حسن الى الأشرقية بالقلعة ، كما فعل الرجل الأول ، وقد جلس السلطان الأشرف برسباي لمشاهدته مثلما فعل مع سابقه ، وأقبل الناس من كل صوب وحذب ، وتصادف أن هبت رياح عاصفة كادت تقلع الأشجار وتلقى الدور من شدتها ، ولكن هذا الشهاب البهلوان استطاع رغم ذلك ان يقدم عروضه بنجاح منقطع النظير كما أتى بحركات بهلوانية لم يسبق لها مثيل ، فكان على حد تعبير أحد المؤرخين « شيئاً عجيباً ، لاسيما أنه لم يتقدم له ادمان في ذلك ، ولا دربه فيه معلم ، وانما تآقت اليه نفسه فامتحنها ، فاذا هي متآقية له فيما أراد ، فبرز وأبدى ما يعجز عنه سواه » .

وهناك اشارة الى احدى التصاوير من هذا العصر ، من مقامات الحريري المحفوظة بالمكتبة الأهلية في فينا ، منسوبة الى مصر حوالي سنة ١٧٣٤هـ / ١٣٣٤م ، عبارة عن صورة لأمير في مجلس شراب وطرب وترفيه ، حيث يوجد أسفل منه رسم لشخص يؤدى بعض الألعاب البهلوانية مما يعطى صورة واضحة عن بعض الألعاب التي كانت سائدة في ذلك العصر .

وخالصة القول ان الألعاب البهلوانية خاصة السير على الحبل أو ماشابه ذلك عرفت في مصر في عصر سلاطين المماليك .

هواذممع التنزهات والترىض :

والى جانب تلك الألعاب السابقة ، فقد اغرم سلاطين الممالىك والابراء بل عادة الناس بالخروج الى النزهة والترىض فى أماكن كثيرة من ربوع مصر - سيرد ذكرها فيما بعد - وكان نصيب نهر النيل فى ذلك كبير ، حتى قال الرحالة ابن بطوطة فى وصفه : «ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عنوبه مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقري بصفقيه ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره» (٢٢) .

وقال رحالة آخر يدعى بيلونى وهو من جزيرة كريت زار مصر فى عصر الممالىك « ان ماء النيل من خصائصه ان يجعل الناس دائما مرحين بعيدىن عن الهموم والأحزان » .

واعتاد سلاطين الممالىك الركوب فى بحر النيل ، كما اهتم بعضهم بعمارة الشوانى الحربية ولعبها فى البحر ، فقد نزل الملك الظاهر بيبرس الى القصر الذى كان فى قلعة الروضة وأرسل خلف الامام أحمد الى هناك ، « وأضافه اضافة حافلة ، وأمر باحضار الشوانى والسفن الحربية لتقوم أمامه على صفحة النيل بمناورات واستعراضات ذهابا وايابا ، والطبول والبوقات والنفوط عمالة » .

وكان اذا خرج السلطان للنزهة « فان والى القاهرة ينتهز المناسبة لاقامة المهرجانات ، فيطلق النفط أو يشعل قنابل بالزيت فى قشور البيض ثم تدلق على وجه الماء لتكون أسرجة ووقده على وجه النيل » كما طلب الأمير التاج والى القاهرة فى ذى القعدة سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م عندما عدى السلطان المؤيد شيخ النيل

ونزل على أوسيم من باعة الفواكه وأصحاب البساتين « أن يحملوا النرجس ونحوه من المشعوم ، فجبى ذلك منهم حتى عز وجود البنفسج بعد ذلك ، وبيع بخمسة وعشرين درهما الباقية بعد درهم » .

وواقع الأمر ان المصادر المعاصرة قد أسهبت في ذكر هذه الألوان الترفيحية ، سواء بالنسبة لسلطين الممايك والأمراء أو لعامة الشعب بجميع طوائفه ، الذين كانوا يتخذون من ذلك مجالا للفرجة والترفيه .

فيذكر المقرئى انه فى ليلة الخميس الرابع والعشرين من المحرم سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨ م ، كان الوقيد ببر منبابة بين يدى السلطان حيث انه نزل بقصر ابن البارزى كاتب السر الذى أئتساه على النيل بحرى منبابة ، وألزم الامراء بحمل الزيت والنفط « فجمع من ذلك شىء كثير » وأحضر البائعون الكثير من قشر البيض ، وقشر النارج ، ومن المسارج الفخار ، وعمل فيها قناديل القطن المغموسة بالزيت وأشعلت بالنار ، وأرسلت فى النيل بعد غروب الشمس بنحو ساعة ، وكذلك أطلقت المنفوط « وقد امتلأ البران بطوائف الناس وحولهم من السخف ما لم يعهد مثله للملك قط » وتكرر ذلك من السلطان أكثر من مرة اذ يبدو انه كان من العادة أن يعمل الوقيد ليلة الخميس عند عودته من أوسيم حيث ينزل على النيل بناحية انبابة ، وكانت تقدم له التقادم ، من الخيول والجمال على العادة .

وكان للناس أيضا ولع عظيم بمشاهدة ذلك والتفرج عليه ، حتى انهم كانوا يتحينون المناسبات المختلفة للمشاركة فيها طلبا للترفيه وادخالا للسرور على أنفسهم . ويروى المقرئى واقعة

مضمونها ان السلطان المؤيد شيخ نزل الى جامعه بجوار باب زويلة يوم الخميس سابع عشرة من ربيع الاول سنة ٨٢٢هـ / ١٤٢٩م واستدعى شيخ الاسلام قاضى القضاة جلال الدين البلقينى ، حيث بالغ السلطان فى اكرامه وافاض عاياه بتشريف ، وشافهه بولاية قضاء القضاة ، فارتجت القاهرة ، وخرج الناس رجالا ونساء على اختلاف طبقاتهم لرؤيته ، فرحوا به ، حتى غصت الشوارع ، وفى عودته الى المدرسة الصالحية ، مر من تحت الربيع وعبر من بساب زويلة وقام السلطان فى الشباك ليراه ، فأبصر من كثرة الخلق وشدة فرحهم وعظيم ما بذلوه وسمحوا به من المزعفران للخلق ، والشموع للوقود ، مع مجامر العود والعنبر ، ورش ماء الورد وهم يدعون للسلطان ، ما أذهله ، وقوى رغبته فيه ، حتى ان بغلته لاتكاد تجد موضعاً لحوافرها ، حتى نزل الى المدرسة الصالحية ومعه أهل الدولة عن آخرهم ، ومنها توجه الى داره « وكان يوماً مشهوداً واجتماعاً لم يعهد لقاض مثله » .

وكان من عادة بعض السلاطين أن يصطحبوا حريمهم معهم فى المنزهات النيلية والخلوية ، حيث كان حريم السلطان يخرجن على الخيول فى محفات مغطاة بالحريير ويحيط بهن سائر الأمراء والماليك والخدام وكثيراً ماخرجت نساء القاهرة فى ذلك العصر الى مواضع اللهو والفرجة ، حيث ينكشف ستر الحياء ويختلط النساء بالرجال « الأمر الذى أثار الفقهاء ورجال الدين فنادوا بمنع خروج النساء على ذلك الوجه السافر » .

كما كان بعض السلاطين يسمحون لحريمهم بالنزول الى بولاق ، حتى يتمتعن برؤية النيل بهدف « تغيير الجو » .

وكما سبق أن اشرنا فان سلاطين المماليك كانوا يحرصون على التمتع بهذه المنزهات رغم ماكان يعاينيه بعضهم من الام المرض

حتى ان السلطان المؤيد شيخ الذي كان لا يطيق حركة الفرس لما به
الآلم ، فقد كان يركب المحفة الى البحر ويحمل منها على الأعناق ،
وفي اثناء اقامته في بيت البارزى كاتب السر ، كان يحمل على
الأعناق أيضا حتى يوضع بالحراقة ، ويسير بها في النيل قاصدا
رباط الآثار النبوية ثم يحمل من الحراقة الى الرباط ، « وتارة يقيم
بالحراقة وهي بوسط النيل نهاره » .

وكان السلطان يحضر الحراريق من ساحل مصر الى ساحل
بولاق ، وهي مزينة بأفخر زينة وأحسنها ، كما صار يركب في
الحراقة الذهبية ، وبقية الحراريق سائرة معه مقلعة ومتحدرة
« تلعب بين يديه أحيانا والناس على اختلاف طبقاتهم مجتمعون
للفرجة ، فلا ينكر على أحد منهم كما كان الممالك يقومون بلعب
الرمح على شاطئ النيل وهو يشاهدهم محمولا على الأعناق كما
سبقت الإشارة » فمرت على الناس ببولاق في تلك الأيام والليالي
أوقات لم نسمع بمثلها ولم يكن فيها — بحمد الله — شيء ينكر ،
كالخمور ونحوها ، لأعراض السلطان عنها » .

ولم يكن السلطان المؤيد شيخ فقط هو الذي ينزل الى بيت
المقر الناصري بن البارزى — المطل على النيل — بل يبدو ان ذلك
استمر حتى عهد السلطان الأشرف برسباي الذي نزل الى هناك في
ذي الحجة سنة ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م ، وقدم بين يديه في النيل أيضا
غرابان (٢٣) فلعبا كما هي العادة عند محاربة الفرنج .

وكان من الطبيعي الا يقتصر الأمر على التنزه على صفحة
النيل فقط بل ان كثيرا من الناس اعتادوا ركوب المراكب في
الخلجان والبرك ، كالخليج الناصري (٢٤) وبركة الرطلى ، حتى انه
في شهر ربيع الآخر سنة ٧٨١هـ / ١٤٧٩م منعت مراكب المتفرجين

من دخول الخليج الناصري وبركة الرطلى من أراضي الطبالة ، وذلك عن طريق وضع سلسلة على قم قنطرة الخور (٢٥) وعلى قنطرة الفخر بموردة الجبس لهذا الغرض . ويبدو أن هذا المنع أيضا لم يقتصر على الخلاجان والبرك ، بل انه امتد كذلك الى المتفرجين في البحر ويقصد به نهر النيل ، فقد حدث في جمادى الآخرة سنة ١٣٨٧/٥٧٨٩ م ، عندما توقفت زيادة النيل واستمر ذلك سبعة أيام « ان بادر الأمير سيف الدين سودون نائب السلطنة بالديار المصرية الى المتفرجين ، وكبس عليهم في الليل وقبض على جماعة وانتهرهم »

وفي عهد السلطان الأشرف قايتباي ، كان الأمراء كذلك يلهون في البرك ، ففي رمضان سنة ٨٩٤ هـ عمل الأتابكي أزيك وقدة حافلة وحراقة نطف في بركة الأزيكية ، وعزم على الأمراء هناك ، وقضوا ليلة حافلة ، وتكرر منه ذلك وعزم أيضا على ابن السلطان فنزل اليه ، وبات عنده في القصر المطل على البركة وتخلل ذلك اسمطة حافلة وتقديم التقسام الجزيلة ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها ابن السلطان منذ نشأ ، فقد كان مقيما بالقلعة « لم ير البرقط » .

وكان الناصر محمد بن قايتباي ينزل الى بولاق ويشق البحر في مركب ومعه بعض العوام وأولاد عمه جانم لحضور الاحتفال بمولد الأولياء مثل سيدي اسماعيل الامبابي ، ويحرق ببولاق حراقة نطف حافلة ، وحدث أن بات تلك الليلة في المراكب « وكانت من الليالى المشهودة في القصف والبرجة ، وفعل ذلك عدة مرات » وكثيرا ما كان يتوجه الى قبة الأمير يشبك التي بالمطرية وبات بها ، ثم كان يشق القاهرة في موكب حافل « وحجبتة خاله قانصوه وبعض الأمراء ، وجعل قدامه طبلين وزمرين ، وعبيدا سودا ترمى بالنقوط قدامه على هيئة الكشاف » .

كذلك عنى السلطان الغورى بعمارة المراكب ، خاصة الأخرية
التي كانت تعمر فى رشيد ، وعند وصولها عند رأس الجزيرة
الوسطى يتجمع الناس للتفرج عليها وقد زينت بالصنماجق
والشطفات ودقت فيها الطبول وزعقت الزمور « واجتمع هناك
الناس أفواجا أفواجا . وقد حضر السلطان بنفسه عرضا لهذه
الأخرية حيث أحضرت بين يديه فلعبوا قدامه فى البحر عدة
ذهايا وايايا والطبول والنفوط عمالة وأرموا قدامه فى البحر عدة
مدافع ، وكان له يوم مشهود ، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس
وأقام السلطان هناك الى ما بعد العصر » ، حتى يقال انه لم يقع
للسلطان منذ أن تسلطن يوم مثل ذلك اليوم فى القصف والفرجة .

وقد أتبع يوما بين الناس أن السلطان قد عمر مركبا بيولاقي
على صفة المركب القديم المعروف بالذهبية ، وبعد الانتهاء من
اتمامها ، أمر بتزيينها بالصنماجق وأن توضع فيها الطبول والزمور
والنفوط ، وأن تحضر على تلك المهيئة من بولاقي الى تحت المقياس
حتى يشاهدها السلطان وهو هناك .

وقد رسم السلطان للامراء ، باحضار طبلخاناتهم فى مراكب
عند المقياس ، ففعلوا ذلك ، حتى كان صوت الطبول والزمور مع
الكوسات كصوت الرعد القاصف ، فكانت تلك الليلة من الليلية
التي لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، وكان الناس يقبلون على استئجار
المراكب ، حتى وصل ترى كل مركب نى تلك الليلة خمسة دنانير
وأكثر من ذلك .

وكان والى القاهرة يدير طوال الليل فى مركب خاص به
وينادى للناس بالأمان والاطمئنان « الا يشوش على أحد ولا مملوك
يعبث على امرأة .. » . ويصف ابن اياس تلك الليلة بقولسه :

« وكانت ليلة كثيرة الاضطراب ، ماجت فيها الناس وخرجت البنات من خدرها حتى تنظر وقدة السلطان وحرارة النفط » .

ويبدو أن المؤرخ ابن اياس كان شاهد عيان لأحداث تلك الليلة وانفعل بها حتى انه نظم في وصفها قصيدة تعتبر - في رأى الباحث - من أجمل ما قيل في وصف مثل تلك الليالي وأشمله (٢٦) .

ويستمر ابن اياس في تصويره لمباهج تلك الليلة وماحوت من أسباب المتعة والترفيه ، فيمتدح السلطان الغورى بهذه المناسبة مشييراً الى أن الاحتفال بهذه الوقدة قد دام طوال الليل حتى الصباح .

وقيل ان حرقه السلطان كان مصروفها نحو من مائة وسبعين ديناراً وقد حضرها القضاة الأربعة واعيان الناس وقراء البلد قاطبة والوعاظ .

خلاصة القول أن نهر النيل والخلجان الخارجة منه ، وكذا عدد من البرك التي اشتهر وجودها في العصر المملوكى كانت ميادين مناسبة لممارسة كثير من ألوان الترفيه والتسلية في عصر سلاطين المماليك ، سواء للخاصة أو العامة فقد تساوى في ذلك الجميع .

المتنزهات ومواضع الفرجة :

حقاً لقد تعددت وسائل الترفيه والترويح عن النفس في عصر سلاطين المماليك ، وقد أفاضت المصادر المعاصرة في ذكر أماكن المتنزهات من حدائق وبرك وغيرها ، وماكان يحدث فيها ، وكيف كان الناس يستمتعون بأوقات فراغهم في هذه الأماكن . .

ويمكن ادراك أهمية الدور الذي قامت به هذه الأماكن ، من حيث الترفيه على الناس فى ذلك العصر اذا عرفنا أنها كانت أقل وسائل الترفيه تكالفة أو بمعنى آخر كانت من أكثر وسائل الترفيه شيوعا ويسرا بالنسبة لجميع الطبقات ذلك بعكس ألوان أخرى من وسائل الترفيه التى تتطلب مستوى خاصا ، ومقدرة مالية معينة ، كما تتطلب بعض المستلزمات والأدوات ، كما هو فى الصيد والفروسية ولعبة البولو وغيرها .

والحديث عن المتنزهات فى العصر المملوكى يستلزم القاء الضوء على طبيعة هذه المتنزهات ومواضعها ، خاصة أن الممالك استحدثوا كثيرا منها بدافع الرغبة القوية لديهم فى الاستمتاع بكل مباحج الحياة ، وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء كثيرة لمتنزهات متعددة فى عصر سلاطين الممالك .

ومن أشهر متنزهات الممالك القديمة . بر الجيزة ، قريبا من الأهرام حيث كان السلاطين ينصبون عندها الخيام زمن الربيع على سبيل التنزه .

وأىضا منظره الخمس وجوه ، وقد ذكرها المقرئى ضمن المناظر التى كان يتنزه فيها الفاطميون(٢٧) ، ويذكر أيضا أنه هو نفسه قد أدركها « وهى من أعظم متفرجات القاهرة » وقد جدد السلطان المؤيد شيخ عمارة منظره فوق الخمس وجوه القديمة ، ومنظره التاج التى كانت أيضا من جملة المناظر التى ينزلها الخلفاء الفاطميون للترفيه ، لكنها خربت ولم يبق منها سوى أثر كوم توجد تحته الحجارة ، وماحول هذا الكوم صار من مزارع أراضى منية الشيرج .

كما عرف من تلك المتنزهات ما عرف بأرض الطبالة ، وكانت تقع على جانب الخليج الشرقي بجوار خط المقس (٢٨) ، وكانت من أحسن متنزهات القاهرة وسميت كذلك نسبة الى مفنية الخليفة الفاطمي المستنصر بالله المعروفة بنسب الطبسالة وكانت أرض الطبالة « أحسن ووضع في ظواهرها زهرجة ، لاسيما أيام القرطم والكتان (٢٩) » .

وكان بظواهرها برتنة الفبل التي تمثل دائرة كالبدر « والمناظر فوقها كالنجوم وعادة ماكان السلطان يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب (٣٠) » .

ومن المتنزهات القديمة أيضا ، جزيرة الروضة التي كانت من أهم المتنزهات أيام الفاطميين ، وأُنشئت فيها المناظر الكثيرة ، ويذكر ابن اياس نقلا عن ابن المتوج أن اسمها قديما كان « جزيرة مصر » فسميت الروضة زمن الأفضل بن أمير الجيوش ، وكانت قبل ظهور الاسلام متنزها لمالك القبط ، كما كان بها مكان يعرف بالهودج ، الذي عمره الامر بأحكام الله الفاطمي ، ليكون متنزها له ولزوجته البدوية ، وكان كثير التوجه اليه ، وأيضا كان بها بستان يعرف بالمختار أنشأه الإخشيد محمد بن طنج وعمر به قصرًا مرتفعا ، وقد خربت فيما بعد الى أن عمرها وأصلح ما أفسد منها الظاهر ببيرس البندقداري ، كما فرق أبراجها على الأمراء .

وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة الذي زار مصر في عصر المماليك في وصف الروضة : « وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر نوو طرب وسرور » .

كما أشار الرحالة أنه حضر بها مرة فرجة بسبب براء الملك
الناصر من كسر أصاب يده ، فزينت الأسواق وعلقت الحلل والحلى
وثياب الحرير وبقي ذلك أياما (٣١) .

كما تناولها الشعراء فى كثير من شعرهم ، كما سبق ذكره ،
ووصفها البعض نثرا فقال : (٣٢) « ان هذه الجزيرة التى بين مصر
والجزيرة أعدل موضع فى الدنيا مزاجا وأصح هواء وأطيب مسكنا
قولا يعرفه العاقل الفاضل ولايهتدى اليه الغمر الجاهل . . . »

وكان أيضا من متنزهات مصر موضع يعرف بالسبع همايل ،
وكان بالقرب من شبرا على بحر النيل ، وكان يقصد للفرجة ، وكذا
المنية ويقصد بها منية السيرج وقد قيل فيها شعر سبقت الإشارة
اليه .

هذا الى جانب مقترجات أخرى قديمة مثل كوم الريش وقناطر
الأوز وبرك البشنيين ، وقد قيل فى هذه المواضع أيضا كثير من
الشعر وقد جمع بعض الموالاة أسماء المقترجات (٣٣) .

وكان هناك مكان آخر يعتبر من مقترجات مصر القديمة ،
يعرف بالتكة وخليج الذكر ، وهو مكان الأزناكية الآن (٣٤) .

وكانت هذه الأرض قديما عامرة بالمناظر والبساتين ، وكانت
تعرف أيضا باسم مناظر اللوق ، وهى قريبة من بحر النيل ولما
بنيت قنطرة على خليج الذكر كان فوقها تكة ، يجلس عليها
المتفرجون ، واستمرت كذلك حتى سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م وتلاشى
أمرها ، ثم حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون خليجه المعروف
بالخليج الناصرى فى سنة ٥٧٢٥/١٣٢٥ م .

واشتهر أيضا من بين هذه المتنزهات ميدان اللهو ، جهة
بولاق حيث كان الناس يقصدونها فى ذلك العصر ويقيمون فيها

الأخصاص المصنوعة من الخوص ، كما زرعوا حولها الرياحين وزينوها بالرخام والدهان .

وهناك كان يزدهم المتنزهون رجالا ونساء ، حيث كان من الطبيعى أن يتبعهم عدد كبير من الباعة ، فيختلط الناس من غير كلفة أو حجاب وكان من معالمها المشهورة جامع الخطيرى السابق الإشارة إليه .

والجدير بالذكر أن من تلك المقترجات القديمة مابقى على حاله حتى فى العصر المملوكى ، ومنها أيضا ما أضاف اليه الممالك شيئا من التحسين والتغيير كما انهم كثيرا ما استحدثوا متنزهات ومقترجات جديدة ، ربما لتناسب أسلوبهم فى الحياة من حيث رغبتهم الشديدة فى التمتع بمباهج الحياة - كما سبقنا الإشارة - وربما كان ذلك نتيجة لميولهم العمرانية والمسحة الدينية التى كان يستشعرها سلاطين الممالك ، حيث كانوا غالبا ماتبدا عمارتهم لمكان التنزه ببناء احدى الخانقاوات أو احد الجوامع ، ثم تكثر العمارة حولها من جانب الأمراء وذوى الجاه ويواكب ذلك بناء القصور والمنتزهات من البساتين والحدائق وغيرها .

المنتزهات الحديثة :

ولعل من تلك المقترجات التى أحدثها الممالك على سبيل المثال ما عرف برباط الآثار النبوية المطلة على النيل بجوار البستان المسمى بالعشوق ، ويقال ان الذى عمره هو صاحب بهاء الدين ابن حنا وكان وزيرا بالديار المصرية ت ٧٠٧هـ / ١٣٠٨م وقيل انه « اشترى الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال بلغت ستين ألف درهم » وأودعها فى هذا المكان ، وصار الناس يقصدونها بسبب الزيارة كل يوم أربعاء (٣٥) .

وقال المقرئى : « وأدركنا لهذا الرباط بهجة وللناس فيه
اجتماعات ولسكانه عدة منافع ممن يتردد اليه أيام كان ماء النيل
تحتة دائما » . .

• وكان من عادة بعض السلاطين الركوب اليها للزيارة .

ومن المتنزهات الجميلة وقتذاك ما عرف باسم الجزيرة الوسطى
أو جزيرة أروى أو بولاق ، حيث تقع تجاه بولاق (٣٦) ، وعرفت
أيضا بالوسطانية وقد انحسر عنها ماء النيل سنة ١٣٠٠هـ / ١٧٠٠م
وكان بها قصور ودور للسكنى وطواحين وسواق ، ومناظر وبساتين ،
وقد أنشأت ابنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بها جامعا ، وكانت
من أجمل متنزهات القاهرة .

وقد اهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإنشاء البساتين
والمتنزهات وأماكن اللهو ، حيث عمر القصور والخانقاه بناحية
سرياقوس .

كما جعل هناك ميدانا كبيرا ، وحفر اليها خليجا من النيل ،
لتمر فيه المراكب الى تلك الجهة ، عرف بالخليج الناصرى - سبقت
الإشارة اليه - وأنشئت هناك البساتين الجميلة وغرست فيها الأشجار ،
وسكن الناس على حافتى الخليج فيما بين المقس وساحل النيل
ببولاق ، وصار هذا الخليج « مواطن أفراح ، ومنازل لهو ، ومغنى
صبابات ، وملعب أتراب ومحمل أنس وقصف فى المراكب أو فيما
عليه من الدور » وكان الناس يركبون فيه المراكب على سبيل اللهو
والنزهة ، الى ان منعت المراكب منه ، كما سبقت الإشارة الى ذلك .

واهتم السلطان الناصر أيضا بإنشاء البساتين والحدائق فقد
أنشأ بحوش القلعة الكبير حديقة ، نقل اليها الأشجار والرياحين

من سائر البلاد « حتى من بلاد الهند مثل جوز الهند والسنبل والقرنفل والكادي وغير ذلك من البساتين الشامية » .

كما أجرى اليها الماء من النيل الى القلعة بواسطة سواق نقالة لارتفاع مكان الحديقة ، واهتم ايضا بإنشاء القصور بالقلعة التي استورد لها الرخام المشجر بالصدف والمرصع بفصوص الذهب ويقال انه أنشأ فيها محلات للحيوانات الغريبة وساحات للحيوانات الداجنة وكان من أبهج تلك القصور ، القصر الأبلق .

كما ان السلطان المؤيد شيخ أثناء سرحته الى البحيرة فى ذى القعدة سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م ، التي انتهى فيها الى مريوط التي اقام بها أربعة أيام ورسم بعمارة بستان السلطان بها حيث كان قد تهدم . كذلك أنشأ السلطان الأشرف قنصوه الغورى بستانا تحت القلعة والمتنزه العجيب بالملقة وحفر مجرى نيلاء من مصر الى القلعة ، كما اهتم بالقصور والمتنزهات ، قد شغف هذا السلطان بالحدائق والأزهار ، واتخاذ الأحواض والنافورات والسواقي النقالة ، كما شرع فى بناء بحرة فى ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان وكان طول هذه البحرة نحو من أربعين ذراعا أو أكثر ، كما بنى هناك عدة مقاعد ومناظر تطل على ذلك البستان .

وقد اشتمل هذا البستان على أنواع من الأزهار الغريبة منها ما نقل من الشام ، فقد كان السلطان الغورى حريصا على الاستمتاع بذلك الى أقصى درجة ، حيث أعدت له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والابنوس وكان يفرش فوقها مقعدة مخمل بنطع ، ويجلس عليه تظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه » .

بل كان يعاق فى الاشجار أقفاص الطيور ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وغير ذلك ، وكان أيضا « يطلق

بين الأشجار دجاجا حبشيا وبطا صينيا وحجلا . . حتى صار هذا الميدان جنة على الارض » .

ولا غرو في ذلك فقد وصف ابن اياس هذا السلطان بانه كان من دأبه « الركوب في كل يوم والاشتغال برؤية التنزه والرياضات دائما » .

وكان من عادة السلاطين المماليك الخروج للنزهة في مواضع متعددة خارج القاهرة كالاسكندرية والعباسة والفيوم وطرة وكذا تروجة وغيرها .

وعلى سبيل المثال فان السلطان الأشرف قايتباى سافر الى الفيوم أكثر من مرة على سبيل التنزه ، بدعوى من الأمير خاير بك من حديد ليرى البستان الذى أنشأه هناك ، وقد صحب السلطان معه عددا من الأمراء الأكابر ، والأمراء العشرات ، وعددا واقرا من الخاصكية « وأقام هناك أياما وهو فى أرغد عيش على سبيل التنزه . كما سافر السلطان الغورى أيضا الى الفيوم وتكرر منه ذلك على سبيل التنزه .

والجدير بالذكر أن سلاطين المماليك - عند خروجهم للنزهة - كانوا يحرصون على الظهور بمظهر القوة والأبهة ، خاصة اذا كان السلطان يصطحب معه فى نزهاته واحدا أو أكثر من قصاده الأجانب .

وكانوا يصطحبون عددا كبيرا من الأمراء ، وكل من يتطلب الأمر حضورهم من أجل توفير الراحة للسلطان ومن معه . فقد كانت تنصب خيمة كبيرة للسلطان ، تعرف بالندورة أو الوطاق (٣٧) وكذا تقام خيام الأمراء ، وذلك فى العادة كان ضروريا ، خاصة اذا كانت تلك النزهة فى موضع بعيد ليس به مكان خاص لنزول

السلطان ، أو اذا استغرقت النزهة وقتا طويلا . وقيل أن أحد
اليمن قد أهدى الى السلطان الناصر حسن محمد بن فلاوون
غربية الشكل ، بديعة الصنعة ، بها قاعة وحمام ، وكان يذ
فى نزهاته ، حتى صار الناس يذهبون للتفرج عليها ، وقد ا
اقامته بها ثلاثة أشهر كاملة وهو فى الجيزة بعد أن أناب م
يلبغا فى تصريف الأمور .

ويبدو أن بعض السلاطين والماليك كانوا - رغم حرصهم
اظهار العظمة أثناء التنزه - يتبسطن ، وينطلقون دون قن
أو رسوم أثناء رحلاتهم الترويحية ، حتى ان السلطان الن
عندما سافر الى الفيوم أول مرة - كما يقول ابن اياس -
وقعت منه أمور غريبة ، فقد بلغه من مصدر ثقة أن السلطان فت
هذه السفرة فتكا زائدا ، كما أظهر أنواعا من العظمة ، وكاز
الأسمطة الحافلة وكذا الطوارى الفاخرة بطول الطريق فى كل
أربع مرات ، « وكان السلطان يطوف على العسكر بالسكر فى
من السقايين ويسقيهم السكر بالطاسات ، وحكوا عنه أشياء :
من هذا النمط ، وكانت هذه السفرة السابق الإشارة اليها
سبيل التنزه » .

ويضيف ابن اياس انه شاهد موكب السلطان العائد من
السفرة ، عندما شق القاهرة الى القلعة فى أحداث شهر ذى ال
سنة ٩١٨ هـ ١٥١٢ م .

أما بالنسبة لامراء الماليك فقد كانوا أيضا حريصين
الاستمتاع بالتنزه ، واقامة مواضع النزهة الخاصة بهم الى ج
خروجهم مع السلطان لهذا الغرض ، فقد أنشأ الاتابكى بكتمر خ
فى القرافة الصغرى « وأنشأ بها حماما وفرنا وطاحونا وسـ

وجنينة وقرر بها صوفية وحضورا وجعل للصوفية خلاوى فى هذه الخانقاه يسكنون بها دائما « كما جعل فيها ربة شريفة مكتوبة بالذهب ، بلغ مصروفها الف دينار وكانت بخط الأعاجم .

ويضيف ابن اياس قائلًا : « ولم تزل هذه الربة مقيمة بهذه الخانقاه والناس يتوجهون الى هذه الخانقاه بسبب الفرجة على هذه الربة ، فانها كانت من محاسن الزمان « واستمر ذات الى سنة تسع وتسعمائة حيث نقلها السلطان الأشرف قنصوه الغورى الى مدرسته التى فى الشراپشيين .

كما كان القاضى جمال الدين محمد بن عمر بن على الطنيدى ، المعروف بابن عرب الشافعى (ت ٨٤٦) يقضى أكثر وقته فى بستان له بجزيرة الفيل .

ويذكر ابن بطوطة أيضا أن بعض علماء مصر كان من عادتهم أن يذهبوا بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزهات ، وقد ينفرد بعضهم عن أصحابه أثناء ذلك .

وكان بعض الأمراء يلهون ولكن فى ستره ، كما كان يفعل تغرى بردى ابن عبد الله نائب الشام (ت ٨١٥ هـ) الذى كان يلهو لكن فى ستره وحشمة وافضال .

وجدير بالذكر ان مواضع اللهو والتفزه لم تقتصر على الأماكن المعهودة والمخصصة لهذا الغرض ، بل ان الناس فى ذلك العصر قد اعتبروا القرافة مكانا للهو والتفريج عن النفس ، حتى انهم كانوا يخرجون اليها فى أيام المواسم والأعياد ، ومعهم الريحان والزهور ، ويصطحبون أولادهم ونساءهم وهناك يكثر الغناء والرقص واللهو وقد يبيتون هناك .

وقد عبر المقرئ عنها فقال انها « معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم » . .

وكثيرا ما كان السلطان ينزل ويبيت عادة فى تربة أبيه ، وكان ذلك يستتبع حدوث مساوىء لا ينبغى ذكرها ، حيث لم تكن القرافة فى ذلك العصر مجرد مكان لدفن الموتى ، وانما كانت مدينة صغيرة بها جميع مرافق الحياة الضرورية ، حتى وصفها البلوى المغربى بأنها « بلدة كبيرة قائمة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها » . .

ويبدو أن ذلك الحال من حيث التنزه وارتداد المتنزهات وأماكن الفرجة ، كان شائعا فى انحاء الدولة المملوكية ، ولم يكن ذلك مقصورا على أهل مصر فقط ، حيث يقول ابن بطوطة : « وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا ، انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل » . . بالاضافة الى اهتمام أهل الشام ايضا بعمارة أماكن للتنزه والفرجة ، فعلى سبيل المثال فى شوال سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م شرع فى عمارة القبة وعمل المربع والحمام على ساقية نخيلة بظاهر حماة ، وقد فرغت العمارة فيها بعد حوالى ثلاثة شهور ، وجاء ذلك من أنزه الاماكن .

ويقول ابن عبد الظاهر ان السلطان المنصور قلاوون قد شارك بنفسه وبصحبته الأمراء والخوادم وكثير من الناس فى إعادة حفر بركة قريبة من باب النصر بالكرك (٣٨) حتى حفرت ونظفت فى ثلاثة أيام .

وهكذا فعلى الرغم من المتاعب والأزمات التى تعرض لها عامة الناس فى عصر المماليك ، فان روح المرح والرغبة فى الترفيه والتسلية ظلت تسود حياة سكان المدن ، وخاصة المماليك الذين كانوا يعيشون عيشة الترف ، بينما كان معظم المصريين فى ذلك

الوقت يعملون في زراعة الأرض ، ويدفعون الضرائب ، وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بصنع ملابس الممالك الفاخرة ، وبناء عمائرهم فانهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية كالوظائف الدينية والقضاء .

بل ان أحد السلاطين أمر بالنداء في القاهرة « بأن فلاحا لايركب فرسا ، ولايشترى سلاحا ، ولاسيفا ولارمحا » وربما قصد بالفلاح كل من هو مصرى من غير الممالك .

حقا لقد جمعت دولة سلاطين الممالك في غالب وقتها بين القوة والترف عندما كان سلاطينها أقوياء ، على حين كانت تفقد ذلك خاصة في فترات ضعف السلاطين وتولى السلاطين الأطفال أمور البلاد ، ولعل ذلك يتمشى مع قول ابن خلدون في أن من طبيعة الملك الترف فيقول معللا ذلك « لأن الأمة اذا تغلبت وملكت مابأيدى أهل الملك قبلها ، كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته . ويذهبون الى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم » .

وتصير لتلك النواقل عوائد ضرورية في تحصيلها ، وينزعون مع ذلك الى رقة الأحوال ويتفاخرون في ذلك ويفخرون فيه غيرهم من الأمم في الأكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره ويناغى خلفهم في ذلك سلفهم الى آخر الدولة » .

وإذا حاولنا تطبيق رأى ابن خلدون هذا بالنسبة لدولة سلاطين الممالك فان ذلك يصبح متطابقا الى حد كبير لما كانت عليه هذه الدولة من أسباب القوة والترف ، فلا ريب في أن ترف دولة الممالك ، وخاصة في عصرها الأول قد زادهما قوة على قوتها ، ولكنها عندما أخذت في الهزم أخذت قوتها تتلاشى ، ولم تبق الدولة على حالها من القوة . حتى سقطت على أيدي العثمانيين .

هوامش الفصل الثالث

- (١) يقال ان الشاعر عدى بن زيد كان أول من لعب بالمصولجان من العرب ، كما أن الخليفة العباس هارون الرشيد هو أول من لعبها من الخلفاء (انظر ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ ، ماجد ، العصر العباسى الاول ، ج ١ ص ٢٤٥ ، ابراهيم الفحام ، مقال عن العاب الكرة عند العرب .)
- (٢) والمعروف ان السلطان المعز ايبك قتل بواسطة بعض المماليك والخدام على يد زوجته شجرة الدر عقب عودته من لعب الكرة فى ذلك اليوم من ربيع أول سنة ٦٥٥ هـ
- (٣) ذكر هذا الميدان باسماء متنوعة مثل : ميدان القلعة ، والميدان الاسود وقره ميدان ، ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين ويقال له المنشية (انظر المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٨) .
- (٤) المقصر الابلق ، انشأه الناصر محمد فى شعبان سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م وانتهت عمارته سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م ، وقد اندثر هذا القصر ، وكان قائما فى الجهة الغربية من القلعة .
- (٥) هما الاتابك فارس الدين أقطاي المستعرب والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين بن حنا .
- (٦) هو السلطان قنصوه الغورى ، حيث ابتداء بضرب الكرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الاول سنة ٩٢٠ هـ وكانت حالته الصحية ليست جيدة .
- (٧) كان الاصطبل السلطانى ينقسم الى عدة أقسام هى :
- الاصطبل الخاص ، وبه الخيول الخاصة بالسلطان التى تسير فى المواكب ، واصطبل الحجورة ، وبه الخيول الخاصة بلعبة الأكرة أو

الرياضة ، واصطبل الجوق ، وبه خيول الممالك للتابعين للسلطان ، واصطبل البيمارستان وبه الخيول الضعيفة ، واصطبل الجشاء ، وبه الخيول المهزومة التي حان أجلها ، واصطبل البريد ، وبه خيل البريد ، واصطبل اليغال . واصطبل السباع . واصطبل الفيلة ، كما كان يتبع الاصطبلات السلطانية « المناخات » وهي الامكنة المخصصة لانواع الجمال السلطانية ومنها مناخ الجمال النجاشي ومناخ الهجن والنياقي . (انظر ، على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ الممالك البحرية ، ص ١٦٧ ، جمال الغيطانى ، ملامح القاهرة فى الف عام ، القاهرة ١٩٨٣ ، سلسلة الهلال ، من ٤٦ . ٤٧) .

(٨) وصف القلقشندى هيئة السلطان فى الركوب لصلاة العيدين بقوله :
 « أما صلاة العيدين ، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من منقذه من الاصطبل الى الميدان الملاصق له ، وقد ضرب له فيه دهليز على اكمل مايكون من الهيئة ويحضر خطيب جامع القلعة الى الميدان فيصلى به العيد ويخطب ، فاذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والامراء والممالك يمشون حوله ويطلع من باب الاصطبل ويطلع الى الديوان الكبير حيث يمد السماط » (القلقشندى صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦) .

(٩)

حوييت بطشا واحسانا ومعرزة وليس يحمل هذا كله الفرس

(١٠) من المعروف ان لعبة الكرة من فوق ظهور الخيل فى عصر الممالك هي التي تعرف اليوم باسم البولو Polo وتقام لها مباريات دولية الآن ، حتى ان الملىدى ديانا سينسر تطلب من زوجها الامير تشارلز ولى عهد بريطانيا أن يعتزل هذه اللعبة لاحتمال تعرضه للخطر (حريدة الجمهورية العدد (١٠١١٣) بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٨١) .

(١١) يقول

ياحسنتها كرة كالنجم سائرة قد طال ترددها بين الجواكين
 تفرق الهم اذ كانت مؤلفة بين القلوب بأراء السلاطين
 لجبرهم لقلوب الجند اذ لعبوا مع الملوك وهم بعض المساكين

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٣) .

وان كنا لانعرف لمن تنسب هذه الابيات ، فقد قال الشاعر الدهان ملغزا فى الكرة :

وهضروب لسه جرم يعاقب وهو من كرم السج
يلا جرم ولا نسيب
ية طيب القلب
(انظر ابن حجر ، الدرر ، ج ٢ ، ص ٧٩) .

(١٢) المنصورية بيت نائب السر ناصر الدين بن البارزي ، وكان يقع
بشاطيء النيل ببولاق .

(١٣) الحراقة الذهبية جمعها حراقات وحراريق ، نوع من السفن
الحربية استخدمت لحمل الاسلحة النارية (كالمنار الاغريقية) وكان بها
مرام تلقى منها النيران على العدو ، كما استخدم نوع منها للاستعراضات
التي تقام في الحفلات العامة .

(١٤) وكانت توجد أسواق اخرى مهمة تتصل بالخيل والسباق
ولوازمها وتعتبر مكملة لسوق الخيل منها : سوق المهمازيين لبيع المهاميز ،
وسوق اللجميين لتباع فيه آلات اللجم ، وسوق الجوخيين فكان مخصصا
لبيع الجوخ المستورد لتصنع منه ثياب السروج .

(١٥) فعلى سبيل المثال فقد قدم في رمضان من سنة ٧٧٧ هـ الامير
بيدمر نائب الشام ومعه هدية السلطان الاشرف شعبان لم يعهد مثلها لنائب
قبله ، منها مائتان وخمسون فرسا ، كما اهدى لجميع الامراء والاعيان
عدة هدايا ، ونزل بالميدان الكبير على النيل
(انظر ، المقریزی ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ٢٥٦) .

(١٦) يقصد بالتبريز هنا الميازة ، فقد ذكر الصيرفي عند حديثه
عن هذه الواقعة ما نصه « وعندما تبارزوا للمرة الثالثة . . . » (انظر
نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، المقریزی ، السلوك ، ج ٣ ق ٢ ،
ص ٥١٦ ، حاشية ١) .

(١٧) هو السلطان ابو سعيد بهادر خان بن خدا بندا . آخر ملوك بنى
هولاكو ، ملك ايران .

(١٨) ابن حجر ، الدرر ، ج ٢ ، ص ٤ . وقد ذكر ان مصروف الحظير
بلغ سبعة آلاف درهم فقط .

(١٩) يقول :
في المليك المظفر الضرغام
كان لعب الحمام جد الحمام
ايها العاقل اللبيب تفكر
قد تمادى في البغى والبغى حتى

(٢٠) يقول .

حذار من بأسه الشديد
فان كفيه من حديد
يرى على ورده الخدود
من خصمه وتبنة الاسود

ديكى صياح من الهندود
ان كان منقاره (قصيرا)
كاتبنا عرفه عقيق
له اذا هاجه نقيار

(٢١) يقول :

كأنه عروة الصعاليك
بين دجاج مثل المالك
على منكببيه محبوك
كأنه الصالح بن زريك

أهلا وسهلا بطلعة الديك
أتى بتاج كأنه ملك
بطيسان مثل الحرير مع التبر
رأيته ان يشير من تيهه

(٢٢) ابن بطوطة ، رحلة ، ص ٤ وجاء فى القرآن الكريم (٠٠ فاذا خفت
عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى) سورة القصص آية رقم ٧ واليم
هو البحر .

(٢٣) الغراب ، مفرد أغرية ، وهى نوع من السفن الحربية التى كانت
تستعمل فى العادة فى البحر الابيض المتوسط منذ أيام الامبراطورية الرومانية
والارجح ان هذا النوع من السفن سمى بهذا الاسم نظرا لمشابهته لهذا الطائر
من حيث السواد لطلاتها بالقار والزفت ، كذلك لاستواء مناقيرها .

(انظر ، الخطيب الجوهري ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٣ ، ص ٧٢) .
(٢٤) الخليج الناصري ، عندما انشأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون
الخانقاة بسرياقوس ، أمر بحفر هذا الخليج سنة ٧٢٥هـ لتوصيل الماء اليها .
(انظر ، محمد حمد المنادى ، نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة
١٩٦٦ ، ص ١٢٣) .

(٢٥) الخور ، هو مصب الماء فى البحر ، وكان خليج قم الخور يخرج
من النيل ويصب فى الخليج الناصري ليقوى جرى الماء فيه ، وكانت على
خليج قم الخور قنطرة هى المشار اليها (المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ،
ص ٣٥٧ حاشية ١) .

(٢٦) ومنها

كليلة سمحت للاشرف الغورى
فى وقدة الليل بالاملاك والدور

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج
فان ترد وصفها أنشدت مرتجلا

من بر مصر ومقياس يقابله
حاكت مصابيحها ضوء النجوم اذا
كان التقابل بين النور والنور
ما أزهرت بالدجى فى ليل ديجور

(٢٧) منظره الخمس وجوه ، أنساه الأضلل بن أمير الجبرئى ، وكان
بها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لمسقى البستان العظيم
الوصف .

(انظر . المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ق ١ ، ص ٥٢٦ ، حاشية ١) .

(٢٨) المقس ، قرية كانت على النيل ، وموقعها اليوم جامع أولاد منان
وشارع الجمهورية وحديقة الازبكية .

(٢٩) والمناظر جمع منظره وهى دور بناها الخلفاء الفاطميون فى
الفاهرة والفسطاط والروضة والقرافة للنزهة والاشراف على الاحتفالات
وتوديع الحملات الحربية (انظر ابن سعيد ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٥) .

قال فيها صاحب النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة .
سقى الله أرضا كلما زرت روضتها
كساها وحلاها يزيناها القرمط
تجلت عروسا والمياه عقودها
وفى كل قطر من جوانبها قمرط

(٣١) ابن بطوطه ، رحلة ، طبعة القاهرة ١٩٣٨ ، ج ١ ، ص ٢٠ ،
طبعة القاهرة ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ٢٠ ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ص ٣٢ ،
٣٣ وقد لوحظ ان طبعة بيروت قد خلت فى هذه الفقرة من عبارة « واهل
مصر ذوو طرب وسرور ونخشى أن يكون هذا الاغفال متعمدا من جانب
ناشرى الكتاب والا يكن ذلك اغفالا لما يتطلبه البحث العلمى من أمانة
بغض النظر عن هوية مصدره .

(٣٠) قال فيها ابن سعيد :

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت
كأنما هى والابصار ترمقها
بها المناظر كالأهداب للبصر
كواكب قد أداروها على القمر

وقد استهواه منظرها حين تشرف عليها الشمس فقال ايضا :
انظر الى بركة الفيل التى نصرت
وحل طرقك مجفونا بيهجتها
لها الذزالة نحرا من مطالعها
تهيم وجدا وحيا فى بدائعها
(انظر ابن بقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ابن سعيد ، النجوم

الزاهرة ص ٢٧) .

(٣٢) هذا من وصف القاضي علاء الدين بن النابلسى فى كتابه « حسن السريرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » (انظر ابن دقماق ، الانتصار ، ص ١١٧) .

(٣٣) وقيل :

يريم جيزة حلاوى صنعة الخلاق خلى دموعى خطيرى بحر فى اطلاق
لو لقط مقياس منية طيب الاخلاق وخذ روضة وخالوا المشتهى بولاق
(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٨) .
وكوم المريش كانت من اجمل متنزهات القاهرة ومكانها اليوم هى
الزاوية الحمراء (انظر بحث لجنة التاريخ بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون
والاداب - المؤرخ ابن تغرى بردى القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٧٣ ، حاشية ٢) .

(٣٤) قال الشاعر : ابراهيم المعمار :

ياطالب التكة نلت المنى وفزت منها بيلوغ الوتر
قنطرة من فوقها تكة وتحتها تلقى خليج الذكر
(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩) .

(٣٥) وقد زار المؤرخ ابن ظهيرة وراها وهى عبارة عن مرود ومخضب
وقطعة من الفضة ، وضم اليها اشياء من آثار الاولياء . والمخضب ، الاجانة
تفسل فيها الثياب وخرقة المخضب .
(انظر ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٩٤ ، حاشية ٦) .

(٣٦) الجزيرة الوسطى ، هى الآن جزيرة الزمالك او جزيرة المعرض ،
وما زالت من احسن المواقع للسكن او المتنزه (انظر ، ابحاث لجنة التاريخ
بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب ، القاهرة ١٩٧٤ ، المؤرخ ابن تغرى
بردى ص ١٧٤ ، حاشية ٢ ، عبد الرحمن زكى . القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٢٣ ،
حاشية ٢) .

(٣٧) وطاق ، اصل أوتاق بالتركية موقد النار ، وتقال على السدار
والمخيم (انظر عبد الوهاب عزام ، مجالس السلطان الغورى - القاهرة) .

(٣٨) تعرف بكرك المشويك ، وهى مدينة محدثة البناء ، وكانت ديرا
يتديره رهبان ، ثم كثروا فكبروا ببناءه . (انظر ابن عبد الظاهر ، تشرىف
الايام ، القاهرة ١٩٦١ ، ج ٢ ، ص ١٣٨) .

الألعاب المنزلية أو الهادئة

الفصل الأول : الترد والشطرنج

الفصل الثاني : ألعاب الورق وألعاب الأطفال

الفصل الثالث : خيال الظل

الفصل الأول

النرد والشطرنج

لعبة النرد :

أصل النرد - النرد فى اللغة - أساس لعبة النرد النرد فى الاسلام - النرد فى عصر سلاطين المماليك ، النرد عند الشعراء فى العصر المملوكى .

لعبة الشطرنج :

الشطرنج وصفقتها - تطور الشطرنج على ايدى الفرس والروم - الشطرنج فى الاسلام - الشطرنج عند سلاطين المماليك - الشطرنج عند شعراء المماليك - آداب اللعب بالشطرنج - الشطرنج لغة - أثر الشطرنج العربى على الشطرنج الأوروبى الحديث .



كانت لعبة النرد من وسائل الترفيه التى انتشرت فى عصر سلاطين المماليك . وهى لعبة فارسية الأصل (١) . وهى المعروفة باسم الطاولة وهذه اللعبة كان يمارسها العامة والخاصة فى ذلك العصر فكان الأمراء ورجال الأدب والشعراء يهونون لعب النرد .

وتعرف تلك اللعبة بنرد شير نسبة الى أرد شير بن بابك الذى وضعها ، ولاشك أن المسلمين قد أخذوها عن غيرهم من الشعوب التى احتكوا بها بعد الاسلام ، ويعتبرها البعض من الألعاب الهادئة لأنها كانت تجرى والقوم جلوس ، بعضهم الى جانب بعض على

النقيض من عادات العرب ، إذ أن العربي القح كان يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه ومألوف عاداته .

ولعبة النرد تعتمد على الحظ ، ويستعمل فيها ثلاثون حجرا وفصان ، على رقعة رسم عليها اثنا عشر منزلا ، وتكون فى بعض الأحيان أربعة وعشرين منزلا .

وقد أقبل على النرد كثير من الحكام على مر العصور ، فقبل ان هارون الرشيد قدم اللاعبين به وأجرى عليهم الأرزاق .

وقد شاعت لعبة النرد فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك وأقبل عليها العامة والخاصة ، فقد كان لها اغراء كبير الى جانب لعبة الشطرنج واغراء هذه اللعبة لمن يلعبها قد يصرفه عن كل شىء حتى عن أداء الفروض الدينية ، فنرى فى العصر المملوكى الشاعر الحكيم ابن دانيال يصف اغراء هذه اللعبة فى عصره واقبال الناس عليها (٢) .

والى جانب لعبة النرد انتشرت كذلك فى عصر سلاطين المماليك لعبة الشطرنج وهى من الألعاب الهادئة التى وضعها حكماء الهند عندما افتخر الفرس بوضعهم النرد ، فناظرهم أهل الهند بوضع الشطرنج ومافيه من التدبير ، حيث رسموا لها رقعة مربعة تتألف من ثمانى خانات طولاً وعرضاً ورسموا عليها أربعة وستين مربعا بالتساوى ، كما جعلوا فيها ثمانى قطع ومثلها من البيادق وطلبت بلونين من طرفيها واجلسوا الملك والوزير فى القلب وأوقفوا قبيلين على اليمين واليسرة وجعلوا بجانب القبيلين حصانين من الجانبين ، كما جعلوا الرخين فى الزاويتين ، ووقفوا أمامهم صفاً من العساكر ، وعلى هذا النحو يستعد الجانبان للمباراة .

وقد كان الحجاج يتسلون بالشطرنج وهم فى طريقهم الى الحج على ظهور الشقادييف كما شاع اللعب بالشطرنج ايام الدولة الفاطمية فى مصر حتى ان الخليفة الحاكم بأمر الله أمر بمنع اللعب بالشطرنج ، وصادر رقاع الشطرنج فجمع منها أعدادا كبيرة وأحرقها .

وأقبل سلاطين المماليك على الشطرنج وعلى اللعب مع المقربين اليهم من الأمراء والعلماء والأدباء ، كما حرص بعضهم اذا خرج فى أسفاره ، أن يحمل معه كمية ضخمة من العاج يرسم خراط الشطرنج حتى اذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة وجدد غيره للسلطان .

وقد جرت العادة أيضا بأن تصنع أدوات الشطرنج من سائر انواع الجواهر والذهب ، والفضة والأبنوس برقاع الحرير المذهب . كما صنعت من البللور الصخرى(٣) لذا كان من الطبيعى أن نعتبر لعبة الشطرنج من الألعاب الارستقراطية الخاصة بالملوك والأمراء ، لا الفقراء والأراذل ورغم هذا فقد شاع الشطرنج بين مختلف الطبقات حيث لعبه السلاطين والأمراء ، والتجار والفقهاء وغيرهم .

وقد جرت العادة كذلك فى عصر سلاطين المماليك أن يشتمل شوار العروس على الشطرنج ، أو كان يهدى الى العروسين تخفيفا عنهما فى نفقات الزواج .

وقد بلغ من انتشار لعبة الشطرنج وكلف الناس بها الى الحد الذى جعل بعض الأشخاص ينسبون اليه ، كما صنفت فى هذه اللعبة وقواعدها العديد من المؤلفات والرسائل خاصة فى عصر سلاطين المماليك .

وقد تفنن اللاعبون فى ابتداء أساليب اللعب بالشطرنج ، فكان من أصحاب البطولة فيه من يدير ظهره الى الرقعة ، ويأمر بنقل القطع بالإشارة ، ولعل من هؤلاء شرف الدين عيسى بن حجاج السعدى المصرى (ت سنة ٨٠٧هـ / ١٣٨٥م) الذى عرف بعيسى العالية وسمى بذلك لأنه « كان عالية فى لعب الشطرنج ، وكان يلعب به استديارا » . وهذه براعة لم يبلغها غير القليلين من الشطرنجيين حتى فى العصر الحديث .

بل بلغ من تفوق لاعبي الشطرنج فى ذلك العصر أن أحدا منهم هو على ابن قيران التركى الأعمى الشطرنجى الذى ذكره الصفدى فى شرح لامية العجم حيث رآه بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م يلعب مع أقوام ويحطهم ويغلبهم ، بل كان يتحدث مع الموجودين ويشاركهم فى جميع ما هم فيه ، ولا يغيب عنه شىء مما هو فيه وقد ذاع صيته بالقاهرة فى هذا المجال .

وكان الشطرنج من أهم وسائل التسلية التى يتسلى بها أرباب النوبة وهم حرس السلطان حيث كانت تخرج لهم المصاحف لقراءة القرآن الكريم وكذا الشطرنج ليتشاغلوا به عن النوم حتى يأتى ميعاد نوبتهم مرة أخرى كذلك بلغت درجة قربهم من السلطان مبلغا كبيرا حتى أنهم كانوا يدخلون عليه بدون استئذان .

وقد كان الأمير خشقدم « مدمنا للعب الشطرنج فى الليل والنهار » والجدير بالذكر ان السلطان حسام الدين لاجين قد قتل وهو منكب على لعب الشطرنج فى احدى ليالى رمضان سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م ، وقيل انه قتل وهو ينهض للصلاة بعد ان لعب الشطرنج .

كما كان السلطان الغورى يجالس أصحاب الحظوة عنده ، بل كان يجلسهم معه على المرتبة ويلعبهم الشطرنج وكان يتعرف

من هؤلاء الجلساء على الكثير مما كانوا ينقلونه له من أخبار
الناس .

وكانت بعض الهدايا الى السلاطين تحتوى على شطرنج قفى
ربيع الأول سنة ٧٩٩هـ / ١٤٧م اهدى الملك الأشرف عهد الدين
اسماعيل بن الأفضل عباس بن رسول متملك اليمن الى السلطان الملك
الظاهر أبى سعيد برقوق ، شطرنجا من الحقيق الأبيض والأحمر .

ولم يكن الأمر مقصورا على الملوك السلاطين والأمراء بل
كان كذلك القضاة والعلماء يلعبون الشطرنج ويقبلون عليه ، فقد
ورد عن بعضهم انه كان « غالبية فى الشطرنج بالغائب مشاركا فى
عدة فنون » .

كما كان بعضهم يجيد لعب الشطرنج حتى وصف بانه نافذ
الفكر يفوق جميع اقرانه فى هذا الشأن مع صرف غالب زمانه فى
لعب الشطرنج . بل كان منهم من يجيد اللعب بالشطرنج ويديمه
حتى فى أوقات اعتكافه « ومنهم ايضا من كان « يعرف النرد
والشطرنج ويلعب بهما جيدا فى حالة واحدة دائما مدى الايام » .

ورغم ذلك فانه جاء فى الوصايا الموجهة الى السلطان المؤيد
شيخ « انه » لا ينبغي ان يواظب على لعب الشطرنج والنرد ونحوهما
فان المواظبة على هذه الاشياء تشغله عن النظر فى أمر الولاية ،
فيتطرق الخلل فى أمور المملكة » .

كما قيل ان القاضى ابن دقيق العيد قد لعب الشطرنج فى
صباه مع زوج اخته الشيخ تقى الدين بن الشيخ ضياء الدين ،
فأذن بالعشاء فقاما فصليا ، ثم قال الشيخ : نعود ، فقال صهره :
« ان عادت العقرب عدنا لها ، فلم يعد يلعبها » .

وقد حظيت لعبة الشطرنج — كما حظيت النرد — باهتمام
الأدباء والشعراء فقد نظم بعضهم بعض المقطعات الشعرية فى

فى وصفها وبيان فنها ، فنجد بدر الدين بن الصاحب يصف مهارته فى لعبة الشطرنج حتى انه اتقن حفظها وصار بإمكانه أن يلعبها دونما نظر الى رقعتها(٤) .

وكان الأديب الشاعر المشهور ، برهان القيراطى (ت ٥٧٨١ هـ) .
قد نظم شعرا فى الشطرنج(٥) .

اما ابن نباتة(٦) (ت ٧٦٨ هـ) فى رقة الشطرنج ميدانا لاجالة الفكر ، فهى حديقة زاخرة بالجنى(٧) .

وفى قول آخر ينزع الى التأمل يرى فى لعبة الشطرنج شيئا من الدنيا وحالها ، وما يعود منها على الانسان ليلا ونهارا من بؤس وتعيم ، تم تبنى فى النهاية ولا يبقى الا الخالق(٨) .

وهكذا يفهم من المراجع المعاصرة ان لعبة الشطرنج ظلت ذات شأن كبير فى عصر المماليك ، وفضلا عن أن الشطرنج لعبة رياضية عقلية فهو مرآة لأفكار الناس ونفوسهم ، فهو يظهر الميول والطباع لينصلح ما بها من نقص علاوة على انه لعب اجتماعى يسوده الهدوء والكمال ، لذا تجدر الاشارة الى بعض آداب هذه اللعبة ، منها ألا يبخس اللاعب خصمه اذا أتى بلعبة جيدة والا يأتى بحركات مشوشة وان يتجنب ردىء الكلام .

هذا وقد اختلفت المراجع الحديثة فى أصل تسمية الشطرنج بهذا الاسم(٩) . وأيا كان معنى الاسم فمن الصحيح ولا ريب ان لعبة الشطرنج وكذا كل لعبة بين فريقين متنافسين هى فى طريققتها وغايتها لعبة حرب أو لعبة مقاومة متبادلة يستعد لها كل فريق كما يستعد للانتصار على خصمه ويتخذ لها العدة من جميع قواه الفكرية والخلقية ، ويسأل فيها عن أساليب خصمه كما يسأل القائد عن أساليب القائد الذى يناجزه .

هوامش الفصل الأول

(١) والنرد لغة اسم اعجبي معرب . وشير بمعنى حلو ، كما عرفت بالكوبة فليل ان الكوبة هي النرد في كلام أهل اليمن ، وقيل أيضا ان الكوبة هي الطبل والنرد .

(٢) ومما قاله ابن دانيال في ذلك .

وللبنج فعل البنج في اللب ما بنا
وكالخال نقش «اليك» يسبيك لونه
تروكك من شفع ووتر نقوشها

والهاك عن صوم الفريضة الفطر
فأنت به صب الفؤاد مدى الدهر
وتلهيك ملاحت عن الشفع والوتر

(٣) تشير المراجع الى وجود بعض القطع ضمن مجموعة الكونتس دي بهاج في باريس تنسب الى اواخر العصر الفاطمي (انظر ، زكى حسن ، كنور الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩٣) .

(٤) ابن حجر . الدور الكامنة ، ج١ ص ٢٤٨ .

قال في ذلك

لى فى الشطرنج علم
العيب الخائب منها

اتقن الادمان حفظه
فأراه طبقا يقظته

ويرى انها لعة أهل العقل والفكر ، وان كان ينكر ما يراه من سلرك بعض لاعبيها :

أميل الشطرنج أهل النهى
وكم لى اهذب لعابها

واسلوه من ناقل الباطل
ويابى الطباع على الناقل

ولعل من أطرف ما قاله الشعراء فى وصف الشطرنج ما قاله لىبن الرومى حيث قال :

أرض مربعة حمراء من آدم
ما بين شخصين موصوفين بالكرم

تذكروا الحرب فاحتمالا لها شبيها من غير أن يعيننا فيها بسفك دم
هو على بن العباس بن جريج (انظر ترجمته في ابن خلكان في حرف
العين) وجير بالذكر ان البعض قد نسب هذه الابيات الى شاعر يدعى
على بن الجهم وان كنا نرجح انها لابن الرومي (انظر ، احمد نجم واخر ،
أصول الشطرنج الاسكندرية ١٩٥٩ ، ص ٩) .

(٥) يقول :

انظر الى شطرنج قد بسدت من فوقه المسامات قبل النقط
صحت به نسخة حسن لمن قد راحت الارواح فيها غلط

(٦) ابن نباته : هو جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن
المعروف بابن نباتة المصري ، الاديب الشاعر ولد سنة ٦٧٦ هـ وتوفي سنة
٧٦٨ هـ .

(٧) يقول .

لعبت في الشطرنج في غاية ان صاج في الاقران لي يبدق
تقصر الاوصاف عن حدها تموت منه الشاة في جلدها

(٨) حيث يقول :

تأمل تر الشطرنج كالدهر دولة محرتها باق وتفتي جميعها
نهارا وليلائم بؤسا وانعما وبعد الفنا تحيا وتبعث اعظما

وقال شاعرا آخر كان من اكابر الامراء في لاعب شطرنج كان يلاعبه :
لعبت بالشطرنج على شادية رشاقة الاغصان من قده
احل عقد البند من خصره والثم الشادات من خصده
(انظر ، ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ج٧ ، ص ٦٤ ، ٦٥) .

(٩) قيل انها لفظه عربية مشتقة من الفارسية ، الكلمتان هما « شيش
رنك » بمعنى سنة الوان او اشكال ومراتب ، وقيل انها مأخوذة من
« شاه رنج » بمعنى هم الملك او مشاغله ، او من « شدرنج » أي من اشتغل
به ذهب عناؤه او من شط رنج أي « ساحل العتب » .

(انظر احمد تيمور ، لعب العرب ص ٣٥ ، العقاد ، مقال عن الشطرنج
مجلة الاذاعة والتليفزيون سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ١٢ ، ١٣) .

بل يذهب البعض الى ان كلمة شطرنج مأخوذة من كلمة « شاتورانجا »
الهندية ومعناها لعبة الحرب « انظر موري ، تاريخ الشطرنج) .

— H.Y.R. Murray, A. History of Chess, Oxford, 1913.

الفصل الثاني

ألعاب الورق وألعاب الأطفال

أهمية اللعب - مضمون الألعاب الهادئة - ألعاب الورق عند
المماليك ألعاب الأطفال عند المماليك - مشاركة الأطفال في المناسبات
العامة والدينية - المتنزهات في حياة الأطفال - السباحة عند
الأطفال .

الأطفال وقسوة الحياة - تعليم الأطفال وتأديبهم - جلب
المماليك أطفالاً وتعليمهم الطباقي - الألعاب التدريبية عند الأطفال
المماليك - تولى السلاطين الأطفال حكم البلاد - انصرافهم إلى
اللهم والطيش واللعب .



وهناك بعض الألعاب التي تهدف في المقام الأول إلى التسلية
والترفيه يطلق عليها الألعاب الهادئة ، وهي التي تتميز بقلة أو بعدم
متطلباتها الحركية . لعل من أمثلتها ألعاب الورق .

إن ألعاب الورق في عصر المماليك ليس لدينا عنها الكثير
خاصة إن المصادر المعاصرة وغيرها من الكتب الملوكية القديمة ،
خاصة تلك التي بين أيدينا ، لم تتعرض لهذه الألعاب في شيء من
التفصيل ، وإن كان لا يرب في أن لعبة الورق على أية صورة ، قد
وجدت بين الناس في ذلك العصر قلدينا ما ذكره الإدريسي في عصر
متأخر ، أثناء ترجمته لمحمد بن اسماعيل فتح الدين السنطى (١) ،
فقد أشار إلى لعبة بالورق كان يلعبها الشباب ، وإن لم يذكر
اسمها (٢) .

وجدير بالذكر ان الادفوى قد ساق ذلك ليدلل على ان صاحب الترجمة كان لا يعرف المزاح .

كما ان العاب الأطفال يمكن أن تندرج تحت ذلك النوع من الألعاب التي تهدف الى الترفيه وتمضية الوقت في مقامها الأول ، خاصة تلك الألعاب التي يمارسها الاطفال دونما تخطيط أو اعداد مسبق لها ، وان كانت تلك الألعاب التي سيأتى الحديث عنها فيما بعد ، تكون في الغالب العايا حركية تستلزم نوعا من النشاط والحركة ، مما يتناسب مع طبيعة تكوين لاعبيها ، ولكن السسمة المشتركة بينها تكمن في أن ممارستها تكون لمجرد اللعب والترفيه .

وعن العاب الأطفال في عصر الممالك قاننا نجد انفسنا أمام فئتين منهم ، الفئة الأولى وهي الأهم ، وتشمل أطفال العامة أي عامة الشعب من المصريين ، وهؤلاء في الحقيقة لم يقع تحت ايدينا من العابهم شىء كثير من خلال مصادرنا الا القدر اليسير ، الذى تمثل في مشاركتهم الضمنية في بعض ما كان يجرى حولهم من احتفالات ومناسبات عامة سوف نعرض لها فيما بعد ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الكبار .

اما الفئة الثانية فنعني بها صغار الممالك ، وهؤلاء كان لهم نظام خاص في تربيتهم في الطباقي ، فكانت العابهم العايا تدريبية وليست العايا حرة ، حيث لم تقف لهم على العاب مارسوها الا كوسيلة لتدريبهم عسكريا بما يتمشى مع النظام المملوكى القائم كدولة حربية ، ولكننا نجد في نفس الوقت ان بعض الأطفال الممالك الذين قدر لهم ان يعتلوا العرش ويصبحوا سلاطين على البلاد ، نجدهم يمارسون كثيرا من الألعاب التي ارتبطت غالبيا بالطيش لاجتماع حداثة السن والسلطة في أن واحد ، وان كان ذلك في

الغالب لم يستمر طويلا حيث كان الأمراء والأكابر يستولون على الحكم مستغلين ضعف هؤلاء السلاطين الأطفال ، وسنعرض لذلك بشيء من التفصيل فيما بعد .

أما عن أطفال العامة فاننا لا نشك في ممارستهم لبعض الألعاب العادية التي وجدت في ذلك العصر ، شأنهم في ذلك شأن كل الاطفال في كل عصر وكل مكان ، وان كان ليس هناك شك كذلك في ان فرصتهم في مجال الألعاب ، كانت ضئيلة ومحدودة ، بسبب تلك الظروف الصعبة التي عاشتها البلاد ، والازمات التي تعرضت لها في ذلك العصر من ان لآخر فلا بد ان ذلك قد ترك ظلا ثقيلًا على الحياة بشكل عام وعلى حياة الأطفال بصفة خاصة .

ويتمثل ذلك في اغاني اللعب ، ومشاهدة عروض خيال الظل وباباته وكذلك غيرها من النصوص الموسوعية بغرض الترفيه والامتعاق فانها تحمل قدرا لاغنى عنه من المعلومات الخاصة بالبيئة ، ومسالك أهلها في حياتهم اليومية ، ذلك ان هذه النماذج تعتبر نوعا من الوثائق النفسية والاجتماعية ، هذا فضلا عن انها تعتبر شواهد دالة على اسلوب العامة - ومنهم الاطفال - في تمضية أوقات الفراغ .

وكما سبقت الاشارة فان معظم العاب الاطفال كانت مشاركة في المناسبات العامة والدينية وما يصحبها عادة من مظاهر الاحتفال والسرور ، فعلى سبيل المثال كان في يوم النوروز(٣) يلعب الطلبة وهم طلاب العلم ونظنهم من الاطفال حيث كانت لهم مشاركة في ذلك ، ففي اثناء الاحتفال بهذه المناسبة كان الطلبة يلعبون ويبتلون بالماء ، بل بلغ بهم اللهو ان طلبوا من معلمهم وهو الشيخ بهاء الدين المقفطى الخروج اليهم وموافقهم فامتنع عن ذلك ، واشتغل

بمسألة كان يعكف عليها فاخذوا يصبون الماء حتى خشى أن يصل الماء اليه(٤) .

وهناك اشارة الى ان القاضى كمال الدين محمد بن على الظاهرى كان فى صباه يلعب بالحمام فى الريدانية(٥) شأنه فى ذلك شأن بعض السلاطين الأطفال كما سيرد فيما بعد الا انه ترك لعب الحمام واشتغل بالقراءة والعلم حتى تولى مشيخة الاسلام وهى قضاء القضاة .

واشتهرت الحياة فى المدن فى عصر الماليك بالحفلات الصاخبة ، وكان منها ما هو خاص عائلتى ، ومنها ما هو عام شعبى ، ولعل اشهر الحفلات العائلية حفلات الزواج ، والحفلات الخاصة بالولادة - وبخاصة اذا كان المولود ذكرا - وحفلات العقيقة(٦) التى بلغ المصروف عليها أحيانا خمسة عشر ألف دينار وكذلك حفلات ختان الاطفال ، فكانت مناسبات يشترك الناس بعضهم بعضا فى احيائها .

ومما لاشك فيه فان هذه المناسبات العائلية كانت فرصة طيبة لانطلاق الاطفال للعب والمشاركة فيها بصورة أو بأخرى ، ففي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م رسم السلطان الظاهر بيبرس للامراء والجنود والرعية ان كل من كان له ولد فليطلع به الى القلعة حتى يختتن مع ابن السلطان (السعيد محمد) فأحضر الناس أولادهم ، وبلغ عددهم نحو ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ولدا ، عدا أولاد الأمراء والأعيان ، فرسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام أبيه كما رسم لكل من أولاد العامة بكسوة ، ومائة درهم ورأس غنم ، واستمر المهم(٧) فى القلعة سبعة أيام .

وتلك صورة واضحة من مشاركة اطفال العامة ، اطفال السلاطين فى احتفالاتهم ، وان كان لكل منهم مكانته وقدره ولاشك

ان عامة الناس كانوا كذلك يقيمون حفلات خاصة بختان أطفالهم ، وكان يصحب ذلك فرح ومشاركة لكل الأطفال .

أما عن مشاركة الاطفال فى الاحتفالات الشعبية العامة فقد تمثل ذلك فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وموالد الاولياء الصالحين ، فقد كان من المعتاد ان يقيم السلطان خيمة المولد بالقلعة ، وتملأ الأحواض بعصير السكر والليمون ليقدم منها للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير .

وكان عامة الناس يترقبون موعد المولد ، فيقبلون على شراء لعب لأولادهم مصنوعة من الحلوى على هيئة اشكال مختلفة مثل الخيول والسباع والقطط وغيرها «فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله ، وتمتلئ أسواق البلدين مصر والقاهرة وأريافها من هذا الصنف» .

وتلك عادة انتشرت فى مصر فى عصر الدولة الفاطمية واستمرت بعدها ، حتى وقتنا الحاضر .

كما كانت موالد الأولياء ملتقى يجتمع فيه الشباب والمردان الى جانب غيرهم ، مما اعتبر من الأمور غير اللائقة لما كان جرى فيها من المفاسد كذلك كان يجرى الاحتفال بذكرى ميلاد المسيح ، يوم الاثنين فى التاسع والعشرين من شهر كيهك (السابع من يناير) وهو من الأعياد القبطية التى جرى العرف فيها عند المسيحيين والمسلمين على السواء أن يظهروا ابتهاجهم بها ، فكان موسما لبيع الشموع الملونة والفوانيس والتناديل والتماثيل الدقيقة ، التى يقبل الناس جميعا على شرائها لأولادهم حتى بلغ ثمن شمعة ألفا وخمسمائة درهم فضة .

وقد الغى الاحتفال بهذه المناسبة بالنسبة للمسلمين عام ١٣٥٨هـ / ١٩٤٤م فى عهد السلطان الناصر حسن .

ويبدو أن الاطفال كعادتهم يمكنهم أن يتخذوا من أى مكان يتواجدون فيه ملعبا لهم ، حتى ان المساجد فى بعض الأحيان لم تسلم من اللعب فيها ، مما دفع صدر الدين بن العجمى محتسب القاهرة فى ذى الحجة سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م أن يمنع مرور الناس من الجامع الحاكمى بنعالهم ، كما منع لعب الصبيان فيه .

كذلك كانت احتفالات وفاء النيل مجالا للهو الأطفال ، فكان قبيل الاحتفال يمر المنادون على البيوت ، ويغنون اغنيات مختلفة منها : البحر زاد : غرق البلاد . . . والأطفال حولهم يرددون عليهم فى كل نداء بقولهم : عوفا الله (ربما كان اصلها أوفى الله ، أى أوفى الله النيل) وعند الانتهاء من الاحتفال بالخليج يمر المنادى والأطفال على البيوت لتوزيع بعض البلح والليمون الحلو والبرتقال وهم يرجون بذلك المكافأة من كل حسب استعداده ، وقد أخذ هذا العمل يندثر مع تقدم المدنية .

وكان الأطفال كذلك يشاركون الكبار فى اللعب بالرماح اثناء دوران المحمل فكان المماليك الصغار يركبون خيولا قد نصبت عليها السيوف والرماح بالقباقيب وفى ايديهم رماح صغار - لتكون مناسبة لهم - يلعبون بها وهم على هذه الهيئة . كما كان من واجبات المحتسب أن يقاوم المجاهرة باظهار الملاحى المحرمة وتكسير أدواتها ان كانت لاتصلح لغير الملاحى ما عدا آلات اللعب التى لا يقصد بها المعاصى وانما يقصد بها تربية الأولاد ، ففيها وجه من وجوه الخير .

وان كانت تقاربها معصية كتصوير ذوات الأرواح ومشابهة الأصنام ، والمنع فيها يكون بحسب ماتقتضيه شواهد الأحوال مستندا فى ذلك الى حديث للسيدة عائشة - رضى الله عنها - فقد

دخل عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهى تلعب بالبنات فأقرها ولم ينكرها(٨) . وروى أن أبا سعيد الاصطخري من اصحاب الشافعى وقد تقلد الحسبة فى بغداد فى أيام الخليفة العباسى المقتدر(٩) ، قد أزال سوق الداذى وهو نوع من الخمر وأقر سوق اللعب ولم يمنع منها .

والحقيقة أن هناك علاقة وثيقة بين مواضع المتنزهات والبساتين والحدائق وطبيعة الترفيه بالنسبة للجميع وبخاصة الاطفال ، حيث كانوا يجدون فيها - كغيرهم - متنفسا طبيعيا سهلا فيخرجون اليها مع أسرهم أو مع أقرانهم .

وقد أوردت المصادر المعاصرة كثيرا من اخبار هذه المتنزهات وخروج الناس اليها - وهو ما أوضحناه من قبل - حيث كان الناس يتوجهون اليها ويبالغون فى القصف والفرجة ويضربون الخيام بها ، كما كانوا يقيمون أخصاصا للمتفرجين بها وصاروا يبيتون هناك خاصة فى الجزر ، حتى انهم كانوا يخوضون فى النيل الى منتصف الليل ، وقد عبر الشعراء عن جمال تلك المتنزهات ووصفها(١٠) .

ويبدو كذلك أن السباحة فى العصر المملوكى كانت تمثل مجالا للترفيه واللعب عند الاطفال على وجه الخصوص ، حتى ان ابن خلكان(١١) يصف جماعة منهم وهم يسبحون - ولا بد انه قد رأىهم ووصفهم بسرب الظباء(١٢) .

ولعل المقصود بسرب الظباء هم الصبيان فى مقتبل العمر ، وهم يخوضون فى الماء ويلعبون على صفحة النيل أو الغدير ، كما يصور حركاتهم فى الماء ، وما نظن تلك الحركات الا العابا مائية غالبا مايجيدها من يجيدون السباحة .

ويبدو أيضا أن شباب ذلك العصر كان لهم وسائلهم الترفيهية المختلفة التي قد تصل أحيانا الى حد الخروج عن المألوف ، حتى اننا نجد شاعرا(١٣) يلوم شبابه ، كما يلوم مشيبيه(١٤) .

ورغم ذلك يمكن القول بأن حياة الاطفال فى عصر المماليك لم تكن كلها لهوا ولعبا ، بل لقد نالوا قسطهم من شطف الحياة ومتاعبها - رغم نعومة اظفارهم - فكثيرا ماتعرضوا للفناء بسبب الأوبئة التي كانت تنفثى من حين لآخر . كما كانوا يخرجون مع ذويهم وهم حفاة من أجل صلاة الاستسقاء ، فقد روى المقرئى عن خروج الناس فى ربيع الأول من سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٤ م الى قبة النصر - خارج القاهرة - وهم حفاة بثياب مهنتهم ومعهم اطفالهم حتى ان المقرئى نفسه قد خرج معهم فى ذلك اليوم ، حيث أدوا صلاة الاستسقاء وكشفوا رؤوسهم عند الدعاء الى الله تعالى وهم يستغيثون ويبيكون فكان مشهدا عظيما .

وحدث أيضا انه عندما هاجم التتار مدينة دمشق وأحرقوها عن آخرها ، واسروا كثيرا من أهلها وعندما أرادوا الرحيل عنها جمع الناس لهم اطفال المدينة الذين أسر أهلهم وأكبرهم ابن خمس سنين ليرق قلب التتار لهم وكانوا نحو عشرة آلاف طفل ، ولكن تيمور لنگ أمر عساكره فساقوا عليهم بالخيل حتى أتوا عليهم جميعا كل ذلك والسلطان أبو السعادات فرج منهمك فى لهوه وشربه مع الملاح والندماء .

بالإضافة الى ذلك فان الأطفال فى العصر المملوكى كان عليهم ان ينالوا حظهم من التعليم والاقراء والتأديب ، وذلك عن طريق الفقهاء والمقرئين ويتخذون من المساجد مدارس لهم .

وجدير بالذكر أن السلاطين المماليك كانوا يفضلون شراء المماليك الصغار .

بل كان الرسم ان ذلك الا يجلب التجار الا الممالك الصغار
عن طريق التجار الأوروبيين من البنادقة وأهل جنوة .

ومعلوم أن الممالك الصغار قد نالوا عناية خاصة في تربيتهم ،
وأن العابهم التي كانوا يمارسونها كانت تتناسب مع اتجاهات
المجتمع الجادة ، لكي تمارس المهارة الضرورية له ، ومن هنا - كما
كما سبق أن اشرنا - كانت العابهم تأخذ شكل التدريبات المتنوعة
على ألوان مختلفة من الرياضات التي يتطلب الأمر أن يتصف
الفارس بها مثل الفروسية واللعب بالرمح ، ورمى السهام والنشاب
وغير ذلك ، حتى ان السلطان كان يحضر مبارياتهم في الفروسية
في ميادين خاصة . ولا غرو في ذلك فقد كان الهدف الأساسي من
وراء ذلك النظام الخاص لتربية الممالك الصغار عند جلبهم ، هو
اعدادهم خلقيا وعسكريا .

ولعل ذلك النظام المحكم للتربية عند الممالك قد جعلهم
يشعرون بالعزلة عن الناس - وحتى بالتميز في كثير من الأحيان -
بحيث انه بمجرد أن يعتق المملوك - أي ينهى فترة دراسته
بالطباق (١٥) - فانه كان ينطلق طالبا متعة الحياة مما جعلهم في كثير
من الأحيان يبالغون في ممارسة وسائل الترفيه المختلفة ، وربما كان
ذلك بدافع نفسي أساسه الرغبة في تعويض ما عانوه من الكبت
والحرمان أثناء وجودهم في الطباق ، كما ان هؤلاء الممالك
المتخرجين غالبا ما يكونون في سن الشباب الذي قد يدفعهم نحو هذا
السلوك . ومن الظواهر اللافتة للنظر أن عددا ليس بالقليل من
سلاطين الممالك الذين وصلوا الى الحكم لم يكن ذلك عن كفاءة أو
اقتدار .

وكان من الطبيعي أن ينصرف هؤلاء الاطفال السلطين الى أمور
اللغو والطيش واللعب ، وزاد ذلك على الحد حتى اننا نجد القائمين

تدبير أمور المملكة بردونهم عن ذلك بكل الوسائل وفى النهاية يطيحون بهم عن العرش وقد أوردت المصادر المعاصرة كثيرا من هذه الامثلة ، فكانت فى الواقع فرصة لمعرفة ماكان يتلهمى به هؤلاء الأطفال السلاطين ، فقد ذكر ان الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك كان يلعب بالحمام مع أولاد الغلمان ، وترك تدبير الأمور لأمه ، حتى خلع ونفى مع أمه واخوته الى دمياط .

كذلك ذكرنا فيما سبق ان السلطان المظفر حاجى الذى تولى الحكم (٧٤٧ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ / ١٣٤٨ م) وهو لم يبلغ الحادية عشرة من عمره كان يجتمع بأوباش الناس ، ويلعب معهم بالحمام أيضا ، كما كان يقف معهم ويراهن على الطيور ، بل بلغ به الأمر انه كان اذا لعب معهم يتعري ويلبس ثيابا من جلد ويصارع معهم .

هوامش الفصل الثاني

(١) هو محمد بن اسماعيل بن موسى عبد الخالق السفطى القوصى الدار والمنشأ والوفاة فتح الدين بن القاضى زين الدين السفطى توفى يقوص سنة ٧١٧ هـ .

(انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٠١) .

(٢) ومضمون هذه اللعبة ان صاحب الترجمة جلس مرة مع جماعة ، يلعبون لعبة ويكتبون ورقا ، فى بعضها صورة شخص صاحب متاع ، وفى اخرى صورة لص ، فاذا حصلت الورقة التى فيها صاحب المتاع يقول : يا جماعة ضاع لى كذا وكذا - ويسمى الاشياء - واريد شخصا أو شخصين - على قدر ما يخطر له - يحضر لى اللص وثم اوراق اخر فيها نقطة ونقطتان فاكثر حسب عدد الجماعة فوضعت الورقة التى لصاحب المتاع له ، ولكنه سكت ونحن نقول له : تكلم فيقول « حتى أبصر شيئا ضاع لى فاقوله ، والا يبقى كذبا وصرنا نقول : هذا لعب لا حقيقة له ، وهو يفكر » .

(٣) المنوروز أو النيروز ، وهو عيد رأس السنة القبطية بمصر اول يوم من توت وقد اختلفت المصادر فى اصله التاريخى ، عنه انظر (المقريزى ، خطط ج١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨) .

(٤) وبهذه اناسبة كتب ورقة للشيخ ابن دقيق العبد وناولها لجاريتها ، فدخلت ثم رجعت اليه وقد كتب الشيخ : « هذا جزاء من ترفع عن أصحابه » .

(٥) الريدانية ، خارج القاهرة وهى العباسية الحالية .

(٦) والمقصود هنا بالعقيقة ، الاحتفال بمرور سبعة أيام على مولد المولود وهى ما يعرف بالسبوع حتى الآن ، وان كان فى المنجد ان العقيقة هى الشاة التى تذبح عن المولود يوم سبوعه عند حلق شعره ، وفى القاموس

المحيط ان العقيقة هي الشاة التي تذبح عند حلق شعر المولود (انظر
المقريزي السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ٤٤٥ ، حاشية/٢) .
(٧) المهم ، هو حفل عقد القران كما جاء في النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ،
ص ١١ ويقصد به هنا حفل الختان .

(٨) روى البخارى ومسلم وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها
قالت : (كنت ألعب بالبنات عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
وكانت تأتينى صواحبى فينقمعن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
وكان يسر بهن فيلعبن معى » والبنات هي التماثيل على صورة البنات أى
العرائس (ابن الاخوة ، معالم القرية ، ص ٩٠) حاشية (١) .

(٩) المقتدر ، (٢٨٢ - ٣٢٠ هـ) جعفر بن احمد بن طلحة ابو الفضل
المقتدر بالله المعتضد بن الموفق ، خليفة عباسى يوبع بعد اخيه المكتفى ٢٩٥ هـ
(ابن الاخوة ، معالم القرية ، ص ٩٠ حاشية ٢) .
(١٠)

فى جزيرة بولاق رأينا عجبا أسد ساروا معهم ظببا
وقال آخر :

امض لبولاق ترى بجزيرة صور وولدان لها تانيق
لى من تحابى وردها نشر زها ولها بقلبى هزة وعلق

(١١) ابن خلكان هو شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن
ابراهيم بن أبى بكر خلكان البرمكى الاربلى ولد بابل ٦٨٠ هـ واقام فى
مصر وباب فى القضاء ثم ولى قضاء الشام عشر سنين .

(١٢) ابن العماد ، شذرات ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .
وسرب ظباء فى غدير تخالهم يدورا بأفق الماء تبدو وتغرب
يقول خليلى والغرام مصاحبى أما لك عن هذى الصصابة مذهب
وفى دمك المطلوب خاضوا كما ترى فقلت له : دعهم يخوضوا ويلعبوا

(١٣) هو اسماعيل بن هبة الله القوصى ، أديب شاعر .

(١٤) الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .
يا شهابى أفسدت صالح ديسنى يامشيبى نغصت لذة عيشنى
فعدوان انما لا صديقى ن تلاعبتما بجملى وطيشنى

(١٥) كانت الدراسة فى الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهرا ، وان
كانت احيانا تمت الى عدة سنين (ماجد ، نظم ، ج ١ ، ص ١٧) .

الفصل الثالث

خيال الظل

تمهيد - منشؤه - خيال المظل عند العرب صفة اللعب بالخيال
- شغف سلاطين المماليك بالخيال - ظهور ابن دانيال - مجتمع
القاهرة - بايات خيال المظل لابن دانيال وبايات أخرى - انتشاره
في عصر المماليك • موقف بعض الحكام من خيال المظل - السلطان
العثماني وخيال المظل - تدهور فن الخيال وازدهار فن القره قوز -
انحسار خيال المظل ونهايته •



لقد بلغت الدمى المتحركة ذروتها في التقدم والتطور عند
العرب فيما بين القرنين الحادي عشر الميلادي والخامس عشر •
ولكن نجد في العهود الإسلامية التي جاءت بعد ذلك أمثلة للعب
الشعبية ، بل نجد في بعض المراجع تصنيفا لشتى اللعب التي كانت
منتشرة عندهم • فيذكر ابن خلدون لعبة الكرج التي كانت منتشرة
أيام بني العباس •

وكما انتشرت اللعب الشعبية المتحركة والألعاب الأخرى
المتنوعة في البلاد العربية ، انتشرت كذلك في مصر وفي سائر
البلدان العربية أيام المماليك لعبة خيال المظل التي تعتمد على تحريك
دمى مصنوعة من الجلد خلف ستار مشدود من القماش يضيقه
مصباح •

وهو من أهم وسائل الترفيه في ذلك الوقت ، وكان يسمى
وقتئذ بشخوص الخيال أو ظل الخيال أو طيف الخيال ، أو مسرح
الدمى (١) ، أو خيال الستار أو ذى الخيال •

ولعل هذه المسميات تشير الى تلك الوسائل التي كان يتوسل بها المخيلون في ممارسة ذلك الفن حيث تتطلب مسرحا . كما يرجع بعضها الى ذلك التشابه بين هذا الفن وما كان يقدم على مسارح الدمى التي كانت شائعة في أوروبا في ذلك الوقت . وكذلك بعض الدمى التي كان يقوم اللاعبون بادراجها خلف الستارة البيضاء . وقد ذكر ان تلك الدمى كانت من الجلود المجففة ذات الألوان المتباينة وتتراوح أطوالها بين ثلاثين وخمسين سنتيمترا .

أما عن منشأ هذه اللعبة ، فيكاد يجمع المؤرخون أن أصلها من لعب الهند القديمة ، ويقول البعض أن أصل نشأتها كانت في الصين ، وانتقلت منها الى البلاد العربية عن طريق الهند وفارس ثم انتقلت الى مصر عن طريق سوريا ومن مصر الى بلاد المغرب العربي .

وعلى أية حال فأيا ما كانت نشأة المخيلين وفنهم فإن الذي لا شك فيه أن هذا الفن قد أصبح على مدى فترة زمنية طويلة من أهم صور الفنون الشعبية كلها وإذا كان خيال الظل قد اعتبره الناس في مصر في أوائل القرن العشرين تسلية شعبية فإنه كان في العصور الوسطى التسلية العامة المفضلة لجميع طبقات المجتمع .

وقد عرف خيال الظل للمرة الأولى - عند العرب - في العصر العباسي وكان مجيئه الى مصر في عصر الفاطميين في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (٢) . حيث عرفت مصر فيه خيال الظل الذي يتوسل بالصورة والضوء معا ويحتاج تبعا لذلك الى مكان محكم حتى يمكن أن يركز الضوء فيه على التمثيل ومع ذلك فقد كان يتسم بنوع من المرونة في الحركة بحيث يمكن أن يؤدي في فناء الدار أو داخل فسطاط معين ، لذلك أصبح قيما بعد من وسائل احياء المواسم وحفلات الزواج والختان وما إليها .

وقد استمر خيال الظل طوال العصرين الأيوبي والمماليكي يمثل وسيلة من أهم وسائل التسلية في مصر حتى فتح السلطان العثماني مصر ، وعندئذ حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى القسطنطينية (استانبول) بعض المخالين .

فقد ذكر المؤرخ المصري ابن اياس في حوادث سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ان السلطان سليم العثماني أحضر في بعض الليالي بمقياس النيل بجزيرة الروضة خيال الظل فلما جلس للفرجة ، قيل ان المخال صنع صفة باب زويلة ، وصفة السلطان طومانباي لما شنق عليه وقطع به الحبل مرتين « فانشرح ابن عثمان لذلك ، وانعم على المخال في تلك الليلة - بثمانين ديناراً ، وخلع عليه قفطاناً مخملاً(٣) مذهباً وقال له : « اذا سافرنا الى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك .

ولكن ابن اياس لم يقطع بتحقيق هذه الرواية وعلق عليها بأنها اشاعة راجت ، ويمكن القول بأن السلطان سليم هو الذي نقل الى اسطنبول الحذاق المهرة في جميع الحرف والصناعات ، قد نقل الى عاصمة ملكه بعض من يحذقون فن خيال الظل كهذا المخال الذي اشارت اليه رواية ابن اياس .

ونفهم من هذه الرواية أن فن الخيال قد أصبح في مصر حرفة وأصبح في استطاعته أن يعبر عن الأحداث التاريخية بحيث لم تكن العروض الظلية في هذا العصر مقصورة على عرض الهزليات اللاهية والمضحكات بل كانت لها أهداف اسمى من ذلك كما ذكرنا من قبل ، مما يقطع بأن فن المخيلة العربية سار زمناً طويلاً حتى اكتمل واكتسب مقوماته .

أما عن صفة اللعب بالخيال فإنه كما سبق أن ذكرنا يتخذ شخوصه من جلود وتحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود

(ستار) فيظهر خيال الدمى فيه حيث يقوم اللاعبون بادر الخيال خلف الستارة البيضاء بواسطة سيقان خشبية يحرك اللاعبون ، يختص بتحريك جميع مايقدم على المسرح من : فى حين يقوم اثنان من اللاعبين بالعزف على آلات موسيقية

أما عن طبيعة المسرح الذى تمثل عليه شخوص الخيال أحمد تيمور وصفا دقيقا له (٤) .

ومن المؤكد انه حدث تطور لمسرح خيال الظل ايام تيم كان عليه منذ أيامه الأولى فى مصر ، على ان هذا المسرح السابق يتمتع بشيء من المرونة بحيث يمكن أن يكون متنقدا مكان لآخر ، خاصة ان فن الخيال قد أصبح فنا شعبيا بحرية تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع (٥) .

والملاحظ ان وصف الخيال لا يذكر لنا شيئا عن اشخوص او دمية الخيال وان ما كان يحدث هو تمثيل غير من خلف ستار ، ولعل ذلك كان يعبر عن مرحلة من مراحل فن الخيال .

ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب تذكرة البنية فى سنة ١٦م حيث جاء فى ترجمة شيخ الكتابة نجم الدين موسى بن ابن محمد الحلبي ثم الدمشقي الشهير بابن البصيص المتوفى ذات السنة انه نظم عن طريق أهل التصوف نظما يذكر فيه ا وهو يشير أن محرك الشخوص يكون واحدا (٦) .

وكان لسلطين المماليك ولع شديد بهذه اللعبة خاصة شاعت الظروف أن يقترب عصر السلطان الظاهر بيبرس باسم شخصية ساهمت فى تأليف تمثليات خيال الظل ، هو محمد دانيال الموصلى المتوفى سنة ١٠٧١هـ / ١٣١١م وقد عرفت تمث

خيال الظل باسم البابات ومقردها بابة وسيأتي الحديث عنها تفصيلا فيما بعد .

أما عن ابن دانيال فهو من أعظم المبرزين فيه فقد نبغ في هذا الدرب من الأدب الشعبي التمثيلي . يأتي أشياء مخترعة ، وصنف طيف الخيال الشاهد له بالمهارة في الفن وله أرجوزة سماها « عقود النظام فيمن ولي مصر من الحكام » وكان يثير النواذر والرواية .

وقد عمل على الارتفاع بمسرح خيال الظل في عصر سلاطين المماليك .

ولد ابن دانيال بأمر الربيعين بالموصل سنة ٦٤٦ - ١٢٣٨م وقضى شبابه بها ودرس القرآن الكريم في كتاتيبها ، وتلقى العلم والأدب في مدارسها وكانت الموصل آنذاك من أمهات العالم الإسلامي علما وثروة ، ولكنه لم يكد يلمس آثار تلك النهضة الثقافية للموصل وينهل من مواردها الفياضة حتى زحفت موجة التتار المدمرة التي قوضت معالمها العمرانية ومآهدها العلمية وطوحت بعلمائها وأدبائها وكان ذلك في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وابن دانيال لم يكن يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، حيث تبدل الحال غير الحال فأصبح نعيمها شقاء وعمرانها خرابا ، وعلمها جهلا وعمت الفتن والأوبئة والمجاعات ، وانعكست حياة الفوضى والاضطرابات على حياة الناس ، فعم الفساد الخلقى والتفكك الاجتماعى بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الأمة الإسلامية .

ففي عام ٦٦٥/١٢٦٧م قصد ابن دانيال مصر مع غيره من الأدباء والمفكرين الذين لقوا العنت في بلادهم وضيقا في معاشهم .

وعندما تصدت القاهرة لموجات التتر وهزمتهم هزيمة منكرة هي موقعة عين جالوت كانت حينئذ ملاذا لكل خائف ، وموتلا لكل

قاصد ، فقصدها الناس من مختلف الاقطار ، واستقر ابن دانيال فى القاهرة وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وهو أميل مايكون الى تحرر الشباب وانطلاقاته وايثار العاطفة الفارغة المسلية على الالتزام الجاد .

ويصور ابن اياس حال مجتمع القاهرة حين قدم ابن دانيال اليه فيقول : فى حوادث سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م « . . وفيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة وأمر باحراقها وأضرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمر وراقها ومنع الحانات من الخواطى واستتاب العلوق واللواطى » (٧) .

وعلى ابن دانيال على ذلك فأورد أشعارا فى بابته « طيف الخيال » يسجل فيه ذلك بأسلوب كله دعابة وخفة ظل .

هكذا نجد ان فى رواية ابن اياس أصدق تصوير لحالة مجتمع القاهرة فى ذلك الوقت ولعل ذلك يرجع الى أن اخلاق الظاهر بيبرس كانت على درجة كبيرة من الحزم والعنف يتنافى معها وجود أنواع الملامى والمسكرات التى كانت موجودة قبله ، فقد وصفه أبو المحاسن فى نجومه بأنه « كان يحب أن يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته ، حتى لم يخف عليه من أحوالهم شيء » .

ولعل شجاعة الظاهر بيبرس كانت صفته البارزة المميزة وهى الصفة التى جعلت المعاصرين يعجبون به وبشخصيته ، ويجعلون منه بطلا يتناقلون سيرته ويرددونها دائما دون ملل أو سأم ، وزاد من هذا الاحساس انه ظهر فى وقت كان المسلمون فيه أشد الناس حاجة الى زعيم شجاع له القدرة على مواجهة خطر الصليبيين من ناحية وخطر المغول من ناحية أخرى .

فقد كان الظاهر بيبرس حاكما شجاعا ، قائدا مجاهدا ،
مرابطا وقد جاءت سيرته في الأدب الشعبي ، لتصور ذلك السلطان
في الصورة التي أحب الشعب العربي ان يراه عليها ، فجعلت منه
البطل المخلص .

ويصور لنا ابن دانيال كذلك حال مصر بعد هجرته من
الموصل فيذكر انه وجد مواطن الأنس دارسة ، وسمع بقصة المصلوب
ابن الكازروني وذكر ايضا اعتذار صديقه اليه لتقصيره في
الاکرام ، اذ لم يأت به بالمدام وقال له « قد غلب ظني أن ابا حرة قد مات
ورعد من الرفات ، قم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه » .

يقول ابن دانيال « لما قدمت من الموصل الحدياء الى الديار
المصرية في الدولة الظاهرية ، سقى الله عهدا ، وأعذب في الجنان
بوردها وجدت تلك الرسوم دارسة ، ومواطن أنسها غير أنسة ،
عافية الآثار ، ساقطة الحد بالعثار وقد هزم أمر السلطان ، جيش
الشیطان . . وتولى الخوان والى القاهرة ، اوراق الخمر واحراق
الحشيش ، وتبيد المزور ، واستتاب العلوق ، واللواطى ، وحجر
البغاة والخواطى ، وشاعت بذلك الأخبار ووقع الإنكار ، واختفى
المطول فى الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذية وصلب ابن الكازروني
وفى رقبته نيازية » . .

وجاء قول ابن دانيال مطابقا الى حد كبير لما ذكره ابن اياس
وهو ما سبقت الاشارة اليه .

أضف الى ذلك فقد كانت الحالة الاقتصادية لمجتمع القاهرة
ابان قدوم ابن دانيال اليها سيئة للغاية بسبب نقص خخير فى فيضان
النيل فارتبكت الحياة الاقتصادية وتزعزعت حالة الأسواق ورتب
على هذا أو ذاك ارتفاع الأسعار وانتشار الجوع بين الناس .

وفى ظل هذه الظروف نزح ابن دانيال الى القاهرة فاستغل
أهم ما فيها من وسائل الترفيه وأبدع فيها وهو فن خيال الظل مصورا
فى باباته كل ما كانت تعانيه البلاد فى وقته ، فان ابن اياس قد
وصف ابن دانيال هذا بأنه كان شاعرا ماهرا وله شعر جيد فمن
ذلك ما قاله عن نفسه وعن حرفته الأولى وهى الكحالة (٨) .

ولعل ذلك يصور لنا طورا من أطوار حياته الأولى فى مصر
الذى اتسم بالفاقة وقلّة المورد حين نراه يندب حظه مستغلا الفاظا
قريبة من العامية فى اغلب الأحيان .

وليس هناك مجال للشك فى أن الذى خلد ذكر ابن دانيال
هو تفوقه فى فنه التمثيلى فكانت له اليد الطولى فيه ، فهو الذى
يصنع الرواية ويكتبها وينظم الأصوات ويلحنها ويعين الأزياء
المناسبة ، وكل ما يحتاج اليه التمثيل ويشترك بنفسه فى العرض ،
فكان هو الكاتب والناظم والمغنى والمخرج والممثل فاجاد وأبدع .

ورغم أن كثيرا مما كتبه هذا الأديب قد تناولته ايدى البلى
فقد وصل الينا من آثاره ثلاث روايات أو بابيات أو لعب منها نسخة
فى دار الكتب المصرية بعنوان « طيف الخيال » (٩) .

وقد حظيت تلك المخطوطات باهتمام كبير من كثير من ادباء
العالم العربى حيث قاموا بنشر بعضها (١٠) . كما قام بعضهم
بتحقيق هذه البابيات الثلاث ونشرها .

وتشير بعض المراجع الى وجود بعض الرسوم التى كانت
مستعملة فى تمثيلات خيال الظل من بينها واحدة من الجلد محفوظة
بالقسم الاسلامى من متاحف الدولة ببرلين وتنسب الى العصر
الملوكى كما يشير نفس المرجع الى وجود رسم آخر محفوظ فى نفس

المتحف وهو يمثل فارسا ممن يصيدون بالصقر مصنوعا من الجلد
المخرم ، حتى يمكن تحريكه منها حسب الحوار .

وقد انصرف ابن دانيال الى مهنة المخايلة وقرض الشعر ،
وغشيان مجالات اللهو والضحك ، يفرق فيها أشجان روحه
واحساسه الخفى بالضياح . فقد جمع فترة من الزمن بين مزاوله
الكحالة لبعض النهار ثم ينصرف بعدها الى اللعب بخيال الظل والى
هوايته الأدبية فى بعضه الآخر وشطر من الليل .

ولم يستمر ابن دانيال على هذه الحال مدة طويلة ان ذاع
ضيته بين الناس وشاع ، وسعى الى التعرف به كبار رجال الدولة
وكثرت عليه الانعامات والهبات حتى تحسنت حاله ، واتخذوه نديما
لهم ، يطرفهم بفكاهاته ونكاته وشعره التحامقى ، وأصبح لابن
دانيال راتب من المديوان من لحم وعليق .

وقد كان ابن دانيال مؤملا لهذا النجاح ، وتلك الشهرة
السريعة فقد كانت نفسه تنطوى على ظرف ، وخفة روح .

ويمكن القول انه ماكان لابن دانيال ان تكون له هذه المنزلة
فى نفوس الحكام والمحكومين ، وما كان لينجح هذا النجاح فيذيع
صيته ويشتهر امره بين الناس لولا ان الشعب المصرى شعب مرح
بطبعه ، محب للفكاهة والدعابة ميال الى الأخذ بأسباب الترفيه
والتسلية والترويح عن النفس على الرغم من المتاعب والأزمات
التي تعرض لها عامة الناس فى عصر المماليك .

فكان ابن دانيال هو النبتة الحية التى صادفت تربة خصبة
صالحة رغم ما يعتليها من أحجار فتوغلت جذورها حتى نمت
وازدهرت فأصبحت دوحة هائلة تظل الناس وسط بداء شاسعة
يساعد على ذلك تلك الروح المصرية الفكهة التى كانت فى أوجها ،

فلم تتسع تلك الروح في عصر كما اتسعت في عصر المماليك ، إذ فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية ، وخذ المصريون الى حالة من الرخاء ، انتشرت فيه فنون من اللهو واللعب ، وتفجرت بفاييع الفكاهة في انفسهم .

ومما لا شك فيه كما سبق ان اشرنا ان الذى خلد ذكر ابن دانيال هو تفوقه في فنه التمثيلى ، فاذا كان شعره قد ضاع اكثره ، ولم يبق منه الا بعض المقطوعات التى سجلها المترجمون له ، فان أدبه التمثيلى لا يزال حيا في نماذج متكاملة او مقارنة للصورة التى رسمها ، حتى قيل ان أروع ما ابقاه لنا التاريخ من تمثيلات « خيال الظل » هو ماكتبه ابن دانيال ، في القرن السابع الهجرى فى كتابه ظيف الخيال ، فلم يبق من الشعر التمثيلى العربى في القرون الوسطى على الاطلاق الا تمثيلات ابن دانيال .

والروايات الدانيالية الثلاث هي :

البابة الأولى :

ظيف الخيال :

وهى من أبداع البابات الثلاث بل يعتبرها البعض أبداع مسرحية في تاريخ خيال الظل المصرى . فهى تعكس صورة مجسمة من واقع الحياة المصرية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى بكل ما فيها من تقاليد وعادات ، وتحكيها بأسلوب ذلك العصر .

وبرغم ان اطار هذه البابة - كغيرها - هو الاطار الفكاهى المرح فانها تصور نقدا سياسيا لانعا لحدث مشهور فى تلك الفترة ، وهو استقدام الأمير ابى العباس أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى

من بغداد الى مصر واحتفاء الملك الظاهر بيبرس به . وبطل هذه
البابة هو الأمير وصال ، وهو الصورة الساخرة لذلك الأمير
العباسي .

وهذه البابة الدانيالية الأولى من ألوان الكوميديا المسماة
بالقارس أى المهزلة . واحداثها تتابع متسلسلة حتى تؤدي دورها
فى خلق الموقف الضاحك فى خلال مراحل البابة ، كما تؤدي الى
النهاية المريحة لموضوع القصة .

البابة الثانية :

عجيب وغريب :

يعتبر البعض هذه البابة احدى الوثائق التاريخية الصالحة
ومن الشواهد الحيوية الصادقة ، التى تصور جانبا اجتماعيا فى
عصر من أهم عصورنا الماضية فهى بمثابة سجلات فنية شعبية لمجتمعنا
ونفسيته ، ومنهج تفكيره وطرائق عيشه ومسالك خبراته ، مما يهتم
باحث التاريخ والاجتماع ونحوهما ، لأنها تبرز ناحية من نواحي
حياة الشعب قلما يقع نظر الباحث عليها فى كتب التاريخ فقد صاغ
ابن دانيال اللغة الدارجة والمعانى المتداولة بين اشخاص من عامة
الشعب فى أسلوب عربى ، وتناول كل تلك المعانى الشعبية وعبر
عنها بالفاظ تنم عن غزارة مادته اللغوية وثروته الأدبية .

وبالرجوع الى هذه البابة نجد انها ليست تمثيلية كاملة
العناصر لها موضوع معين ، وانما هى مجموعة من المواقف أو
الاستعراضات الفكاهية تعرضها مجموعة عجيبة من ذوى الحرف
الغريبة ممن كانوا يجولون فى الأسواق والموائد والحفلات العامة ،
فهى تعرض حوالى سبع وعشرين شخصية (١١) من هذه
الشخصيات حسب الظهور فى المسرحية :

غريب الصائى وشجيب الدين اليعظ ، وحويس الحساوى
وعسلىة المعاجينى ، وهلال المنجم ، وعواد الشردماط ، وشسبل
السباع ، ومبارك الفيال ، وأبو العجب صاحب الجدى ، والصائعة
وأبو القطط ، وزغبر الكابى ، وأبو الوحش ، وناتو السودانى ،
وشدقم البلاغ صاحب الرمح والسيف ، وميمون القراد ، ووثناب
المبختيارى صاحب الحبال والصوارى ، وجراح المنبل ، وحمسال
المشاعل ، وعساف الحاوى براحلته ، وغريب . .

واستطاع ابن دانيال بمهارة ان يقدم وصفا دقيقا لهذه
الشخصيات من حيث الحركة أو طريقة الحديث والتخاطب واختياره
لكل شخصية مايناسبها من الحوار وينتقى لها خصائصها من القول
والفعل والمصطلح ، كما اختار لكل شخصية اسما غريبا مضحكا
مشتقا من طبيعة المهنة التى تمتهنها أو منطبقا على أوصافها
الجسمية الطبيعية والشألة ، وهو أسلوب مازال معمولا به فى
بعض المسرحيات الكوميديية الهابطة التى تشتمل على شخصيات
تحمل أسماء غريبة بقصد الاضحاك .

وهذه المواقف الخفيفة لبابة عجيب وغريب قد تنعدم الرابطة
الموضوعية بينها ، لكن يمكن القول بان هناك رابطة واحدة بين هذه
المواقف ، وهى اتفاقها جميعا فى اظهار ناحية من نواحي المجتمع
المصرى فى القرن السابع الهجرى ، كما ان هذه البابة وان بعدت
عن التقاليد المسرحية فانها تستحق منا وقفة اعجاب لذلك المؤلف
والمصور البارع الذى تأمل المجتمع حوله فوجد الفساد بين طبقات
الشعب ، ورأى المحتالين يبتزون أروال الجمهور السذج بطريقتهم
الخاصة ، فصور ذلك كله وجسم حيلهم أمام الجمهور حتى يظهرهم
على حقيقتهم ، وقد استغل ما عرف به من سخريية وفكاهة وقدره
على النظم والنثر فى تصوير ذلك كله كأنه مصلح اجتماعى يبرز
ما فى المجتمع من عيوب .

ولعل ذلك هو ما يضيف على بابات ابن دانيال قيمة اجتماعية مهمة في عصر الماليك خاصة ان مهنته الأولى وهى مهنة الكحالة بدكان « داخل باب الفتوح » تد اعانته على ان يشاهد عن كثب ، بل ان يخالط نماذج كثيرة من البشر تعج بهم الأحياء الأدله بالسكان .

ثالثا : الباية الثالثة :

ويأتى بعد ذلك دور الحديث عن تالئة روائع ابن دانيال التى سماها « المتيم والضائع اليتيم » وهى تختلف فى موضوعها عن البابتين السابقتين اختلافا كبيرا ، وان اتفقت معهما فى الأسلوب والهزل .

وهناك شك كبير فى صحة انتساب هذه الباية لابن دانيال ، أو على الأقل فانها قد تكون تعرضت لكثير من التحريف حتى خرجت فى مسبتوى هابط ، تعبر عن صورة بشعة من أنواع الشذوذ ، وأخطر مهاوى الانسان ، ويستند أصحاب هذا الرأى الى ان ثمة اختلافات فى نصوص هذه التمثيلية فى المخطوطات التى ذكرتها ، ويؤيدون بذلك وجود الشك فى نسبة التمثيلية برمتها الى ابن دانيال .

ويعزو البعض صحة هذا الشك الى ان الأساليب الهابطة التى وردت بهذه الباية ليست للشيخ ابن دانيال ، لما يكتنفها من مستوى هابط .

ولكن ذلك يمكن الرد عليه بان طبيعة ابن دانيال الساخرة ، كذلك ظروف المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الماليك وما ساه من خلاعة ومجون وميل الى المتع الحسية كل ذلك من شأنه ان يجعل انتاج ابن دانيال وكثيرين غيره (١٢) تغلب عليه تلك الرو-

الفكاهة والاسترسال فى الخلاعة والمجون اللذين طبعت عليهما شاعريته التى اتجهت الى بعث السرور واثارة الضحك والترويح عن النفس بالفكاهة والسخرية معا .

ومادام هذا هو الاطار العام الذى دارت فيه بابات ابن دانيال فلماذا اذن الشك فى نسب تلك الببابة اليه مع ما عرف عنه من الاتجاه فى شعره وتمثلياته الى المجون ؟ ومع ذلك نراه احيانا يستثير الضمير الدينى الأخلاقى والاجتماعى فيؤكد ان حياة اللذة الحسية تضيع صاحبها فى الدنيا والآخرة فنرى ان كلا من باباته الثلاث ختمت بطلب التوبة والانابة وتلك نهاية تعد مئارا للراحة النفسية لدى الجمهور وتتكون شخوص هذه الببابة من شخوص بشرية وشخوص حيوانية وجمادية ، والشخوص البشرية تضم : المتيم ، الذميم ، بابا البيرم والحكم زيهون بالاضافة الى شخصيات اخرى ثانوية .

أما الشخوص الجمادية والحيوانية فتنحصر فى الديوك والكباش والثيران وأدوات المائدة ، حيث استعرض ابن دانيال بعض الألعاب التى كانت شائعة فى عصره .

والجدير بالذكر ان هذه الببابت الظلية الثلاث قد ألفها صاحبها ابن دانيال فى عهد السلطان الظاهر بيبرس كما سبقنا الإشارة بهدف ملء الفراغ الذى استحدثه السلطان بالقضاء على الخلاعة والمجون ، كما اعترف هو بذلك .

وتشير بعض المراجع الى ان هذه الببابت لابن دانيال وجدت فى مخطوط قديم عثر عليه مصادفة وحفظ بمكتبة « أحمد تيمور باشا » ثم انتقل الآن الى دار الكتب المصرية ، ووجدت نسختان أخريان من هذا المخطوط احدهما بمكتبة الأسكوريال بالأندلس ، واخرى بمكتبة استانبول بتركيا .

ويذكر بعض الباحثين في تاريخ الأدب الشعبي ، ان هذه المخطوطات الثلاث كتبها رجال أساءوا فهم أصول هذه التمثيليات ، خاصة أن تدوينها قد تم بعد وفاة ابن دانيال بزمن طويل .

وقد يكون ذلك سببا فيما حدث بالنسبة لبعض التمثيليات الدانيالية من تغيير أو تحوير مما دفع البعض الى الشك في نسب إحدى التمثيليات الى ابن دانيال كما سبقت الإشارة الى ذلك .

ولم تكن بابات ابن دانيال هي الوحيدة التي تمثل بواسطة خيال الظل ابان عصر سلاطين المماليك ، بل كان هناك العديد من التمثيليات التي كانت تقدم على مسارح خيال الظل وتتناول موضوعات على مستوى أرفع من الموضوعات التي تناولتها تمثيليات ابن دانيال ، ولكن لم يستطع الحصول عليها ويرجع البعض ذلك الى انها إما ان تكون منقودة وإما انها لاتزال محفوظة في المكتبات الخاصة ، كما قد يرجع لاختفاء بعض النصوص الظلية الى انقراض اللاعبين الذين كانوا يحفظونها ، ويتبادلونها بينهم مشافهة .

ومما لاشك فيه أن الويلات التي أصابت بلاد العرب ، طوحت بكثير من تراثه الخالد ، كما أن اللغة التي كان يستعملها أرباب الخيال لاتخلو من مجون وخلاعة ، ولذا تحاشاها رجال الدين وزهدوا فيها ، فتركها الناس وكان نصيبها الإهمال والتلف .

وقد انتشر خيال الظل انتشارا واسعا بين الأوساط الشعبية في مصر ابان عصر المماليك ، حتى أصبحت العروض الظلية تقدم في معظم الأفراح وحفلات الزواج ، كما كانت تقدم في المقاهي الشعبية .

وتدور معظم هذه الببائات حول نقد المظالم التي كانت تعترض الحياة الاجتماعية المصرية ، أو تدور حول الدعوة لكراهية الأعداء

ومهاجمتهم والانتصار عليهم . ولم تذع هذه الببابة ربما لأن موضوعها هو السخرية من جماعة العلماء الذين كانوا يكونون طبقة خاصة من المجتمع المصرى وعرفوا بأصحاب العمامة ، تمييزا لهم عن الطبقات الاجتماعية الأخرى ، وكان يحترمها الشعب المصرى ويتخذ منها ملجأ وحاميا أمام طغيان المماليك وظلمهم ، فسخرية المؤلف من هذه الطبقة جعلت الناس ينفرون منها ولا يقبلون عليها .

ويدل رفض الشعب المصرى لهذه الببابة المناجزة التى تسمى إلى طبقة العلماء ، على سلامة حس الشعب وقدرته . وما دام الحديث يتناول تمثيلات خيال الظل التى كانت نتاجا أدبيا لمحترفى فن الخيال أبان عصر سلاطين المماليك فتجدر الإشارة إلى عدة تمثيلات أخرى ظهرت بعد هذا العصر وتوسل بها فن خيال الظل في عروضه الجماهيرية .

ونذكر من هذه التمثيلات ما ذكره احمد تيمور في كتابه خيال الظل واللعب والتماثيل عند العرب وفيه يتحدث عن « صفة اللعب بالخيال » ويذكر المراجع القديمة والحديثة التى ذكرته وعرفت به وأرخت له ، ويسجل طرائف مما قيل فيه ، وفي لاعبيه ، ومحببيه . ثم يسجل ملخصات دقيقة وافيه لاثنتى عشرة قصة من قصصه الرائعة منذ أول العهد بخيال الظل بين الفنون المستحدثة إلى العهد الذى لحقها فيه (١٣) .

وعن جمهور خيال الظل في عصر سلاطين المماليك كوسيلة من وسائل الترفيه فى ذلك العصر ، فقد انتشر هذا الفن انتشارا هائلا بين الأوساط الشعبية مما ساعد على ترويح رسالته لوصولها إلى أكبر قطاع ممكن من جمهرة الشعب الذى وجد فى المخالصة تبهيرا عما بنفسه وعما حوله ، فقد كانت طبيعة حياة هؤلاء

المخيلين واحتكاكهم الشديد بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، ومعاناتهم لمشكلاته وآلامه ، وكذلك قربهم من الطبقة الفقيرة فى البلاد ، واحساسهم بما تعانيه ، بل مشاركتهم هذه المعاناة .

كل هذه عناصر أساسية طبعت انتاجهم الأدبى بلون خاص وجعلتهم ينفرون من المشاكل الذهنية المجردة ، لينقلوا بعد ذلك فى مسرحياتهم ما يريدون من حياة وحرارة ، وليعالجوا فيها مشكلات واقعية لاتخلو من وخزات نقدية للمعاداة والأوضاع العامة ، ولا من التلميحات والتوريات السياسية اللاذعة ، كل ذلك فى اطار فكاهى مرح يعرضه المخيلون امام النظارة لقاء أجر معلوم .

وقام فن خيال الظل بدوره الأساسى فى التسلية والترفيه ، فاقبعت العروض الظلية فى المواسم والموائد ، وفى معظم الأفراح وحفلات الزواج كما كانت تقدم فى المقاهى الشعبية ، حيث يلتقى بروادها الذين كانوا يشكلون جمهورا على قدر من التجربة والنضج وكانوا يحبون أن ينقدهم خيال الظل ، فكانما استقر فى النفوس أن هذا الفن لايد أن ينقد كل الناس ، وكل الطبقات ، فهم يقبلون النقد وان كان جارحا .

ولم تكن تمثيلات خيال الظل تسلية للطبقات الدنيا فحسب بل كانت تعرض على الكبراء كذلك ، تنقل اليهم ، ولاينتقلون اليها .

فقد كان عليا القوم وأثريائهم فى أول الأمر يستقدمون المخيلين فى مناسبات عديدة ، ليقوموا بالترفيه عن مدعويهم .

ورغم ماتميز به هذا الفن من شعبية فلم يصبح نشاطه مقصورا على الترفيه عن العامة بموضوعات من الجد أو الهزل ، بل ظل المخاياون يغزون قصور الحكام والأعيان فى الريف والمدن على السواء خاصة فى ليالى رمضان .

وقد كان السلطان الناصر حسن يتسلى بمشاهدة خيال الظل ويدعوه اليه ويصحبته الأمراء ، ويقول ابن اياس فى حوادث سنة ٧٦٢هـ فى المحرم « عدى السلطان وتوجه الى نحو كوم برا ، وكان زمن الربيع ٠٠ فلما توجه السلطان الى كوم برا ، طابت له الإقامة هناك ، فأقام بها نحو ثلاثة أشهر ، وكان بالقاهرة أوخام وأوباء مع أمراض شديدة بالناس ، فاستمر مقيماً هناك وهو فى ارغد عيش وكان فى كل ليلة يحضر عنده مغان عرب ، وخيال ظل ، ويحرق حراقات نפט ، وكانت الأمراء تتوجه الى هناك ، وتعطى الخدمة للسلطان فى كل يوم اثنين وخميس ٠٠

كما حرص السلطان الأشرف شعبان أن يحمل معه عدة من أرياب الملامى والمخايلين لما حج فى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م مع ما حمله من الملامى .

ويمكن القول - استقراء لكتب التاريخ والأدب التى تناولت عصر سلاطين المماليك بالدراسة - بأن موقف الحكام من خيال الظل كان يختلف من حاكم الى آخر ، فمنهم من كان يبيعه ويشجعه ، ومنهم من كان يتركه ولا يمنعه كذلك كان منهم من يحاربه ويحرمه ويأمر بأحراق عرائسه ويأخذ على لاعبيه العهود بالألا يعودوا الى ممارسته ، فقد ذكر السخاوى فى التبر المسبوك أن الظاهر جقمق أمر فى سنة ٨٥٥هـ - ١٤٥١م بإبطال اللعب بخيال الظل ، وأحراق شيوخه وكتب على اللاعبين العهود بالألا يعودوا اليه .

ولعله فعل ذلك لما كان يقع من مجتمعاته من مفاسد ، حتى أن البعض يذكر أن لاعبي ولاعبات خيال الظل أنفسهم كانوا - فى ذلك الوقت - من أخط الناس خلقاً ، وكان الشذوذ الجنسى متفشياً بين

الملاعبين من الرجال ، حتى لقد كان لهم معجبون من الشـوان ،
يشغفون بهم حبا ويغدقون عليهم الأموال ، بل كان الشعراء من
هؤلاء المعجبين الشوان ينظمون القصائد فى الغزل الفاحش بهؤلاء
الملاعبين والملاعبات(١٤) .

ورغم هذا فإنه يجب علينا الانساق وراء ذلك الرأى كلية فان
فى ذلك الاتهام لأصحاب الخيال قسوة وتعميما ، وهو أمر لايجوز
أن يقع فيه باحث مدقق ومعلوم ان أمر بعض السلاطين بابطال
اللعب بالخيال - السلطان جقمق - لم يكن لسقوط هذا الفن فى
هاوية خلقية فحسب بل ان الدافع الرئيسى لذلك هو أن السخرية
والنقد قد تجاوزا الحدود المقررة عند الحكام ، فقد اصطنعت بابات
هذا الفن رموزا تثير السخرية والضحك فى نفوس الجماهير بن
السلطان وحاشيته .

فقد كان هذا الفن يتصدى فى كثير من مواقفه للنواحي
السياسية والاجتماعية ولايكتفى بمواقف الضحك التى يثيرها بين
جمهوره كما سبقت الاشارة الى ذلك .

وكان الأمراء شغوفين بمشاهدة عروض خيال الظل فى
مناسبات عدة وكانوا يسمحون للناس بمشاركتهم فى ذلك ، فلا
يملون الفرجة على هذا الفن وغيره من الملهى فى كل ليلة لأيام
طويلة متواصلة ، فيذكر أنه فى ربيع الآخر عام ٨٩٩هـ اختار
السلطان قايتباى الأمير ماماي بن خداد الدوادار الثانى رسولا الى
ملك بنى عثمان فأخذ ماماي يستعد للرحيل ، وكانت توقد له كل
ليلة بناحية بركة الرطلى وقدة حافلة يمثل فيها خيال الظل أو يغنى
بعض من مغنى العرب أو ابن رحاب المغنى أو يتفكهون بالعباب رنكات
فرقة المحبطين ، وكان رئيس المحبطين فى عهده هو محمد الرئيس

فتات العنبر ، وكان استاذا في صنعة الخيال وفساق في ذلك
« بريوه » (١٥) .

ولندع ابن اياس يحدثنا في ذلك فيقول « وكان يعمل في كل
ليلة خيال ظل أو مغاني عرب ، أو ابن رحاب المغنى أو غير ذلك
من الملاحى ، وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج
الناس فى ذلك عن الحد وأقاموا على ذلك نحو من عشرين يوما
ثم سافه الامير ماماي وخرج فى تجمل زائد وموكب حافل ، فترجه
الى بلاد ابن عثمان » .

وفى ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ نزل السلطان الناصر محمد بن
قايتباى من القلعة واتجه نحو القناطر العشر ، فعدى الى بر
الجيزة ، ومعه اولاد عمه قيت وهما جانم وأخوه جانى بك وعسند
من الخاصكية ، وقد سبق هذا الجمع الخدم والطهاة ، فضربوا لهم
وطاقا هناك حيث أقاموا ثلاثة أيام ، واستدعى لايناس السلطان
ومن معه « أبو الخير » ومعه « خيال الظل » وجوق المغانى العرب
و « بريوة ريس المحبطين ، وقد خرج عن الحد فى اللهو والخلاعة
والانشراح » .

وهكذا استمر خيال الظل طوال عصر سلاطين المماليك من
أهم وسائلهم فى الترفيه ، بل كان تسلية عامة لجميع طبقات
المجتمع التى استمتعت بهذا الفن وتجاوبت معه بدرجة كبيرة فكان
ذلك عاملا من أهم عوامل ازدهاره ورواجه فى ذلك الوقت .
والجدير بالذكر أن حفلات خيال الظل كانت تقام فى الساعات الأولى
من الليل أى بعد المغرب بقليل ، كما كانت تقام فى الأحياء لحياء
ليالى رمضان أو بعض الأعياد الأخرى وبعض المناسبات السعيدة
كحفلات الختان .

وتزامن مع فن خيال الظل خاصة فى الفترة الاخيرة فن شعبى
آخر شاع بين الناس باسم الأراجوز ، أو قرقوز .

ونميل الى الراى القائل بانها فى الأصل كلمة تركية خاصة
ان هذا الفن كان قد انتشر فى تركيا من قبل .

وتجدر الاشارة ولو فى عجلة سريعة الى هذا الفن باعتباره
فنا تزامن مع فن خيال الظل فترة فى أواخر عصر سلاطين المماليك
وهو يمثل بواسطة دمي من الخشب أو الجص متحركة الأعضاء ،
وهى تتحرك بواسطة خيوط تشد الى أسفل المنضدة الموضوعة
عليها تلك الدمى ويصاحب حركاتها حوار يلقيه صاحب القره قوز
الذى ينغم صوته تبعا لمقتضيات الموقف .

وتلك الدمى المستخدمة فى القره قوز تختلف فى خصائصها
عن دمي خيال الظل فهى تصنع على شكل مماثل للشكل الأسطواني
للجسم وليست رقائق مسطحة من الجلد أو الخشب أو الورق
المقوى أو غيره مما تصنع منه دمي خيال لتمثل قطاعا جانبيا
أو اماميا للجسم وتصمم لهذه الدمى ملابس مختلفة مما ترتدى
مثيلا الشخصيات الحية التى تحاكيها ويغلب ان يصمم الوجه فى
وضع تعبيرى يدل على أعماق خصائص الشخصية التى تمثلها
الدمية .

وسواء كانت هذه الخصائص واقعية أو رمزية فان تركيب
الوجه كان يعبر فى العادة عن ملامح مضحكة مدعاة للسخرية
فعند تصميم وجه الدمية التى تمثل شخصية الجندى الملوكى أو
التركى - وكان شخصية مكروهة جدا من المصريين - كان يراعى أن
يكون قفاه عريضا ليبدل على شدة غبائه وبطشه ، وتنهال على
هذا القفا العريض صفعات الأراجوز وغيره من شخصيات
التمثيلية .

وواضح من هذا أثر كراهية الشعب لحكامه فى ذلك الزمن
وسخريته منهم ومقاومتهم بهذا الأسلوب المصرى الأخاذ .

وفن الأراجوز اقرب الى التهريج الشعبى من فن خيال الظل
كما يبدو أن تمثلياته مرتجلة يبعثها الموقف والمناسبة نفسها أو
محفوظة يتناقلها القائمون بهذا الفن شفاهاً ولم يكن يقصد بها
الا التسلية والترفيه فى المقام الأول ولذلك لا يظن انه قد دون منها
شئ أو ألفت فيها تمثليات تكون كل منها وحدة متماسكة كما فى
بابات خيال الظل .

ورغم شيوع فن القره قوز وانتشاره فان خيال الظل لم يتوقف
ولم ينحسر كلية أو اخر عصر سلاطين المماليك ، ولكنه استمر
بصورة أو بأخرى حتى اوائل القرن الرابع عشر الهجرى فكان
لا يزال للناس شغف بالخيال فى مصر وكانت له سوق رائجة فى
الأعراس ، وقل ان يقام عرس لايلعب فيه الخيال .

هوامش الفصل الثالث

(١) احمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب
ص ١٧ .

احمد عبد الرازق وآخرون : دراسات فى الحضارة الاسلامية -
المجلد الاول ص ٩٣ ويشير المؤلف الى ان المستشرق الالماني جورج جاكوب
قد عنى بدراسة هذه اللعبة فوقف على طبع اجزاء من كتاب طيف الخيال
لابن دانيال الموصلى وكتب فى خيال الظل كتبا ومباحث جاء بيانها فى
المبحث الذى كتبه ليتمان فى مجلة الجمعية الشرقية الالمانية . انظر :
E.L. Hmann. Z. M6, Band 91 — Heft 2, (1937). PP. 486 — 500.

(٢) ويذكر شوقى ضيف ان مصر والشعوب الاسلامية قد عرفت خيال
الظل منذ القرن السادس للهجرة .
(انظر شوقى ضيف ، الفكاهة فى مصر ص ٦٤) .

(٣) القنطان محرف عن لفظه التركى (قنستان) وهو فى الفارسية
(خفتان) والمخمل اى ذو الوبر المعروف الآن بالمقطيفة .
(انظر احمد تيمور ، خيال الظل حاشية ٢ ، ص ٢٣) .

(٤) يتخذون له بيتا مربعيا يقام بروافد من الخشب ويكسى
بالمخيش او نحوه من الجهات الثلاث ، ويسدل على الوجه الرابع ستر ابيض
يشد من جهاته الاربع شدا محكما على الاخشاب ، وفيه يكون ظهور
الشخص ، فاذا اظلم الليل ودخل اللاعبون هذا البيت ، ويكونون خمسة
فى العادة منهم غلام يقلد النساء واخر حسن الصوت للغناء ، فاذا ارادوا
اللعب ، اشعلوا نارا قوامها القطن والزيت تكون بين ايدى اللاعبين ، اى
بينهم وبين الشخص ، ويحرك الشخص بعودين دقيقين من خشب الزان ،

يمسك اللاعب كل واحد بيد ، فيحرك بهما الشخص على ما يريد ، وتتخذ الشخص من جلود البقر ، بحيث اذا عرضت : « الصور » أمام ضوء النار المشتعلة ظهرت زاهية بهية لشقوف تلك الجلود .

(انظر ، احمد تيمور ، خيال الظل ، ص ١٩ ، ٢٠) .

(٥) وهناك وصف اخر لخيال الظل يوضح انه كانت « تنصب ستارة ويوقد خلفها (على بعد معين) مصباح ثم يقف بين المصباح والستارة شخصان يقومان بحركات مضحكة (ويكون جانب القاعة الذي يجلس فيه النظارة مظلمًا ، فيظهر خيال النخصين وما يقومان به أشباحًا تتحرك على الستارة » .
(انظر ، عمر فروخ ، تاريخ الادب ، ج ٣ ، ص ٦١٨) .

(٦) الحسن بن عمر بن الحسن ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ج ٢ ص ٧٦ حيث يقول :

الكون عندي كالخيال
ان كنت تنظر غيره
ل محرك الاشخاص واحد
ما أنت من حزب الامجد
(٧) ومما قاله في ذلك :

لقد كان حد السكر من قبل صلابه
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى
خفيف الاذى اذ كان في شرعنا جلدا
الا تب فان الحد قد جاوز الحدا
(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٠٤) .

(٨) حيث يقول :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى
ما حال من درهت انفاقته
وضيعتى فيهم وافلاسى
ياخذة من اعين النباس
وقوله :

ما عانيت عيناى فى عطلتى
قمت بعنت عبتى وحمارى معنا
اقتل من حظى ولا بخستى
واهتبخت لا فوقى ولا تحستى

(٩) مخطوط = طيف الخيال : تأليف شمس الدين ابن عبد الله مجيد بن دانيال (دار الكتب - ٢٥٥٦ ادب) .

(١٠) - قام تقى الدين الهلالي سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨م بنشر بعض المخطوطات التى تتضمن بابات ابن دانيال وطبعها بمطبعة الاعتماد ببغداد .

(١١) تختلف المخطوطات في تحديد عدد شخوص هذه البسابة ففي النسخة المصرية سبعة وعشرون شخصا بينما في النسختين الاخريين خمسة وعشرون شخصا فقط .

(١٢) منهم على سبيل المثال :

ابن سودون : هو نور الدين ابو الحسن على بن سودون العلانى البشباغوى . ولد فى القاهرة ٨١٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٨٦٨ هـ .

(انظر ، الضوء اللامع للسخاوى ج٥ ، ص ٢٢٥) .

(١٣) وهذه القصص الاثنتا عشرة اطلق عليها لعبا ومفردا « لعبة » وهى : لعبة علم وتعازير ، ولعبة الاولانى ، ولعبة التمساح ، ولعبة ابى جعفر ، ولعبة الشونى اى لعبة المركب ، ولعبة الحجية - اى السفر الى الحج - ولعبة الحمام وكذلك لعبة التياترو ، وهناك ايضا لعبة القهوة ، ولعبة الشيخ سمس او شمس ولعبة العجائب ، ولعبة حرب السودان .

(انظر احمد تيمور ، خيال الظل والتماثيل المصورة عند العرب ص ٢٠ وما بعدها) .

(١٤) ويقول : احمد تيمور نقلا عن صلاح المدين بن ابيك الصفدى انه قال فى ملىح مخايل :

هويت خيالبا حكى الغصن قده
اراق دم العشاق سيف جفونه

وقال فيه ايضا .

مخايل قد بدت عليه
تريسك باباقه فنونسا
مخايل البدر فى الكمال
تروق فى الحسن والجمال
احسن ما كان فى الخيال
فقد غدا وصله يقينسا

(انظر احمد تيمور ، خيال المظل ، ص ٢٢) .

(١٥) بريوة ، هو احد رؤساء فرقة المحبطين .



الخاتمة

تنوعت وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر بدرجة كبيرة نتيجة لظروف المجتمع المصري في ذلك الوقت وطبيعة نشأة المماليك الذين أغرامهم غنى مصر خاصة في أول عصرهم بالتفنن في الاستمتاع بمباهج الحياة سلاطين وأمراء ومن يدور في فلکهم • وعرف عن المماليك بحكم نشأتهم انهم كانوا يميلون عن الشعب ويعتبرون أنفسهم طبقة مميزة لها من الحقوق ما ليس لأفراد الشعب •

ورغم ذلك فقد وجدت وسائل ترفيهية استمتع بها العامة من الشعب وان كان دورهم في ذلك سلبيًا اقتصر على كونهم متفرجين ومشاهدين الا فيما يتناسب مع قدرهم وقدرتهم من وسائل الترفيه الشعبية غير المكلفة والتي لا تتطلب امكانيات وأدوات ضرورية لممارستها يعجز الكثيرون عن تدبيرها •

ولعله بات من الواضح أن وسائل الترفيه في ذلك العصر يمكن تقسيمها الى وسائل جادة تمثلت في أنواع من المجالس كمجالس العلم والوعظ والأدب والالعب الرياضية التي كان منها بالضرورة الفروسية والرماية وهي تتفق مع طبيعة المماليك في كونهم غرسانا مغاوير جريًا وسلمًا وان كانت هذه الرياضة في الغالب الأعم رياضة

أرستقراطية فلم نستدل على ان احدا من العامة كانت له مشاركة ايجابية في هذا المجال حيث كان يحرم على طبقات معينة من الشعب ركوب الخيل أو حتى اقتناؤها .

ومن أهم وسائل الترفيه كذلك سرحات الصيد التي أصبحت مواكبها من مراسم الدولة المملوكية وعلى امتداد العصر خرج السلاطين في سرحات للصيد الى كثير من مواضعه من أرض مصر ، وكذا شارك السلاطين والأمراء في رياضة لعب الكرة (البولو) وكانت تلعب من فوق ظهور الخيل وأصبحت من أهم الرياضات حتى اتخذت أدواتها وهي عصا البولو شعاعا يرسم على رنوك بعض الأمراء . وكانت البولو لعبة أرستقراطية ففي الغالب لم تكن تمارس الا من جانب السلاطين والأمراء والفرسان وكان دور الشعب فيها محدودا يقتصر على كونه جمهورا متفرجا .

هذا الى جانب مجالس اخرى تتصل بالشراب والطرب واللهو وقد انهمك غالبية السلاطين المماليك والأمراء في تعساني هذه المجالس وتنوعت أسباب الترفيه غناء وموسيقى ورقصا ، فازدهر فن الغناء في ذلك العصر حتى أصبح يعد من أزهى العصور طربا وكثر فيه المغنون والمغنيات والعازفون والعازفات وايضا وجد الراقصون من الرجال والراقصات اللاتي جلبهن المماليك من اليهود والأرمن .

كما شاع في العصر المملوكي وسائل ترفيهية اخرى عرفت بالوسائل المنزلية أو الهادئة وهي في الغالب لا تحتاج الى حركة ولكن يلزم لها الهدوء والجلوس مما دعا البعض الى تسميتها بالألعاب الهادئة ومن أمثلة ذلك ، لعبتا النرد والشطرنج واتضح من خلال الدراسة اشترك الكثيرين في هذه اللعبة خاصة الشطرنج .

فبرغم انه لعبة ارسنقراطية للملوك والعظماء فان كثيرا من الطوائف قد مارست هذه اللعبة كالقضاة والعلماء والتجار وغيرهم .

كما وجد ايضا من هذه الألعاب لعبة الورق التي كان يمارسها بعض أفراد الشعب ولم نستدل على أن أحدا من السلاطين قد مارس لونا من ألعاب الورق .

أما ألعاب الأطفال فقد تنوعت على الرغم من أن أطفال العامة لم تكن لهم ألعاب مميزة عن غيرهم من الأطفال في أي عصر بل أن أطفال الممالك بطبيعة الحال وخاصة أبناء السلاطين والأمراء وكذا السلاطين الأطفال كانت لهم ألعاب متنوعة وإن كانوا قد بالغوا أحيانا في ذلك . وغلبت على أطفال الممالك الألعاب العسكرية نتيجة لتربيتهم في الطباق التي تعتبر مدارس عسكرية يتخرج فيها الملوك ويستمر تعليمه عند سيده حتى يصبح فارسا .

وثمة وسيلة ترفيهية أخرى شاعت في عصر سلاطين الممالك وهي خيال الظل التي كانت مجالا للترفيه بالنسبة للسلاطين والأمراء والعامة على السواء ، بل هي الوسيلة الأهم بالنسبة للطبقات الدنيا التي وجدت فيها السلوى وعبر بفنهما عما يريدون ذلك لاختلاط أربابها ومعايشتهم لطوائف الشعب .

وقد انتقد المخيلون بفنهم بعض الأوضاع التي كانت سائدة في ذلك العصر فلم يستطع ذلك غيرهم في الغالب الأعم ، فيسوقون النقد في أسلوب ساخر ضاحك فيمر دون مؤاخذة وقد اوضحت الدراسة أن وسائل الترفيه التي وجدت ومورست في العصر المملوكي إنما كانت في معظمها امتدادا لمثيالاتها في العصور الإسلامية السابقة وإن غلب عليها طابع خاص في العصر المملوكي لما تميز به الممالك من حيوية ونشاط .

هذا مع قلة ما أحدثوه من وسائل جديدة للترفيه في عصرهم فلم نجد جديدا منها في عصرهم سوى لعبة القبق فلم تشر اليها مصادر سابقة على عصرهم .

وامكن الوقوف على مشاركة جميع فئات الشعب في الترفيه وان اختلفت الوسيلة كالعلماء والقضاة وعمامة الناس .

واختلفت مواقف السلاطين والامراء تجاه بعض وسائل الترفيه فمنهم من شجع اللعب والرياضة كالرماية والصيد والفروسية وغيرها فاقاموا لها الميادين المختلفة وحرصوا الناس عايتها . ومنهم من انهمك في اللهو وأسباب الترفيه من شراب وغناء وخلافه كما وجد من السلاطين من حاربوا أسباب الخلاعة والمجون فمنعوا المسكرات والبغايا الا أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا فسرعان ماكانت تعود الحال كما كانت و احيانا أشد . وكان هذا المنع غالبا مايكون في ضوء ما تتعرض له البلاد من كوارث وازمات .

كما ان تعلق الناس في ذلك العصر بضروب الترفيه والملاهي كان له اثره الواسع في أدبهم وشعرهم فعبير الشعراء والأدباء شعرا او نثرا مما أثرى الحياة الأدبية في ذلك العصر .

ولوحظ من خلال الدراسة ان بعض وسائل الترفيه كانت ارسنقراطية لايمارسها غير السلاطين والامراء ولم يكن لعامة الناس مشاركة ايجابية فيها مثل الفروسية والصيد والاعاب القبسق والبولو على سبيل المثال .

وان كان الشعب قد شارك حكامه بدرجة او بأخرى الكثير من متعهم كالاستمتاع بمجالس الطرب غناء ورقصا وموسيقى فقد كانت معظم هذه المجالس مفتوحة . تقام في مواضع المتنزهات والفرجة بحيث يمكن للراغبين الاستمتاع بها متى شاءوا .

ولوحظ ان فئات الشعب مع استمتاعهم ببعض وسائل الترفيه فانها فى ذات الوقت تحملت اعباء ذلك وما ترتب عليه من نفقات فى اقامة الزينات التى ضج الناس منها لكثرة المناداة بها فى كل مناسبة مهما كانت . فيرسم السلاطين والامراء باقامة الزينة بأوامر صارمة لا يملك الناس الا الامتثال لها .

ولعل الشعب فى ذلك كان غاضبا راضيا لأنه وجد فى هؤلاء المماليك فرسانا وحماة للبلاد ردوا عنها اخطارا داهمة من الصليبيين والتتار .

وتأثرت وسائل الترفيه راجا او اندسارا بالحالة الاقتصادية للبلاد فكانت رائجة فى اوقات اليسر ، منحسرة فى اوقات الأزمات والمجاعات والأوبئة وتعتبر الفترة الأولى من العصر المملوكى اكثر ترفيها نظرا لغنى الدولة المملوكية بدرجة كبيرة رغم كثرة الحروب .

ومع استمرار وسائل الترفيه ابان عصر المماليك الجراكسة فانه كان بداية النهاية لعصر سلاطين المماليك خاصة عندما ظهر الخطر العثمانى الذى أصبح يهدد الدولة حتى قضى على استقلالها عام ١٥١٧/٩٢٣م .

* * *

ثبت المصادر والمراجع

(١) المخطوطات :

- ١ - ابن بكتوت الرمساح :
- كتاب الفروسية وعلاج الخيول ، مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ٤ فنون حربية .
- ٢ - جمال الدين حسين بن أحمد :
(غير معروف وفاته)
- روضة المستهام فى علم الانفسام ، مخطوط مصور
ميكروفيلم ضمن كتاب فى معرفة الغناء والهنوك ، بمعهد
مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٣٢ موسيقى ،
وتوجد نسخة أخرى ناقصة بنفس المعهد تحت رقم ٢٩
موسيقى .
- ٣ - ابن دائيسال :
(شمس الدين محمد بن دائيسال بن يوسف الخزاعى الموصلى
ت ٧١٠ هـ) .
- طيف الخيال ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم
٥٣٥٦ أدب .

٤ - السرزاز :

(بديع الزمان أبى العز بن اسماعيل الجزرى ت ٦٧٢ هـ)
- الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل ،
مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول
العربية تحت رقم ٢ ، ٥ ، صناعة اطعمة .

٥ - صفى الدين الارموى :

(ق ٨ هـ)

- مختصر فى معرفة النغم ونسب أبعاده وأدواره ، مخطوط
مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية
تحت رقم ٤٠ موسيقى .

٦ - ابن الطحان (ابو الحسن محمد بن الحسن ق ٨ هـ) :

- حاوى الفنون وسلوة المحزون ، مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ١٣٦٢ موسيقى وتوجد نسخة أخرى
مصورة ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية
تحت رقم ١٣ موسيقى .

٧ - طيفا الأثرى :

- كتاب بغية المرام وغاية الغرام فى الرمى بالنشاب ،
مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٣ فروسية (القرن
الثامن الهجرى) .

٨ - أبو العباس أحمد محمد إبراهيم :

- هداية الرامى الى طريق المرامى (فى علم الرمى
بالبنديق) مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة
الدول العربية تحت رقم ٥١ فنون حربية ، وتمت كتابتها سنة
١٠٨٠ هـ ورقم ٧٦ فنون حربية بدار الكتب المصرية .

٩ - عبد الرحمن بن أحمد الطبرى :

- الواضح فى علم الرمى ، ضمن مخطوط مجموع فى الفروسية والخيل والرمى تشتمل على رسائل ومنتخبات هى :

العديم المثل الرفيع القدر ، لم يعلم مؤنفة ، منتخبات مختلفة فى الرمى والفروسية وأدوات القتال ، تمت كتابتها سنة ٨٧١ هـ .

١٠ - العينى (بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ هـ)

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ وقد حقق منه د . عبد الرازق القرموط ما بين سنة ٨١٥ هـ وسنة ٨٥٠ هـ على مرحلتين نشر بعضها لأول مرة سنة ١٩٨٥ .

١١ - القاسم بن على الزينى :

- كتاب القوانين السلطانية فى الصيد مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٤١ فنون حربية .

١٢ - المشهدى (محمد بن على بن أحمد بن عبد الرحمن المشهدى ق ٩ هـ) :

- كشف الهموم والكرب فى شرح آلة الطرب مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٣٨ موسيقى وتوجد نسخة أخرى منه بالمكتبة الازهرية برقم ٧٣٠٨ وهى خالية من اللوحات والصور بعكس الأولى .

١٣ - أبو المظفر بن سعيد المعروف بالجلال :

- كتاب الشطرنج ، مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد
مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ١ موسيقى .

١٤ - محمد بن علي الصغير :

- رمى الشباب ، مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد
مخطوطات جامعة الدول العربية تاريخ النسخ ٨٢١ هـ
تحت رقم ٢١ فنون حربية .

(ب) المصادر العربية المطبوعة

١٥ - ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩ هـ) :

- معالم القرية فى أحكام الحسبة ، القاهرة ١٩٤٩ تحقيق
د . محمد محمد شعبان ، وصديق أحمد عيسى .

١٦ - الادفوى (كمال الدين جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨ هـ)

- الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ، القاهرة ،
١٩٦٦ تحقيق سعد محمد حسن .

١٧ - ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس المصرى . ت ٥٩٣٠ هـ)

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٤ أجزاء تحقيق محمد
مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ ، ١٩٨٢ ، ج ٣ ط
بيروت .

- المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور كتاب الشعب ،
القاهرة ١٩٦٠ .

١٨ - بدر الدين أبو عبد الله الحنبلى . ت ٧٧٧ هـ :

- مختصر الفتاوى لابن تيمية .

- ١٩ - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي • ت ٧٧٩ هـ)
 - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ج ١
 ج ٢ القاهرة ، ١٩٦٤ طبعة دار الكتاب اللبناني •
- ٢٠ - ابن تغري بوردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف •
 ت ٨٧٤ هـ)
 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة • القاهرة
 ١٩٣٨ ، ١٩٧٠ •
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى ج ١ ، القاهرة
 ١٩٥٦ •
- حوادث الدهور في مدى الايام والشهور •
- ٢١ - ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد جبير الكنانسي
 الأندلسي)
 - رحلة ابن جبير ، تحقيق د • حسين نصار القاهرة
 ١٩٥٥ •
- ٢٢ - ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري
 الفاسي • ت ٧٣٧ هـ)
 - المدخل الى الشرع الشريف ، ٤ أجزاء القاهرة ١٣٤٨ هـ •
- ٢٣ - ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب) :
 - تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٨٢
 تحقيق محمد محمد أمين •
- ٢٤ - ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلاني • ت ٨٥٢ هـ) :
 - انباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشى • القاهرة
 ١٩٧٢ •

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة نشر وتصحيح سالم الكرنكوى الالمانى طبعة بيروت (بدون) .
- ٢٥ – ابن الحسين (ابو عبد الله الحسن بن الحسين) :
– كتاب البيزرة ، تحقيق محمد كرد على دمشق ١٩٥٣ .
- ٢٦ – الخطيب الجوهري (ابن داود الصيرفى) :
– نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ج ٣ القاهرة ١٩٧٣ .
- انباء الهجر بانباء العصر ، تحقيق حسن حبشى .
القاهرة ١٩٧٠ .
- ٢٧ – ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ) :
– المقدمة ، ج ١ طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١٩٦٦ تحقيق على عبد الواحد وفى القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١٩٦٦ .
- ٢٨ – ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيمن العلائى ت ٨٠٩ هـ)
– الانتصار لواسطة عقد الأمصار . ج ٤ القاهرة ١٣٠٩ هـ
- ٢٩ – الراوندى :
– راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية نشره بالفارسية محمد اقبال وترجمه الى العربية ابراهيم أمين الشواربى واخرون القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣٠ – ابن الزيات : (ت ٨١٤ هـ)
– الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ، بغداد .
- ٣١ – زيفر شتين ، تاريخ سلاطين المماليك (لم يعلم جامعه)
نشره زيفر شتين . ليدن سنة ١٩١٩ م .

- ٣٢ - السبكي (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ت ٧٧١ هـ) :
 - معيد النعم ومبيد النقم . ليدن سنة ١٩١٩ .
- ٣٣ - السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن ابي بكر عثمان السخاوي ت ٩٠٣ هـ)
 - المصوء اللامع في أهل القرن التاسع ج ٥ . القاهرة ١٣٥٤ هـ
 - التبر المسبوك في ذيل السلوك . القاهرة ١٣١٥ هـ .
- ٣٤ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١ هـ) :
 - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٢٧ هـ .
- ٣٥ - ابن شاکر الکتبي (محمد بن شاکر بن أحمد ت ٧٦٤ هـ) :
 - فوات الوفیات . بولاق . القاهرة ١٨٨١ .
- ٣٦ - ابو شامة المقدسي (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ت ٦٦٥ هـ) :
 - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٣٧ - الشوكاني (محمد بن علي ت ١٢٥٠ هـ)
 - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- ٣٨ - الصفدي (صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي . ت ٧٦٤ هـ)
 - أمراء دمشق في الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٥ .

- ٣٩ - ابن طولون (شمس الدين محمد بن طولون ت ٩٥٣ هـ)
 - مفاكحة الخلان فى حوادث الزمان تاريخ مصر والشام ،
 تحقيق محمد مصطفى • القاهرة ١٩٦٤ •
- ٤٠ - ابن ظهيرة (غير معروف بالتحديد) :
 - الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، نشره
 مصطفى السقا ، وكامل المهندس القاهرة ١٩٦٩ •
- ٤١ - ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه •
 ت ٣٢٧ هـ) :
 - العقد الفريد ج ١ القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٧ القاهرة ١٩٥٣ •
- ٤٢ - ابن عبد الظاهر (محيى الدين ت ٦٩٢ هـ) :
 - تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور تحقيق
 د • كامل مراد القاهرة ١٩٦١ ، ١٩٧١ •
- ٤٣ - ابن المعاد (ابو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى
 ت ١٠٨٩ هـ) :
 - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب • القاهرة ١٣٥١ هـ •
- ٤٤ - العينى (بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ هـ) :
 - السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد • تحقيق فهم محمد
 شلتوت القاهرة ١٩٦٧ •
- عقد الجمان ، من سنة ٨١٥ - ٨٥٠ هـ نشر وتحقيق
 د • عبد الرازق قرموط • القاهرة ١٩٨٥ •
- ٤٥ - الغزولى (علاء الدين على بن عبد الله البهائى)
 - مطالع البدور فى منازل السرور ج ١ القاهرة ١٣٠٠ هـ •

- ٤٦ - أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل أبو الفدا • ت ٧٣٢ هـ) :
- المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٥ هـ •
- ٤٧ - ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ) :
- تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ بيروت ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ •
نشره د • قسطنطين رزيق •
- ٤٨ - ابن فضل الله العمري (شهاب الدين بن العمري ٧٤٩ هـ) :
- التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢ هـ
- مسالك الابصار في ممالك الأمصار - نشر أحمد زكي •
القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ •
- ٤٩ - القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى) :
- أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ ، بغداد ١٢٨٢ هـ •
- ٥٠ - القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على القلقشندى
ت ٨٢١ هـ) :
- صبح الاعشى في صناعة الانشاء القاهرة ١٩١٥ •
- ٥١ - ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى
بكر ت ٧٥١ هـ) :
- الفروسية ، دار التراث العربى ، بيروت لبنان •
- ٥٢ - ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير
ت ٧٧٤ هـ) :
- البداية والنهاية ، القاهرة •
- ٥٣ - المسعودى (على بن الحسن بن على ، ت ٣٤٦ هـ) :
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٤ بيروت لبنان
١٩٨٢ • ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد بيروت
١٩٧٣ •

- ٥٤ - المقرئزى (تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥) :
 - السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر د . مصطفى زيسادة
 جزءى ١ و ٢ فى ستة أقسام . ونشر د . سعيد عاشور
 جزءى ٣ و ٤ فى ستة أقسام أخرى . القاهرة ١٩٧٣ .
 - الخطط : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار القاهرة
 . ١٢٧٠ هـ) .
- ٥٥ - النواجى (شمس الدين محمد بن الحسن ت ٩٥٩ هـ) :
 - حلبة الكميت . القاهرة . ١٢٢٩ هـ .
- ٥٦ - الخويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٨٣٣ هـ) .
 - نهاية الأرب فى فنون الأدب الأجزاء المطبوعة القاهرة
 . ١٣٤٩
- ٥٧ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموى
 ت ٦٩٧ هـ) .
 - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق د . جمال
 الدين الشيال القاهرة .
- ٥٨ - ابن الوردى (عز الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ،
 ت ٧٤٩ هـ)
 - تامة المختصر فى أخبار البشر القاهرة ١٢٨٥ هـ .

ثالثيا : المراجع العربية الحديثة :

- ٥٩ - إبراهيم حمادة (دكتور) :
 خيال الظل وتمثليات ابن دانيال . القاهرة .
- ٦٠ - أحمد أمين أحمد :
 قاموس العادات والتقاليد والتعبير المصرية القاهرة .
 . ١٩٥٣

- ٦١ - أحمد قيسور :
 لعب العرب ، القاهرة ١٩٤٨ .
 خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب ،
 القاهرة ١٩٥٧ .
- ٦٢ - أحمد رشدي :
 الأدب الشعري ، القاهرة ١٩٧١ .
- ٦٣ - أحمد شلبي (دكتور) :
 موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج ٥ ،
 القاهرة ١٩٧٧ .
- ٦٤ - أحمد صادق :
 الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي القاهرة
 ١٩٦٦ .
- ٦٥ - أحمد عبد الرازق (دكتور) :
 وسائل التسلية عند المسلمين ، دراسات في الحضارة
 الاسلامية مجلد ١ ، القاهرة ١٩٨٥ .
- ٦٦ - أحمد مختار العبادي (دكتور) :
 دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ .
- ٦٦ - أحمد نجم وآخر :
 اصول الشطرنج . الاسكندرية ١٩٥١ .
- ٦٧ - السيد الباز العريني (دكتور) :
 الفروسية في مصر ، في عصر سلاطين المماليك
 رسالة دكتوراه القاهرة ١٩٥٥ .
- ٦٨ - السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
 تاريخ الاسكندرية وحضارتها ١٩٦١ .

- ٦٩ - ايتجهاوزن :
التصوير عند العرب ، ترجمة عيسى سليمان وطه
التكريتى ، بغداد ١٩٧٤ .
- ٧٠ - جورج زيدان :
تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ١ ،
- ٧١ - جمال الفيطنى :
ملاحم القاهرة فى ١٠٠٠ عام - كتاب الهلال القاهرة
١٩٨٣ .
- ٧٢ - حسن ابراهيم حسن (دكتور) :
تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ،
القاهرة ١٩٤٨ ، ١٩٦٤ .
- ٧٣ - حسن السندوبى :
تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ج ١ القاهرة ١٩٤٨ .
- ٧٤ - حسين فرج زين العابدين :
صيد الوحوش ، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٧٥ - سعد الخادم :
الدمى المتحركة عند العرب ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ٧٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٣ .
العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .
المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك ، القاهرة
١٩٦٣ .
بحث عن نساء القاهرة فى عهد سلاطين المماليك الندوة
الدولية لتاريخ القاهرة ، وزارة الثقافة القاهرة ١٩٧١ .

- ٧٧ - سيدة الكاشف (دكتورة) :
 • مصر فى عهد الاخشيديين ، القاهرة . ١٩٥٠ .
- ٧٨ - شوقى ضيف (دكتور) :
 • الفكاهة فى مصر ، القاهرة ١٩٨٥ .
 • الشعر والغناء فى المدينة ومكة . القاهرة ١٩٧٦ .
- ٧٩ - عبد الحميد يونس (دكتور) :
 • التراث الشعبى ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٨٠ - عبد الرحمن زكى (دكتور) :
 • القاهرة تاريخها واثارها . القاهرة ١٩٦٦ .
- ٨١ - عبد السلام محمد هارون :
 • الميسر والأزلام ، القاهرة ١٩٥٣ .
- ٨٢ - عبد المنعم ماجد (دكتور) :
 دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج ٢ ، القاهرة
 • ١٩٦٧ .
- ٨٣ - عبد الوهاب حمودة :
 صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى . القاهرة
 • ١٩٦٥ .
- ٨٤ - عبد الوهاب عزام (دكتور) :
 مجالس السلطان الغورى ، القاهرة ١٩٤١ .
- ٨٥ - على ابراهيم ابوزيد (دكتور) :
 تمثيلات خيال الظل ، القاهرة ١٩٨٢ .
- ٨٦ - على ابراهيم حسن (دكتور) :
 دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر
 محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٨ .

- ٨٧ - **على مبارك :**
 المخطط التوفيقية الجديدة ج١ ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ٨٨ - **عمر فروخ :**
 تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ بيروت ١٩٧٩ .
- ٨٩ - **عطاس عبد الملك خشبة :**
 تطور الشعر فى الغناء العربى ، سلسلة كتابك . القاهرة
 . ١٩٧٧
- ٩٠ - **فؤاد فرج :**
 القاهرة ج٣ ، القاهرة ١٩٤٦ .
- ٩١ - **فتحى عبد الهادى (دكتور) :**
 التراث الغنائى المصرى الفلكلور ، القاهرة ١٩٧٨ .
- ٩٢ - **فيليب حتى :**
 تاريخ العرب مجلد ٢ ، ترجمة محمد مبروك نافع ،
 القاهرة ١٩٥٢ .
- ٩٣ - **فوزى محمد أمين (دكتور) :**
 المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى القاهرة
 . ١٩٨٢
- ٩٤ - **قاسم عبده قاسم (دكتور) :**
 دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين
 المماليك ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٩٥ - **محمد أحمد الحفنى (دكتور) :**
 محيط الفنون ، باب الموسيقى العربية من قبل الاسلام حتى
 سيد درويش ، القاهرة .

٩٦ - محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

- الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره
- دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠

٩٦ب - محمد جميل بيهم :

- قوافل العروبة ومواقبها خلال العصور ، بيروت ١٩٤٨

٩٧ - محمد حمدى المناوى :

- نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦

٩٨ - محمد عادل خطاب (دكتور) :

- الألعاب الريفيه
- النشاط الترويحي وبرامجه ، القاهرة ط١

٩٩ - محمد قنديل البقلى :

- الطرب فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٤
- الاوزان الموسيقية فى ازجال ابن سودون القاهرة ٧٦

١٠٠ - محمد محمود سامى :

- تاريخ الموسيقى والغناء العربى ، القاهرة ١٩٧١

١٠١ - محمد مصطفى :

- المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى - القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ١٩٤٩

١٠٢ - محمود رزق سليم (دكتور) :

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ، القاهرة ١٩٤٧

النيل فى عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٥

- ١٠٣ - مختار السويقي :
خيال الظل والعرائس فى العالم ، القاهرة .
- ١٠٤ - نبيل محمد عبد العزيز (دكتور) :
الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك ، القاهرة
١٩٨٠ .
- ١٠٥ - نسيب الاختيار :
الفن الغنائى عند العرب ، بيروت ١٩٥٥ .
- ١٠٦ - نعمات أحمد فؤاد (دكتورة) :
الأدب والحضارة ، سلسلة كتابك ، القاهرة ١٩٨١ .
- ١٠٧ - يوسف القرضاوى (دكتور) :
الحلال والحرام فى الاسلام ، القاهرة .
- ١٠٨ - وزارة الثقافة :
القاهرة فى الف عام ٩٦٩ - ١٩٦٩ طبعة القاهرة
١٩٧١ .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

- Ahmed Rbd ar-Raóiq, Deux jeux, ds. Annales — ١٠٩
Islamologiques. XII (1974).
Lachsase au quépard d'apre's len sources arbaes et
Les oeuvres.
- E.L. Hamann, Z. M6, Band 91 Heft 2, — ١١٠
1937).

- F. Viré traité de L'art de volerie, (Kitabal — ١١١
— Bayza ré). Arabico, XII (1965).
- H.Y.R. Murray, A. History of chess. — ١١٢
Oxford, 1913.
- Lane — Poole, Cairo, London (1892). — ١١٣
- A hist of Egypt in the middle ages London (1930).
- M. Mostafa, Miniature paintings in some — ١١٤
Mamlug Manuscripts, B1E, L 11, (1970 — 1971).

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
تمهيد	٧
الباب الأول : المجالس	١٧
الفصل الأول : مجالس العلم والوعظ والقصص	١٩
الفصل الثاني : مجالس الأدب والشعر	٥٥
الفصل الثالث : مجالس الشراب والطرب	١١١
الباب الثاني : الألعاب الرياضية	١٧٧
الفصل الأول : الفروسية والرماية . القبق	١٧٩
الفصل الثاني : الصيد والقنص - الرمي بالبندق	٢٠٩
الفصل الثالث : ألعاب الكرة - السباحة والألعاب الأخرى	٢٤١
الباب الثالث : الألعاب المنزلية أو الهادئة	٢٠٥
الفصل الأول : النرد والشطرنج	٢٠٧
الفصل الثاني : لعب الورق وألعاب الأطفال	٣١٧
الفصل الثالث : خيال الظل	٢٣١
الخاتمة	٢٥٩
ثبت المصادر والمراجع	٣٦٥

صادر من هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - على ماهر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتى لازمة الحياة الفكرية ،
د . على بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة الحزبية :
محمود فوزى ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير ،
د . نبيل راغب ، ١٩٨٨

- ١٣ - أكتوبية الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي ،
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر :
دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،
د . حلمى احمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء التشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،
د . محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د . على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د . احمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د . محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، د ١ ،
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى د ٢ ، امام
التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
د . نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الأسساذى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د . أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، د ١ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، د ٢ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر فى عصر الأختشينيين ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى لاقاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، د ٢ ،
لمى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع
الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ الملاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور
الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د . يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - **اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - **المجتمع الاسلامى والغرب ، ٢ ،**
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،**
د . سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - **فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى في العصر
العثماني**
د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - **قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،**
د . جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - **الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د . عبد المنعم الدسوقي الجميى ، ١٩٩٠
- ٤١ - **محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،**
د . رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - **تكوين مصر عبر العصور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - **رحلة في عقول مصرية ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - **الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ،**
د . محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - **الحروب الصليبية ، ١ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم د . حسن حبشى ،
١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٢٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د . لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى ،
د . زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د . سسهير اسكندر ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، فى أبريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن
الثامن عشر ،
د . الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من ديانة الماليك الجراكسة ،
د . محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،
د . محمد عفيفى ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ٢ ،
تأليف : وليم الصورى : ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن إقليم
المنوفية ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الاسلامية واهل الذمة ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - احمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د . ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التاميم
(١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبد الحلیم عاير ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ح ٣ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د . سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د .
عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة
وثائقية ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)
سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣
- ٦٧ - مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس

- الاعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، في ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ٣ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة : وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - اهل النمة في الاسلام ،
تأليف : ا . س ترنون ، ترجمة وتعليق : د حسن حبشى ،
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر
في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د . رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - اهل النمة في مصر ، في العصر الفاطمي الاول ،
د . سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥
- ٧٦ - دور التعليم المصرى في النضال الوطنى (زمن الاحتلال
البريطانى) ،
د . سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

- ٧٧ - الحروب الصليبية ، د ، ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د حسن
حبشى ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي بونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو
الى نصر أكتوبر ،
د . رمزي ويخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، د ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، د ٢ ، القسم الاول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د . أحمد الشربيني ، ١٩٩٥

- ٨٧ - مذكرات اللورد كلايرن ، ١ هـ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - دهالة غير المسلمين في الدولة الاسلامية ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د . نبيه ببوهى عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
ج ٢ ،
د . سهير اسكندر ، ١٩٩٦
- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الافريقية المعاصرة ،
(ابحاث الندوة التي اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الافريقية بجامعة القاهرة)
أعدتها للنشر د . عبد العظيم رمضان

- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د . ايمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د . محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى -
الرومانى) ٢ ،
د . سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ . د . عبد العزيز صالح ، أ . د . جمال مختار ،
أ . د . محمد ابراهيم بكر ، أ . د . ابراهيم نصحي ،
أ . د . فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ . د . عبد العظيم
رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الفاتية ،
اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/ عبد الحميد
كنافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطانى في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ ،
د . تيسير أبو عرجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره ،
د . على بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) ،
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد

- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ -
١٩٨٧) ،
د . أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ، ٢ ،
د . سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ، ٤ ،
سليم خليل النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ، ٥ ،
سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ١ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ٢ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدقي ،
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د . اسماعيل عز الدين
- ١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر ،
أحمد رشدى صالح

- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، د ٣ ،
أحمد شفيق باشا
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والمثام زمن سلاطين المماليك ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية (دراسة وثائقية)
حسب محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوديات من التاريخ المصري الحديث (١٧٧٥ - ١٩٥٢)
لويس جرجس
- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤) ،
محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين د ٦ ،
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البدوى ،
د . سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن ،
د . محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين د ٧ ،
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين د ٨ ،
سليم خليل النقاش

- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨) ،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
- ١٢٨ - معارك صحفية ،
جمال بدوى
- ١٢٩ - الدين العام (وأثره فى تطور الاقتصاد المصرى)
(١٨٧٦ - ١٩٤٣) ،
د . يحيى محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ - ١٩٩٧) ،
سمير فريد
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨)
جايل ماير
- ١٣٢ - دار الندوب السامى فى مصر ١
د . ماجدة محمد محمود
- ١٣٣ - دار الندوب السامى فى مصر ٢
د . ماجدة محمد محمود
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى
لدارندلى
بقلم : عزت حسن أفندى الدارندلى
ترجمة : جمال سعيد عبد الفنى
- ١٣٥ - اليهود فى مصر المملوكية (فى ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د . محاسن محمد الوقاد
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق
تقديم : ا . د عبد العظيم رمضان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

هذا الكتاب يتحدث فيه الباحث عن ثلاثة أنواع من المجالس: مجالس العلم والوعظ والقصص، ومجالس الأدب والشعر، ومجالس الشراب والطرب.

أما عن الألعاب الرياضية فقد تحدث فيها عن ألعاب الفروسية والرماية، وناول فيها لعبة رياضية مرتبطة بالفروسية تسمى لعبة القبق أو القباق، ومعناها بالتركية «القرعة العسلية»، وقد أطلق في العربية على الهدف الذي كان مستعملا في لعب الرماية، والمعروف باسم «القبق» في عصر المماليك.

كذلك تحدث عن الصيد والقنص، والرمى بالبندق، وهو الكرات الصغيرة من الحجارة أو الطين أو الرصاص أو الفضة أو الذهب، التي كانت تطلق بالمزاريق في رمى الطيور، ومن هنا اسم البندقية الحديثة لنفس الغرض كسلاح لارى.

كذلك تناول الباحث في هذا الباب ألعاب الكرة والسباحة وغير ذلك من الألعاب مثل سباق الخيل، والمصارعة، واللعب بالطيور، ورفع الأثقال الذي كان يطلق عليه اسم «المعالجة»، والملاكمة أو «اللكام»، والتحطيب، ومناقرة الديوك، وتناطح الكباش والثيران.

أما الباب الثالث، فتناول فيه الباحث ألعاب النرد والشطرنج ولعب الورق وألعاب الأطفال، وتناول في فصل خاص ألعاب خيال الظل.